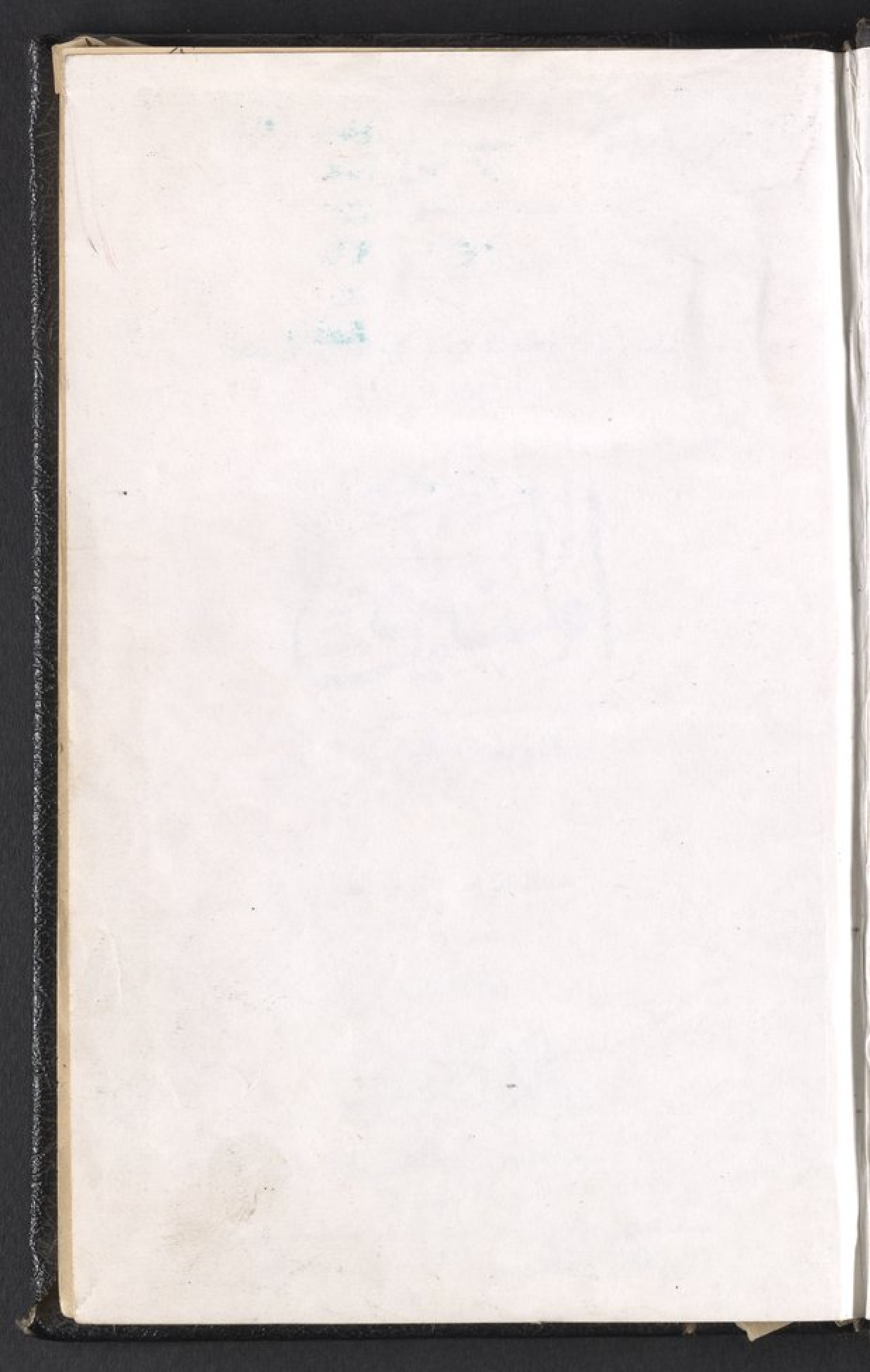

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00845 5622


FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO



شفيق جبري

« عضو المجمع العلمي العربي »

المحاضرات التي القاها المؤلف في كلية الآداب في دمشق
سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠

المتنبي

مالئ الدنيا وشاغل الناس

اعتنت بنشره

مكتبة الشرق

لصاحبيها محمد عدنان الجزائري واخيه

شام سكية تأسست سنة ١٩٢٢

١٩٣٠ مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٣٤٩

هذا ما حاضرت به سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ في كلية الآدا[illegible] دمشق ، وقد جمعت محاضراتي في كتابي هذا دون ان ازيدها [illegible] انقصها شيئاً فعساها ان تكون ذكرى طيبة لاول كلية ادبية أنش[illegible] ديارنا واني لارجو ان تظهر في اضعافها نيات صاحبها في ا[illegible] المحبةَ للادب ؟

حزيران ١٩٣٠ — شفيق جبري

الأدب

«افقه . فعله . غايته»

فكّرت في شيء من الكلام أمهد به السبيل الى دارسة الادب في خلال هذه السنة ، قلت : دراسة الادب ، وكان يجب عليّ أن أقول : أحاديث الأدب . لأن كلمة الدراسة تدل على شيء من جهد الذهن وعنت الفكر ، وما ينبغي للادب ان يكون الا ألهية يتلاهى بها العقل ، لكنها ألهية شريفة لاتشبه غيرها من الألاهي ، ماينبغي للأدب انيكون الا لذة الفكر وراحة البال . فكرت في شيء من الكلام أستعين به على الاستهلال ثم عدلت عن التفكير وقلت ماقاله الاستاذ (برونتير Brunetière) في محاضرة من محاضراته[1] : لعلكم تعترفون بان المقدمات الطويلة لا تكون في كل حين اروع المقدمات وأفضلها ، فلنشرع في حديثنا الاول دون الافاضة في التمهيد .

* * *

قلت : الأدب ألهية ولكنها شريفة . واذا اردنا ان نعرف مبلغ شرفها لزمنا ان ننظر الى أفق الأدب المديد . فمتى ادركنا العالم الذي يحيط به الادب علمنا مقدار اتساع افيائه وانبساط سلطانه .

قال «اناتول فرانس Anatole France» في مقال له في معجمات اللغة[2] :

«اني أحب معجمات اللغة . فانا لا احبها لمجرّد فائدتها العظيمة ولكني احبها لانها تحتوي على شيء جميل فخم . انظر الى معجم غازية او الى غيره من المعجمات وتصور انك ترى روح وطننا كله في هذا المعجم ، ليتصور ذهنك ان في هذه الصفحات التي يبلغ عددها الف صفحة او الفاً ومائتي صفحة عبقرية فرنسة وطبيعتها . ليتصور ذهنك ان

---

(١) اطوار الشعر الغنائي فى فرنسة فى القرن التاسع عشر - ص ٣

(٢) الحياة الادبية - الجزء الثاني - ص ٢٧٩

فيها افكارنا وافكار اجدادنا وافراحنا وافراحهم واعمالنا واعمالهم وآلامنا وآلامهم. ليخطر ببالك ان في هذا المعجم آثار الحياة العامة وحياة الدور والمنازل، آثار الذين استنشقوا الهواء الصالح وشموا النسيم العليل الذي نشمه اليوم. ليخطر ببالك ان كل كلمة من كلمات المعجم يقابلها فكر من الأفكار كان فكر طائفة من البشر لا يعلم عددهم. وعاطفة من العواطف كانت عاطفة جمهور من الناس لايحصى مقدارهم. ليهجس في صدرك ان كل هذه الكلمات المجموعة انما هي لحم الوطن والبشر ودمهما وروحهما».

اني احب ان اقتبس قول اناتول فرانس في اللغة فأقوله في الادب نفسه فاذا قلنا في الادب ما قاله اناتول في اللغة، اذا قلنا على سبيل التجوز ان الادب روح الوطن وعبقريته ادركنا حينئذ معنى كلامنا: الادب ألهية شريفة لاتشبه غيرها من الالاهي

* * *

كنت أطالع رواية من الروايات [1] فعلقت بذهني عبارة قيدتها في دفتري قالها شيخ ايطالي في حض فتى على درس اللغة اللاتينية:

« ان هذه اللغة الشريفة قد انستني آثارها المنقطعة النظير آلامي وشجوني في معظم الاوقات. كنت يا سيدي أتغدى وماغدائي الا صفحة من «تاسيت» وأتعشى وما عشائي الا اهجية من «جوفنال»».

لقد ادرك هذا الشيخ غاية الادب الادراك كله، ادرك ان الادب يفرج الغم ويكشف الكرب وينشىء في العقول لذة لا يعد لها كثير من لذات الدنيا فهي لذة هادئة لا يضطرب صاحبها ولا يقلق. اني على رأي الذين يريدون ان لا يكون الادب موضوع علم وانما اريد ان يكون الادب كما قال فيه الاستاذ (لانسون Lanson) رياضة وذوقاً ولذة. ولا باس بأن اتلو عليكم فصلا للاستاذ (لانسون) في طبيعة الادب وفعله [2]:

« الادب لا يعلمه المرء علماً ولا يدرسه دراسة وانما يمارسه ويحرثه ويحبه.

---

(١) رغائب يوحنا سرفيان بقلم اناتول فرانس.

(٢) تاريخ الادب الفرنسي - ص ٨

واصدق كلام عليه انما هو كلام (ده كارت Descartes) الذي قال : قراءة الكتب الصالحة حديث يحدّثك به اشرف رجال القرون الخالية ولكنه حديث لا يعرض عليك فيه اولئك الشرفاء الا احاسن افكارهم .

ان الرياضيين — وانا أعرف طائفة منهم — الذين يلهيهم الادب فيذهبون الى المسارح ويقرأون الكتب على سبيل التسلي انما هم أقرب الى الصواب من هؤلاء الادباء الذين لا يقرأون الكتاب قراءة ولكنهم يجردونه تجريداً ويظنون انهم يصيبون الاصابة كلها اذا جعلوه ابواباً . خلق الادب لينشئ لذة لنا ولكنها لذة تروض قوانا العقلية فيخرج العقل من رياضة الادب اقوى سلطانا وامرن طبيعة واغنى مادة وعلى هذه الصورة يكون الادب ثقاف الباطن . هذه هي حقيقة فعله .

وللادب الفضل الاكبر في تدريب الناس على ذوق لذة الافكار : انه يروض الفكر فيجد المرء في هذه الرياضة مسرّته وراحته وتتجدد قواه . انه يذهب تعبنا الذي نتعبه في ممارسة الاعمال ويرفع العقل فوق كل واجب وفوق كل مصلحة وفوق كل وهم . أصبحت الفلسفة في عصرنا هذا ضرورة العقل ولكن الفلسفة لا يستطيع درسها كل واحد منا ، أما الادب فانه يعمم الفلسفة . بالادب تستفيض في الجماعات المذاهب الفلسفية الكبرى التي ترقي هذه الجماعات وتغير أوضاعها . الادب هو الذي يتعهد النفوس التي أثقلتها تكاليف الحياة واغرقتها مشاغل المادة فيحملها على الاعتناء بالمسائل السامية التي تستولي على الحياة وتجعل لها معنى او غاية . لقد ضعف الدين في كثير من رجال العصر وبعد أفق العلم عن كثير من الناس فالادب وحده هو الذي ينزع بنا عن الاثرة الضيقة او عن الحرفة التي تغرس فينا غرائز الحيوانية » .

هذا ما قاله الاستاذ (لانسون) في طبيعة الادب وابلغ كلامه : الادب ثقاف الباطن . من هذا يتبين لنا ان الثقافة الادبية مجردة أي لا غاية مادية لها وكأن الذين قرروا انشاء مدرستنا قد فطنوا لهذا فأحبوا ان ينبهوا عليه فقالوا : غاية مدرسة الادب العليا تثقيف الجمهور تثقيفاً مجرداً وتعليمهم علماً عالياً في نظام الادب ، وهم يعنون بذلك ان الثقافة الادبية لا تكون غايتها الكسب فلا يدرس الانسان

الادب ليعيش به كما يدرس الحقوق أو كما يدرس الطب مثلا وانما يحصل الادب للذته.

اراد احد شباب الفرنسيس ان ينصرف الى الادب فسأل (فلوبر) عن رأيه في ذلك فقال له (فلوبر Flaubert):

« الاخلاص يدفعني الى ان أبين لك ان استثمار عملك أمر صعب جداً ان لم يكن ممتنعاً، انك لا تزال ناعم الشباب فاعمل واعمل كثيراً واعتزل في عملك ولا ترج ان تكون لك مكافأة ولا تفكر في نشر ما تكتب، تقيّل طريقتي فقد كان عمري سبعاً وثلاثين سنة لما نشرت (مدام بوفاري) فاذا خطر ببالك ان تستخرج فائدة من آثارك ضللت وكنت من الخاسرين فلا تفكر الا في الفن ذاته وفي كماله وما عدا ذلك فهو تابع له

لا تظن ان حياة اديب مثلي ناضرة بالازاهير فاذا ظننت شيئاً من ذلك كنت من الواهمين، اذا كان حبك للادب خالصاً فحصّل الادب لنفسك قبل كل شيء واقرأ كثيراً كتب (المدرسيين) وروض قلمك على كتابة اشياء شعرت بها وعلى وصف البيئة التي تأنس بها».

علمنا (فلوبر) ان نحصل الادب لانفسنا دون ان نرجو مكافأة. ينبغي لنا ان نحصل الادب لمسرة قلوبنا ورياضة عقولنا وتهذيب عواطفنا، فاذا لم تكن هذه غايتنا لم نستفد من الادب، اذا كنا نتوخى الكسب في تحصيل الادب انحط ادبنا عن منزلته الرفيعة وصار صناعة من الصناعات التي يمارسها الانسان ليعيش في هذه الدنيا: والادب اجلّ من ان يكون حرفة، اننا نحصّل الادب لنذوق لذة الحياة، اننا نحبه كما كان الشيخ الايطالي يحب آثار اللغة اللاتينية. اننا نحبه لانه ينسينا الآلام والشجون، على انه قد يجوز ان يفيدنا الادب فوائد عظيمة ولكن لا ينبغي ان تكون هذه الفوائد غاية الادب وانما نجنيها على طريقنا في نزهة العقل كما نجني الورد والريحان على طريقنا في نزهة البدن. اننا لا نتنزه لنقطف الورد ولكننا نتنزه لنروض أجسامنا، وكذلك لا ندرس الادب لنعيش به ولكننا ندرسه لنروض به عقولنا.

قلت : قد يفيد الادب فوائد عظيمة ، واذا سمحتم لي قرأت لكم عبارة من مقال لي عنوانه : « الكتاب ملوك » ومن هذا المقال يتبين لكم ان الادب قد رفع كثيراً من الناس ولكن المنفعة يجب ان تأتي على سبيله كما ياتي الورد والريحان على سبيل المتنزهين .

☆☆☆☆

اما وقد فرغت من الحديث الاول فما احب ان اخرج من مجلسنا هذا قبل ان يتأكد عندي اننا ادركنا غاية الادب . ما احب ان اخرج من هذا المجلس قبل ان اثق باننا علمنا ان الادب انما هو : رياضة وذوق ولذة ، لا تتفرغ له لغرض من اغراض الدنيا فهو اجلّ من ان تكون غايته الكسب وانما نمارسه لندرك به جمال هذا العالم . اننا نمارسه لنفرج به غم هذه الحياة . يقول اناتول فرانس في « هوغو » في معرض النقد «١» عاش فيكتور هوغو ثملا تسكره الالوان ورنات الاصوات وقد اسكر العالم بذلك . فاذا جاز لي هذا التعبير قلت : الادب يسكر بالوانه ورنات ألفاظه فهو نزهة عقولنا ونعم النزهة ، يشحذ الطباع ويبجح النفس ويعمر الصدر «٢» اني لا أرى اشتطاطاً في الحكم على الادب يشبه اشتطاط تاسوني Tassoni الذي كان يعتقد ان الادب مضر بالجماعة والبشرية . أي شيء احسن ترويضاً لمداركنا من الادب . اي شيء احسن تهذيباً للاهواء منه . اي ثقافة اعمل في التقريب بين البشر من الثقافة الادبية . واذا لم يكن لادبنا في هذا العصر عاقبته المحمودة فهذا ناشيء عن انه لا يزال فى عزلة عن الانواع الادبية الحديثة التي فعلت فعلتها في الامم . فاذا كان لحديثنا خلاصة فهذه خلاصته :

الادب الهية شريفة وحسبها شرفاً ان يكون موضوعها روح الوطن وعبقريته ؟

٩ تشرين الثاني ١٩٢٩

---

(١) الحياة الادبية ـ الجزء الاول ـ ص ١١٥

(٢) الجاحظ نفسه وهو شيخ ادبائنا يرى هذا الرأي فى الادب ـ طالع فصله فى محاسن الكتابة والكتب في كتابه : المحاسن والاضداد

ثقافة الذوق

دراسة المصادر الادبية . الانفراد بالرأي في الادب

ما أظن انكم نسيتم ما حدثتكم به فى الاسبوع المنصرم ، ما أظن انكم نسيتم أفق الادب و فعله و غايته ، اني اعتقد الاعتقاد كله ان مطافكم فى هذا الافق الفسيح يوطيء لكم السبيل الى الاحاطة بروح وطنكم و عبقريته ، واذا قلت روح الوطن وعبقريته عنيت بذلك ثمرات قرائحه و نتائج خواطره من منبثق فجره الى يومنا هذا . اني أعتقد الاعتقاد كله ان المطاف في هذا الافق يدخل السرور على القلوب ويثقف البواطن و يهذب العواطف و ليس بقليل ان ينسلخ المرء من حيوانيته ويحلق في جو أعلى من جو البشرية ، والادب هذا فعله في الامم . فاذا كانت غايته مجرّدة و ثقافته خالصة نجع واثر : هذا أفقه ، و هذا فعله ، وهذه غايته . ما اظن انكم نسيتم شيئاً من ذلك .

غير اني أتوقع بعد ان بينت لكم أفق الادب و فعله وغايته على سبيل الايجاز وعلى قدر ما سمح به الزمن ، غير انى أتوقع ان تقولوا لي : ادركنا هذا كله ، ولكن كيف السبيل الى ذوق لذة الادب ، كيف السبيل الى الاتصال بهذا الافق والعلم بهذا الفعل والخلوص الى هذه الغاية ، ولو قلتم لي شيئاً من ذلك لوقع القول مني موقعه لان السر كل السر في تمهيد هذه السبيل . قال الاستاذ لانسون Lanson : «١»

« لا أكاد أفهم كيف يدرسون الادب من دون ان تكون غايتهم في دراسته ثقافتهم وحدها ، لا أكاد أفهم كيف يدرسونه من غير ان يكون مرمى فكرهم الالتذاذ بالادب ، لا ريب في ان الذين يتفرغون لتدريس الادب يلزمهم ان يجمعوا معارفهم في نظام واحد وان يهيئوا لهم طرائق في التدريس وان تكون وجهتهم أصح وأوضح من وجهة هواة الادب الصغار . ولكننا لا ينبغي لنا ان نذهل عن أمرين : الامر الاول

---

(١) تاريخ الادب الفرنسي - صفحة ٩

ان أستاذ الادب الذي لا يعنى بتنمية الذوق الادبي في تلاميذه ولا يستميلهم الى ان يبحثوا كل حياتهم في الادب عما يشحذ افكارهم ويسليهم عن همومهم لا يكون أستاذاً صالحاً ، هذا هو الهدف الذي يجب علينا ان نرمي اليه لا ان نعد للطلاب جوابات الى يوم الامتحان ، والامر الثاني لا يستطيع أستاذ الادب ان ينفع بتدريسه ان لم يكن هو نفسه من هواة الادب قبل ان يكون من العلماء ، لا يمكن ان يثمر تدريسه اذا لم يبدأ بتثقيف نفسه بهذا الأدب الذي ينبغي له ان يجعله ثقافاً لغيره ، لا يمكن ان يؤدي تدريسه الى الخواتيم الحسنة اذا كان نقب عن الآثار الادبية وجمعها ، ولم تكن غايته في تنقيبه وجمعه زيادة ادراكه للادب وزيادة لذته بعد هذا الادراك » .

ما أصح هذا الكلام! ما ألصقه بالحقيقة ! الاستاذ الذي لا يعنى بتنمية الذوق الادبي في تلاميذه لا يكون أستاذاً صالحاً ، تنمية الذوق هذا هو هدف الاستاذ وعلى حسب ذوقنا الادبي يكون شعورنا بالجمال . واحساسنا للقبح ، على حسب هذا الذوق يكون ادراكنا لمحاسن العالم ومقابحه ، فاذا فسد ذوقنا الأدبي ضعف شعورنا بجمال العالم وبهجة الحياة ، اذا فسد هذا الذوق انقلبت أضواء الحياة ظلمات بعضها فوق بعض ، وما انحط الادب الا لفساد الذوق ، أصبحنا في عصر لا نستطيع التمييز فيه ، تعرض علينا الآثار الصالحة فلا نهتدي الى التلذذ بصلاحها وتعرض علينا الاثار الفاسدة فلا تنقبض عن مواضع فسادها ، ولو سلم ذوقنا لتيقظ فينا الشعور بمتاعة الاثار وشناعتها ، فما كل أثر من هذه الاثار الادبية فاسد قبيح ، ولا كل واحد منها ماتع جيد ، فالذوق وحده هو الذي يهدينا سواء السبيل في التمييز والاستاذ هو الذي يقوي فينا هذا الذوق . تثقيف الذوق الأدبي هذا كل شيء في الأدب .

وقبل ان أبين كيف يستطيع الاستاذ ان يروّض تلاميذه على ذوق لذة الافكار أحب ان انظر في الامر الثاني الذي أشار اليه (لانسون) اي أحب ان أبين ان أستاذ الأدب الذي لا يكون من هواة الادب لا يستطيع ان يثقف ذوق تلاميذه ،

فالادب شيء وعلم اللغة شيء آخر وقد يجوز ان يضرب الاستاذ في اللغة بالسهم الفائز وان يأخذ منها الحظ الاوفر ولا يكون في هذا كله أديبا ، اي لا يعرف أماكن الجمال ومواطن القبح في آثار اللغة الخالدة فاذا خرج الاستاذ عن ان يكون أديباً ، اذا لم يستطع ان يذوق لذة الجمال أعقم التدريس وأفسد الاذواق ومتى فسد الذوق فسد كل شيء في الادب ، أستاذك ذوقك : هذه كلمة (فولتير Voltaire)

قلت : تثقيف الذوق الادبي هذا كل شيء في الادب ، فكيف يثقف هذا الذوق و يقوّم ، كيف يدرب على التمييز في الاثار الادبية ، هنا العقبة الكؤود ، وهنا يظهر ضعفنا وينكشف امرنا . سئلت مرة عن رأيي في اساليب طلاب (البكالوريا) في الانشاء ، فقلت بعد التمحيص والتدقيق في جملة ما قلت : ان الطلاب لم يتعمقوا التعمق كله في الموضوعات التي طرحت عليهم ، فقد كانت افكارهم سطحية على انهم كانوا يستطيعون بفضل ثقافتهم العامة التعمق في الموضوعات والذنب في ذلك يرجع الى اساليب التدريس فلم ينظر الطلاب في كتاباتهم نظرات عامة اي انهم لم يبحثوا عن كاتب او شاعر على وجه عام او عن نتائج عصر من العصور على صورة عامة ، او عن التطور الادبي في خلال العصور ، ان الاساتيذ لا يدربونهم على التفكير ولا يعودونهم ان تكون لهم افكار عامة في موضوعات حديثة . وجملة القول ان تدريس الادب ينقصه الشيء الكثير فهو لا يستند الى دراسة المصادر الادبية نفسها اي الى دراسة كلام المؤلف او شعر الشاعر او خطبة الخطيب فان تفسير هذه المصادر هو المعتمد عليه في تدريس الادب والظاهر ان هذا النقص ذاته كان في مدارس فرنسة حتى جاء في بلاغات وزارة معارفها سنة ١٩٠٢ ان تدريس الادب يجب ان يكون اساسه درس المصادر الادبية نفسها .

المعول عليه من كلامنا هذا درس المصادر الادبية لان هذا الدرس هو الذي يقوّم الذوق فكيف تدرّس المصادر الادبية ، كيف يشرح كلام الكتاب وشعر

الشعراء هذا الذي نحوم عليه ونلوب فلا نكاد نصل اليه ، فقد كنا ولا نزال اذا شرحنا شعراً نتوخى تفسير الغريب من هذا الشعر واعراب المشكل من تراكيبه والتنبيه على مذاهب الاستعارات والكنايات وسائر فنون المجاز هذا شيء وليس بكل شيء ان التفسير اللغوي قد يولد فينا ميلا الى معرفة مفردات اللغة ولكنه لا يولد فينا ذوقاً ادبياً اي لا يقوي فينا الشعور بالجمال . واللغة كما قلت شيء والادب شيء آخر ، وكثير من علماء اللغة انفسهم لا ذوق لهم في الادب .

ان هذه المصادر الادبية التى نتفرغ لدراستها تشتمل على امور غير امور اللغة وآلاتها . ان هذه المصادر انما هي آثار ناطقة يظهر على كل واحد منها روح صاحبه وفكره وعاطفته فتدلكم على اهواء صاحبها وهواجه . فاذا اردتم ان تعرفوا شيئاً من روح الشاعر ومن فكره ومن عاطفته فان التفسير لايضمن لكم الوصول الى هذه المعرفة ولكنه يعينكم عليها فاستنطقوا المصادر الادبية واسالوا كلام المؤلف وشعر الشاعر وخطبة الخطيب فان من وراء هذا كله اشخاصاً ينطقون ويشعرون فاذا خالطتم هذه المصادر ومازجتموها احطتم بظواهر اصحابها وبواطنهم واتصلتم باسرارهم والغازهم فعرفتم خصائصهم وطبائعهم واهتديتم الى اخلاقهم واوضاعهم فنشأت في انفسكم من هذا كله لذة منقطعة النظير ومن هذا يتبين لكم انه لا بد لكم من الاحاطة بعلم النفس حتى تستطيعوا ان تمضوا القول في روح الشاعر وفي عواطفه .

قلت : المصادر الادبية تدلكم على آثار العصر والبيئة فيها او تنبهكم على آثارها في هذا العصر وفي هذه البيئة وهذا معناه انه لابد لنا من معرفة العصر الذي نحاول درس شاعر من شعرائه فلا بد لنا من معرفة مصطلحات هذا العصر والافكار التي ولدها هذا الشاعر في عصره والعواطف التي أيقظها فاذا كنا ندرس المتنبي ووقع نظرنا على أسلوب غريب في شعره او على لفظ غريب فلا يصح ان نجزم ونقطع قبل ان يتحقق عندنا ان هذا الاسلوب غريب قياساً الى عصر المتنبي اذ انه قد يكون غريباً في عصرنا ومأنوساً في عصر ابي الطيب .

يستنبط مما تقدم اننا ينبغي لنا ان نستعين بالمصادر الادبية نفسها على فهم روح صاحبها وافكاره وعواطفه فاذا استطعنا ان نفهم شيئاً من ذلك نشأ فينا ذوق ادبي ومتى نشأ هذا الذوق وكان سليماً خالصاً شعرنا بمحاسن الآثار الادبية وبهذا الشعور تزداد لذتنا بمحاسن العالم نفسه على اننا لا نستطيع ان ندرك حقائق المصادر الادبية الا اذا كنا منفردين بامر البحث والتنقيب فلا ينبغي أن يكون لغيرنا تأثير فينا، لا ينبغي لنا أن نكرر كلام غيرنا على أثر من آثار الادب فاذا فعلنا شيئاً من ذلك كانت دراستنا الادبية جامدة لا روح فيها . —

قال الاستاذ « لانسون » : Lanson [1]

« اذا حاولت ان أتصور خصائص المؤلفات وطبائع أصحابها امتنعت عن تلخيص آراء من أولعت بهم من الاساتذة في هذه المؤلفات أشباه « تين » و« سانتبوف » و« غاستون باري » و « برونتير » فالأولى لي وأنا اخوض في موضوع ليس فيه حقيقة مبنية على أصول مستندة الى عقل ان ألخص ما أنشأته فيّ قراءة هذه المؤلفات من الانفعالات وما أخطرته ببالي من الاراء وما اهتديت اليه من صيغ فكر المؤلف وعاطفته، وعلى هذه الصورة وحدها تكون الدراسة صادقة فيها روح، اذ انه لايستطيع أحد ان يستميل غيره الى الامور التي يخوض فيها الا اذا استعان على ذلك بالذوق الذي ذاقه هو نفسه في هذه الامور » .

هذا ما قاله لانسون ومن قوله هذا يتبين لنا أننا اذا أردنا الكلام على المتنبي مثلا لزمنا ان ندرس شعر المتنبي نفسه دون ان نردد ما قاله فيه بعض الاساتذة كالثعالبي والجرجاني وغيرهما، اذا أردنا الكلام على حس المتنبي لزمنا ان ندل على مواطن الحس وعلى طبائعه من دون ان نستعير كلام غيرنا. والخلاصة اذا حاولنا دراسة المتنبي وجب علينا أن نقرأ شعره وندون الاثار التي تركها فينا هذا الشعر وننقل هذه الاثار الى غيرنا حتى يكون في كلامنا شيء من الروح والحياة وعلى هذا ينمو ذوقنا في الادب ومتى نما هذا الذوق نما معه الشعور بالجمال .

---

(١) تاريخ الادب الفرنسي — ص ١٠

اني لا أرى أضل سبيلا من الذين لا يريدون أن ينفردوا بآرائهم في الادب ، وعلى الخصوص بعد أن عرفنا أن الادب ليس فيه حقائق مبنية على أصول مستندة الى عقل ، اي ليس فيه شيء من حقائق العلم الثابتة وانما الادب يتبع الذوق والعاطفة فتتغير آراء الناس فيه بتغير أذواقهم وعواطفهم . انظروا مثلا الى « فيكتور هوغو » فقد قال فيه « فاكه Faguet » [1] « هوغو من الخالدين لان جمال الاسلوب هو الذي يخلد » وقال فيه اناتول فرانس : « ان مجد الشاعر الذي احتفل امس آخر احتفال بوفاته يأتي عليه اليوم دهر صعب حرج ، لقد ذهب اعجاب المعجبين به الذين كلوا واعيوا بعد ان جهدوا في ذلك الاعجاب خمس عشرة سنة ، وتبددت طائفة من الاوهام فقد كانوا يظنون ان شاعراً كبيراً فكر اكثر من ذلك فلا بد لنا من الاعتراف بان هزه للالفاظ كان اكثر من هزه للافكار » .

أنظروا الى تناقض هذين الرأيين في شاعر مثل « هوغو Hugo » وقد نظر اليه اناتول فرانس وفاكه من ناحية واحدة بوجه التقريب ، فاكه نظر اليه من ناحية الاسلوب ، واناتول نظر اليه من ناحية هز الالفاظ . ومنه يتبين لكم قلق الادب واضطرابه فاذا كان الامر كما وصفنا فما اجدر الذين يريدون ان يذوقوا لذة الادب بالانفراد بآرائهم دون ان يكون لغيرهم سلطان عليهم .

هذا ما حاولت تقريره في هذا المجلس وما اريد ان ابسط القول اكثر من ذلك ، ولئن كانت خلاصة حديثنا الاول : الادب روح الوطن وعبقريته فخلاصة هذا الحديث : تثقيف الذوق هو الذي يضيء لنا الظلمات حتى ندرك روح هذا الوطن وعبقريته ؟

١٦ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩

---

(١) القرن التاسع عشر : فيكتور هوغو.
(٢) الحياة الادبية

تمازج الثقافات

ما ارى حاجة الى ان اعيد في هذا المقام ما قلته في دراسة المصادر الادبية فقد عرفتم ولا ريب في ذلك كيف يجب علينا ان نقرأ كلام الكاتب او شعر الشاعر او خطبة الخطيب ، عرفتم كيف يجب علينا ان نحيط بروح المؤلف وبافكاره وبعواطفه ، وننظر في اتصال هذه الامور النفسية بعضها ببعض وفي تفاصيلها ومظاهرها ، عرفتم كيف ينبغي لنا ان نبحث عن بيان المؤلف وفنون افصاحه ، وعن خصائص لغته وأسلوبه ، وفي الجملة فقد عرفتم كيف ينبغي لنا ان ندرس المصادر الادبية ، واذا قلت : دراسة المصادر الادبية ، اردت بذلك التعمق في التنقيب عن فكر المؤلف وعواطفه . والتمكن من معرفة مراميه والوصول الى تلك الذكريات التي كانت تخطر بباله في ساعات تأليفه وكتابته ، فاذا كنا نفسر كلاماً فكأننا نحاول ان نقوم مقام صاحب الكلام ، نبعث قبالة أعيننا حالة عقله من مرقدها ، وننعش فكره وانفعالاته بعد ان ذهب اثره وانطوى ظله ، ولم تبق منه الا صفحات لا نرى فيها في فاتحة الامر غير صور بعيدة عنا ، وتعابير جامدة لا روح فيها ، فاذا عالجناها انتفضت من مدافنها فاصبحت صوراً ناطقة تشعر وتفكر .

كان يجب عليّ بعد ان فرغت من هذا التمهيد ان اشرع واياكم في قراءة شعرائنا الثلاثة : ابي الطيب وابي عبادة وابي تمام ، وانا لا اشك في ان لهذه الاسماء العربية صدى في آذانكم لا نجده لغيرها من الاسماء غير اني اذا كنت قد استعنت بطائفة من آراء الافرنجة على الخوض في موضوع للعرب فيه المقام الأرفع والمحل الاشمخ ، فما اردت بذلك ان اكفر نعمة ادب ذهبت في الشغف به كل مذهب ، ما اردت ان اكفر نعمة لغة امتزجت بالنفس محبتها ، والعود غض والغصن رطيب الا انه اذا كان يتيسر لي الاستشهاد ببعض آراء شيوخ ادبنا في قديم الدهر كالجاحظ

وأشباهه، ومن هم اشباه الجاحظ ! فما كان يتيسر لي الاهتداء الى كل الآراء، والادب قد لبس في هذا العصر برداً قشيباً فحدثت فيه حوادث وعتقت فيه عواتق ونهجت مناهج وسلكت مسالك، فلا مندوحة لنا عن الاقتباس من بعض الافرنجة ولا غضاضة في ذلك فقد أخذوا عنا فاخذنا عنهم وتلك الايام نداولها بين الناس وما زالت الامم في قديم الدهر وفي حديثه يقتبس بعضها من بعض وقديماً تمازجت الثقافات فادّى تمازجها الى العواقب المحمودة في عبقرية الفكر .

لنلتفت قليلا الى القرون الخالية، لننظر الى الرومان كيف اقتبسوا ادبهم من اليونانيين فقرأوا كتبهم وتقيلوا طرائقهم، ولننظر الى الادب الفرنسي في القرون الوسطى كيف ابلج نوره من أفق اللاتينية، وهذا « سبنسر » أخذ عن الايطالية في ايام تجديد أدبها، وهذا الشاعر الانكليزي « تومسون » قد أثر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى مؤلفي فرنسة من العصرين المذكورين وقد كان « فولتير » يعبد الكاتب « اديسون » وكان « روسو » و « ديدرو » يعبدان « ريشاردون » واي تأثير اعظم من تأثير شاعري الانكليز « شكسبير » و « بايرون » فى الادب الفرنسي، وقد كان شعراء الادب الوجداني فى فرنسة متصلين الاتصال كله « بولترسكوت » ومن « ميشله » الى « رنان » قد استنزل كتاب فرنسة الذين نظروا فى مصاير النوع البشري وحيهم من المؤرخ الالماني « هردر » وشاعر الالمان « غوتي » استنزل وحيه من ادب المتقدمين، وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اقتبس الاسبانيون ادبهم من شعراء فرنسة مثل « موليير » ولم يقصر الروس فى الاخذ عن الادب الغربي فى القرن التاسع عشر ولم يحجم البولونيون عن اقتباس ادب فرنسة وايطالية والمانية وانكلترة (١)»

مالنا وهذه الاعجميات، فلننتقل الى ناحية أقرب . هذا أدب العرب نفسه، أفلم يدخله شيء من حكمة الهند وفلسفه اليونانيين، وادب الفرس، وهذه مصر في عصرنا أفلم يكن للثقافتين الفرنسية والانكليزية اثر في كتابات ادبائها، افكان يستطيع

(١) خلاصة كتاب الطريق الى الادب الاستاذ : اميل فاكه Emile Faguet

اساتيذ ادبنا ان يسلكوا هذا المسلك في ادبهم لولا معرفتهم بعض اللغات الاجنبيات ؟

معاذ الله ان ارمي في قولي هذا الى الخروج على عبقرية أدبنا فان الامة التي لا تتصل بماضيها لا تثق بحاضرها و آتيها ، وان لنا من هذا الماضي الشيء الذي نفخر به على وجه الدهر ، ان لنا من الماضي محاسن لا تبلى سجيس الليالي ، ولكن تجديد الادب في هذا العصر أمر لا مندوحة عنه ، فان الافراط في المحافظة على هذا الادب لا يقل ضرره عن الافراط في التجديد ، ولو شئتم لتلوت عليكم صفحة كتبها ابو الحسين احمد بن فارس بن زكريا المقيم من الف سنة بوجه التقريب ، ما اظن احداً من ادباء هذا العصر يعقد فصلا ابلغ من هذا الفصل في التجديد ، قال ابو الحسين : (١)

« ومن ذا حظر على المتأخر مضادّة المتقدم ، ولمه تأخذ بقول من قال : ماترك الاول للآخر شيئاً ، ولا تدع قول الاخر : كم ترك الاول للآخر ، وهل الدنيا الا ازمان ، ولكل زمان منها رجال ، وهل العلوم بعد الاصول المحفوظة الا خطرات الاوهام و نتائج العقول ، ومن قصر الآداب على زمان معلوم ، ووقفها على وقت محدود ، ولمه لا ينظر الاخر مثل ما نظر الاول حتى يؤلف مثل تأليفه و يجمع مثل جمعه ويرى في كل ذلك رأيه ، وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوادر الاحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ، او ما علمت ان لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة ، ولمه جاز ان يقال بعد ابي تمام مثل شعره ولم يجز ان يؤلف مثل تأليفه ، ولمه حجرت واسعاً وحظرت مباحاً وحرمت حلالا و سددت طريقاً مسلوكاً ، وهل حبيب الا واحد من المسلمين له مالهم ، وعليه ما عليهم ؛ ولما جاز ان يعارض الفقهاء في مؤلفاتهم ، و اهل النحو في مصنفاتهم و النظار في موضوعاتهم و ارباب الصناعات في صناعاتهم ، ولم يجز معارضة ابي تمام في كتاب شذ عنه في الابواب التي شرعها فيه امر لا يدرك ولا يدري قدره ، ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ولذهب ادب غزير ولضلت افهام ثاقبة ولكلت

---

(١) يتيمة الدهر — الجزء الثالث — الصفحة ٢١٥

ألسنة لسنة ولما وشى أحد خطابه ، ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة ولجت الاسماع كل مردد مكرر ولفظت القلوب كل مرجع ممضغ ».

ما أثقب نظر ابي الحسين رحمه الله ! ما اهدى فكره ! ما أصفى ذهنه ! لو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ولذهب ادب غزير ان عقل البشر ينبسط أفقه من عصر الى عصر ، و يتسع مجاله من دهر الى دهر فيولّد في انبساط هذا الافق واتساع هذا المجال الفاظاً ومعاني لم تك من قبل ، و ينشىء الأدب لهذه المعاني أساليب طريفة و يفرغها في قوالب حديثة ، وعلى هذا يتنقل الادب من طور الى طور و يدرج من حال الى حال على تعاقب الاحقاب ، ولو ثبت هذا الادب على اساليب محدودة لاتى عليه حين من الدهر لم يك فيه شيئاً ، لو تماص هذا الادب من عوامل الحضارات والثقافات لما وسع شيئاً ، اننا نجد مذاهب تولد ومذاهب تموت و ألفاظاً تدفن والفاظاً تبعث واساليب تعيش و اساليب تنقرض ، ما اعظم انقلاب الأفكار ! قال الاستاذ « شارل ريشه Charles Richet » احد أعضاء معهد باريز [1] :

« يسير العلم في سبيله سيراً تحار ثواقب الانظار في سرعته ، على ان العلم لا يزال في عنفوان امره ، و ريعان عمره ، فالعالم « ارخميدس » على نبوغ فضله و براعته كان يجهل ما يعلمه المعلمون اليوم في المدارس الابتدائية ، واجهل تلميذ من تلاميذ المدارس التجهيزية يعرف من العلوم اموراً يجهلها العالم « غليله » نفسه ، ما بين العالم « فرنكلان » و بين العالم « انشتين » مائة و خمسون سنة ، فتصور مسير العلم في مئة وخمسين سنة ، ما اعظم انقلاب الافكار ! لم يكن في القديم علم الاحافير ولا علم الجراثيم ولا علم التصوير ولا الطيران ولا خطوط الحديد ولا حل الطيف الشمسي فلا يتجاوز عمر علوم البشر قرناً و نصف قرن ، ما هو قرن و نصف قرن ؟ المشي غير وئيد اننا نسير في معرفة الاشياء على سلسلة هندسية متصاعدة وفي يوم من الايام سيكون للرجل بفضل ما يقتبسه من العلوم سلطان عظيم على

(١) كتاب العالم — الصفحة ١٢٠

المادة مهما اختلفت اشكالها » .

هذا ما قاله « شارل ريشه » في كتابه العالِم . ولو قلتم لي وما هي الاواصر بين العلم و الادب لأجبتكم بان العلم اذا امتد سلطانه فانه لا يخلو من التأثير في الفكر وبالادب كما اشرت الى ذلك في حديثي الاول تستفيض مذاهب الفلسفة والعلم في طبقات الناس فتعمل عملها في أوضاع الجماعات ، فالادب ظهير العلم ومعينه ، ولو نظرتم في تخالط الامم في هذا العصر ، وتقارب جماعاتها ، وشيوع لغاتها ، وآثار عقولها ، لرأيتم ان الثقافات لا ندحة لها عن التمازج والتواصل ، فالأمم يأخذ بعضها عن بعض ويهتدي بعضها ببعض ، لا شك في ان لكل أمة ثقافة أدبية خاصة بها تصلح لها وقد لا تصلح لغيرها من الامم ، غير ان تمازج الثقافات اذا روعي فيه روح الامة وروح لغتها أفضى الى الخواتيم الحسنة في نتائج العقول وثمرات الألباب ؛ لنضرب مثلا لذلك :

قلت لكل امة ثقافة ادبية خاصة بها ، فاذا قابلنا بين الشعوب السامية وبين الشعوب الآرية وجدنا ان الفكر في هذه الشعوب مختلف بعض الاختلاف ، فالفكر مثلا في العبري لا يستطيع ان يتجرد من الصورة المادية التي تستره وتغطيه ، ولذلك فانك تجد لغة التوراة لغة شعرية ساطعة الا انها تعجز عن بيان الفكرة المجردة ، فالذهن في الامم السامية عنيد فانه يحتفظ بالصورة ويحرص على طابع الانفعال المادي ، اما الذهن في الشعوب الآرية فانه أمرن وألين فهو ينسلخ من المادة ويرتفع الى تصور الفكرة المجردة وإدراكها ، ولعلك تجد في هذا التباين السبب في شيوع الفلسفة في الجنس الآري وانقطاعها في الشعوب السامية ، لان التجريد من خصائص الفلسفة ، والشعوب السامية اصحاب خيال فهم بعيدون عن التجريد «١»

فلما تقارب العرب وبعض الشعوب الآرية كالفرس واليونانيين انتقلت آثار هؤلاء الى العرب والفلسفة من جملة هذه الاثار فهي نتيجة من نتائج تمازج

---

(١) رأي الاستاذ « دارمستتر Damesteter » صاحب كتاب : حياة الالفاظ . الصفحة ١٠٠

الثقافات وما أظن ان الفاسفة خلت من رسوم حسنة في الفكر العربي.

ما أردت التبسط في هذا الموضوع ولا كانت غايتي استنهاض هممكم للتقليد فاني من المتشددين في الحرص على أوضاع أدبنا والاحتفاظ بمذاهبه، الا ان هذا التشدد لا يمنعنا عن اقتباس ما يزيد في رونق لغتنا وأدبنا فاني اخشى اذا جمد هذا الادب ان يضيق عن استيعاب ما استحدثته حضارة العصر فاذا اخذنا في بعض الاحايين عن ثقافات الامم ما يحسن أخذه فلا حرج علينا في ذلك، وقديماً استعان أدباؤنا بآثار من جاورهم وخالطهم فما نقصت مقاديرهم ولا خفّت موازينهم فطلعوا على قومهم بادب مصقول الحواشي مهذب الاطراف، على اني لا أقول بالمبالغة في الاخذ والاقتباس فان لميراثنا الادبي روحاً يجب علينا ان نحافظ عليه، وان للعصر روحاً ما لنا منه مفلت، فالتأليف بين الروحين صقال الادب ونموه.

٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩

تاريخ الأدب

أما وقد أوجزت في الكلام على الادب وتدريسه، وعلى الذوق وتثقيفه، ولمحت الى تمازج الثقافات، فبيّنت دون شيء من الاسهاب كيف يأخذ بعض الامم عن بعض، ويقتبس بعضها من بعض، فيزيد هذا الاقتباس في عبقرية البشر. اما وقد فرغت من هذا كله، فقد لزمني على ما أعتقد ان أخوض في الموضوع الذي انتدبت اليه وهو تاريخ الأدب، وما تاريخ ادب العرب الا تسلسل قرائحهم وبنات أفكارهم من يوم ظهر هذا الشعب الكريم على وجه الارض حتى يومنا هذا، ما تاريخ الادب في الحقيقة الا سلسلة آثار، اذا نظرنا اليها وجدنا فيها سلاسل شتى: سلسلة آثار مؤلف من المؤلفين، سلسلة آثار عصر من العصور، سلسلة آثار تطور الادب في خلال القرون الخالية، ما تاريخ الادب الا النظر في تأثير بعض المؤلفات في بعض واتصال بعضها ببعض، وتسلسلها في تعاقب الاحقاب، هذا هو تاريخ الادب ومن هذين السطرين يتبين لكم حرَج الموضوع وضيق مذاهبه، وتبدو لكم سعة مجاله وترامي أطرافه في وقت واحد، اما حرج الموضوع فانه ناشيء عن فقدان ما يجب علينا ان نتوسل به من الوسائل الى معرفة قرائح العرب ونتائج عقولهم على حسب روح هذا العصر، وأما سعة المجال فحسبكم ان تجدوا في تاريخ أدب العرب صوراً ناطقة تفصح لكم عن اطراد آثار عبقريتهم في مطاوي الاحقاب.

ما طالعت مقدمة من مقدمات تاريخ الادب الفرنسي الا وقع نظري على عبارة تدخل الخوف على قلب من يتفرغ لتدريس تاريخ الادب حتى يتهيب الموضوع فيكاد يمسك عن الكلام لدهشه وتحيره، فقد وجدت في احدى المقدمات هذه العبارة: تاريخ الادب الفرنسي انما هو نتيجة حياة باجمعها أو تكفي حياة باجمعها حتى يتم مثل

هذا التاريخ ، واذا انتظر المؤرخ نتائج بحثه وتنقيبه ليشرع في موضوعه ، أفيكتب هذا التاريخ ، على انه يجب على المؤرخ ان يعمل على قدر مجهوده دون شيء من الاوهام .

وقال الاستاذ برونتير Brunetière في نقده مذهب سانتبوف Sainte-Beuve : وعلى هذا فان دراسة كاتب كبير ان لم تستغرق حياة برمتها استغرقت سنين طويلة .

هذا قول كتاب اذا أحبوا ان يكتبوا في تاريخ الادب وجدوا السبيل ممهدة فما نقول لكتاب تعترضهم العقبات وتحيط بهم المصاعب فتقف اقلامهم لتحيرها ، الموضوع حديث لم يكتب العرب فيه على حسب روح هذا العصر وانما كتبوا باساليب لا تناسب أوضاع هذا العصر ، مات فلان سنة كذا . . . ومن قوله في وصف كذا . . . وله تشبيهات فريدة . . . كل هذا ليس من تاريخ الادب في شيء ، واذا كنا نجد بين نقاد المتقدمين من ارتفع الى منزلة أعلى ، وحلق في جو أفسح كالجرجاني في وساطته ، وكالثعالبي في كلامه على المتنبي ، او كغيرهما فهذا قليل على ان نقد الادب شيء وتاريخه شيء آخر .

قلت في صدر الحديث : تاريخ ادبنا ضيق المذاهب ، فلنبحث عن شيء من هذا الضيق ، اذا أخذتم تاريخ ادب غربي وجدتم في فاتحته وصفاً اول هذا الادب كيف ولد وكيف عاش ، فلا يستغني المؤرخ عن التنقيب عن لغة قومه ، كيف نشأت هذه اللغة وما هو اصلها ومنحدرها وما هي عناصرها ، لا يستغني المؤرخ عن هذا كله حتى يستطيع ان ينظر في تسلسل الآثار العقلية نظراً ثاقباً ويحيط بمختلف العوامل التي عملت في هذه الاثار ، فيكون مثله في ذلك كمثل المؤرخ الطبيعي فكما ان هذا المؤرخ يصف اتصال المخلوقات الحية في الطبيعة بعضها ببعض على صورة مرتبة فكذلك يجب على المؤرخ الادبي ان يبين كيف تسلسلت آثار عبقرية قومه والتحق بعضها ببعض من مبادئها الى خواتيمها ، أفيتيسر لنا في حالتنا هذه ان نعرف شيئاً عن مبدإ لغتنا ، كيف ولدت الفاظها وكيف عاشت كما يعرف الفرنسيون مثلا كيف تحدرت لغتهم من الاصل اللاتيني ؟

كنت أذاكر مرة في أمر لغتنا الكريمة أستاذاً مطلعاً على اللغات السامية

فقلت له في جملة ما قلت : وددت لو اننا نعرف كيف ولدت لغتنا في اول امرها كما يعرف بعض الافرنجة كيف ولدت لغاتهم فقال : هذا امر ممتنع الان ، ان بعض الافرنجة شهدوا ميلاد لغاتهم فدوَّنوا آثارها وتعهدوها فكان مثلهم في ذلك كمثل من يغرس شجرة ثم يتعهدها حتى تورق وتزهر وتثمر ، اما نحن معاشر الساميين فاننا لم نشهد ميلاد لغاتنا فلا نستطيع ان نعرف اليوم كيف اورقت هذه الشجرة السامية وكيف أزهرت وكيف أثمرت وبيننا وبين الذين غرسوها وتعهدوها أحقاب متطاولة وعصور متراخية ، خفيت علينا حتى اليوم آثارها ورسومها فلا نعرف عن هذه الاحقاب شيئاً .

هذا صحيح والغريب انكم تجدون من كان يعتقد ان لغة العرب قد تكاملت دفعة واحدة دون شيء من التدريج ومنهم (رنان) Renan فقد قال :

« من اغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب اظهار سره ، انتشار اللغة العربية فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ بدء فبدت فجأة غاية في الكمال ، سلسلة غنية واي غنى ، كاملة بحيث انها من ذلك العهد الى يومنا هذا لم يدخل عليها اقل تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لاول امرها تامة ، ولا ادري هل وقع مثل ذلك للغة من لغات الارض دون ان تدخل في اطوار مختلفة "١" » .

وانا لا ادري كيف صدر هذا الكلام عن رجل مثل (رنان) ، اي شيء يتكامل في الطبيعة فجاة ، مثل اللغات كمثل المخلوقات الحية في عالمي الحيوان والنبات فكما ان الحيوانات والنباتات تولد فتعيش فتموت فكذلك اللغات فانها أشبه شيء بهذه المخلوقات ؛ أما قول (رنان) ليس للغة العرب طفولة ولا شيخوخة فهو مخالف لاصول العلم ، للغة العرب عهد طفولة ولكننا لا نعرف شيئاً عن هذا العهد ، لبعده عنا وخفاء رسومه علينا ، فلا يمكن ان تكون لغة جاهليتنا متكاملة على صورتها هذه من دون ان يتسلسل فيها هذا التكامل عصوراً متطاولة صقلت اللغة وحسنتها حتى طلعت علينا في حلتها الانيقة ، وقد اشار بعض شعراء الجاهلية الى ذلك في

---

(١) خطط الشام ـ الجزء الاول ـ الصفحة ٧٨

شعرهم ، أفاجد حاجة الى ذكر قول عنترة :

(هل غادر الشعراء من متردم)

اوقول امريء القيس :

عوجا على الطلل القديم لعلنا　　نبكي الديار كما بكى ابن حزام

او قول زهير :

ما ارانا نقول الا معاراً　　او معاداً من قولنا مكرورا

فالذي يستنبط من كلام عنترة وامريء القيس وزهير ؛ انه جاء قبلهم شعراء جالوا في الشعر كل مجال وحلقوا في سمائه كل محلق ، وقد انقطعت عنا اخبار الذين اورثوا عنترة وامرأ القيس وزهيراً وامثالهم فيض قلوبهم وصوب اذهانهم وانطوت آثارهم فلا نعرف عنهم شيئاً ، فلغة العرب متقادمة العهد فلا يمكن ان تنشأ دفعة واحدة على الصورة التي نشأت عليها في العصر الجاهلي المعروف ، فلا ريب في انها قد سبقتها احقاب مديدة ، انتقلت فيها اللغة من طور الى طور ؛ حتى وصلت الى ما وصلت اليه ، فالعصور التي انتقلت اللغة في اثنائها من مرتبة الى مرتبة غامضة مبهمة فهي سر من الاسرار وهذه ثلمة في تاريخ ادبنا ، ولا تسد هذه الثلمة الا اذا درسنا اللغات السامية ولغات الامم التي خالطها العرب في قديم الدهر وعثرنا على كتابات قديمة منقوشة ، ان لغة العرب لم تذته الينا بحذافيرها ، فان الذي جاءنا عن العرب غيض من فيض فكثير من الكلام ذهب بذهاب اهله . قال ابن فارس : ذهب علماؤنا او أكثرهم الى ان الذي انتهى الينا من كلام العرب هو الاقل ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير .

تصوَّروا بعد هذا كله حرج موضوعنا وضيق مذاهبه ؛ اني لا اجد لذة في تاريخ الادب الا اذا عرفت اوائل الآثار واواخرها ، ومبادىء المصنفات وخواتيمها واستطعت ان اصل الاواخر بالاوائل واربط الخواتيم بالمبادىء حتى اعلم كيف تسلسلت ثمرات القرائح ونتائج الخواطر ، وكيف أثر بعضها في بعض وتحدر بعضها من بعض فاذا لم يتهيأ لي شيء من ذلك كان العلم ناقصاً .

على أن هذه العقبة التي تعترضنا في سبيلنا ليست فريدة فان من ورائها عقبات غيرها ، أظن انكم تذكرون قولي في ثقافة الذوق : لا بد لنا من معرفة العصر الذي ندرس شاعراً من شعرائه ، فلا بد لنا من معرفة مصطلحات هذا العصر والافكار التي ولدها هذا الشاعر في عصره والعواطف التي أيقظها ؛ فاذا كنا ندرس شعر المتنبيء ، ووقع نظرنا في شعره على لفظة (ابتشاك) ومعناها : الكذب ، وهي لفظة غريبة ، فكيف نجزم امر غرابتها اذا لم يكن في لغتنا معجم يشير الى تاريخ الالفاظ ، كيف نعرف ان لفظ الابتشاك كان غريباً في عصر المتنبيء اذا لم يكن في لغتنا معجم يبين لنا ان هذا اللفظ استعمل في عصر كذا ثم بطل استعماله بعد ذاك العصر ، فاذا كان في لغتنا معجم لغوي تفسر فيه الالفاظ بحسب تاريخها استطعنا ان نجزم أمر غرابة الالفاظ ، فلانسير في تنقيدنا واستقصائنا على غير هدى وانما نستند الى مصادر موثوق بصحتها ، فنقطع دون شيء من الحيرة والارتباك فلا يزال تاريخ ادبنا مثلوم الجوانب فاذا كنا نبحث عن شاعر من الشعراء فقد لزمنا في مثل هذه الحالة ان نقرأ شعر اهل عصره كلهم ؛ حتى نعرف مصطلحات ذاك العصر ، وهل يتيسر شيء من ذلك ؟ فاما ان يفوتنا البحث عن هذا الامر ، واما ان نستعين عليه بالكتاب الذين ظهروا في ذاك العصر وأشاروا الى غرابة ألفاظ شاعر من شعراء عصرهم ، فاذا لم يكن شيء من ذلك بقيت في تاريخ أدبنا زاوية فارغة .

ولو جاوزنا هذه العقبة لاعترضتنا عقبة غيرها فان في تاريخ ادبنا شيئاً من الغموض نشأ عن ان طائفة من الاسماء اطلقت على مسميات لا نرى لها اثراً في هذا العصر . لنضرب مثلا لذلك فقد قرأت في بعض كتب الادب هذا الكلام : دخل الاحنف بن قيس على معاوية وافداً لاهل البصرة ودخل معه النمر بن قطبة وعلى النمر عباءة قطوانية وعلى الاحنف مدرعة صوف وشملة ، فالعباءة القطوانية منسوبة الى قطوان — موضع بالكوفة — منه الاكسية . غير اننا لا نعرف شيئاً عن نوع

هذه العباءة وكذلك المدرعة فانها ثوب ولا يكون الا من صوف ومن الذي يعرف هيئة هذا الثوب "(١)".

فانتم تجدون في سطر واحد كلمتين أو ثلاث كلمات تدل على مسميات نكاد لا نعرفها ففي لغتنا كثير من الاسماء أطلقت في القرون الخالية على مسميات ثم انطوت تلك القرون فذهبت بذهابها المسميات وبقيت الاسماء في بطون المعاجم تدل على اشياء لا نعلمها ، وقد كانت هذه الاسماء وضعت للدلالة على أنواع من السلاح واللباس والطعام والشراب والدراهم وما شابه ذلك ثم ذهب الذين كانوا يتقلدون هذا السلاح ويلبسون هذا اللباس ويأكلون هذا الطعام ويشربون هذا الشراب ويضربون هذه الدنانير والدراهم ، فذهبت بذهابهم مسمياتهم وبقيت الاسماء وحدها فلا تزال طائفة من ادبنا غامضة بعض الغموض .

ما اردت الاستقصاء في البحث عن ثلم تاريخ الادب وانما احببت ان المح الى طائفة من هذه الثلم ، حتى ندرك مبلغ ما يقف في سبيل المؤرخ الادبي من المصاعب التي يستعصي عليه تذليلها ، واني لأجد الى جنب هذه العقبات عقبات غيرها لا بأس بالاشارة اليها .

اقتصر الذين كتبوا في مؤلفي العرب على ذكر اليسير من آثار حياتهم العامة وحياتهم الخاصة فذكروا ميلادهم ووفاتهم ولمعاً من اخبارهم وقد ورد قليل من النقد في تضاعيف كلامهم وما عدا ذلك فاننا لا نكاد نحيط بشيء من آثار حياة مؤلفي العرب ، فلا نعرف مثلا كيف ولد هذا المؤلف وكيف عاش وكيف رباه اهله حتى نشأ وترعرع ، لا نعرف كيف كانت حياته في مدرسته وما هي اخلاقه وأوضاعه وعاداته واهواؤه ومذاهبه ، وما هي وجهته في حياته ، ما هي انباؤه الخاصة والعامة ، ما هي هيئته وصورته ، ما هي ملابسه ، ما هي الكتب التي كان يقرؤها . كل هذا ينفعنا في تاريخ الادب حتى تنكشف لنا اسرار المؤلفين فنستعين

(١) اخترت هذه الاسماء عرضاً وقد يجوز ان تكون مسمياتها معروفة في بعض قبائل بادية الشام على ان في لغتنا اسماء كثيرة غيرها لا نعرف مسمياتها . فكتب الادب ومعجمات اللغة مملوءة بهذه الاسماء في كل عصر من عصور اللغة .

بذلك على العلم بافكارهم وعواطفهم ، ونحل عقد هذه الافكار والعواطف في اثناء بحثنا عن آثار عقولهم وألبابهم ، وهذا النوع من المعرفة عنصر من عناصر التمحيص والتدقيق . فاذا فاتنا هذا العنصر اضطررنا الى النظر في آثار المؤلف نفسها لانها تدل على فكره وعلى عاطفته وعلى روحه ، الا اننا قد نضطرب في خلال البحث والنظر اضطراباً نقف فيه حائرين فلو كنا نعرف دقائق حياة المؤلفين لما اضطربنا هذا المضطرب ، وقد استدرك هذا الامر طائفة من المؤلفين في هذا العصر فكتبوا تراجمهم باقلامهم و وصفوا دقيق حياتهم وجليلها وكشفوا الغطاء عن كثير من أمورهم ، والمرء اذا صدق اعلم بظواهره و بواطنه ، وادرى بفضائله ورذائله وافطن لمواطن القوة والضعف فيه ، فضلا عن اللذة التي نجدها في قراءة هذا النوع من التراجم ، فانها نزهة العقول وسلوة القلوب ، فكأننا بمحضر رجال قد باحوا باسرارهم فنكاد نشهد حركاتهم وسكناتهم ونكاد نسمع صوتهم وكلامهم و نرى ابتساماتهم وتقطيبهم ونشاركهم في آلامهم وأفراحهم وما شابه ذلك .

قال « سانتبوف Sainte-Beuve » في كلامه على هذه التراجم :

« أحببت في كل حين مراسلات اكابر الكتاب واحاديثهم وافكارهم ، أحببت تفاصيل طبائعهم واخلاقهم وتفاصيل تراجمهم التي كتبوها ، فان الباحث يعكف خمسة عشر يوماً على آثار ميت مشهور سواء أكان هذا الميت شاعراً ام فيلسوفاً ؛ فيدرسه ، ويقلب النظر فيه ، يسأله ما شاء من المسائل ، و يجعله قبالة عينيه » .

هذه طائفة من نواقص تاريخ ادبنا ولو شئت لاتيت على ذكر غيرها من النواقص ، وانما مرادي بيان ما ياغت المؤرخ من بعض المصاعب على ان التلوم في التفرغ لوضع تاريخ الادب لا طائل فيه ، فاذا ظللنا ننتظر فاننا لا نصنع شيئاً اذا كنا ما ننفك نردد ان تاريخ الادب يستغرق وضعه سنين طويلة فقد تمر هذه السنون من دون ان نشرع في الوضع ، فاذا اخرج شيوخ الادب مكنونهم واستنفدوا وسعهم فتصدى كل منهم لمادة من المواد ، وعمل على قدر مجهوده ، هيأنا تاريخ الادب ومتى تهيأ تاريخ ادب العرب استطعنا ان نحيط بتسلسل آثارهم وافكارهم وقرائحهم من اول أمرهم الى آخره ؟

٣٠ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩

نقد المؤرخات الأدبية

ذكرت لكم اليسير من العقبات التي يصعب قطعها على الذين يتصدون لوضع تاريخ الادب ، وقد خالج قلبي الرجوع الى هذا الموضوع وانتم لا تجدون ريباً في علو شأنه ، ورفعة مقامه ، وكفى بتاريخ أدبنا ان يكون عنواناً لحسنات قوم ذهبوا بين سمع الارض و بصرها ، فلم تبق من جلالة ملكهم وفخامة سلطانهم الا آثار هامدة ، اذا نحن اعملنا الروية فيها برزت لنا بلاغة منطق اهلها ، ورجاحة احلامهم وصحة عقولهم ، لم تبق من قوم ملؤا الدنيا وشغلوا الدهر الا صور جامدة اذا نحن ناجيناها اعربت لنا عما نسجته طباع الذين صوروها وسبكته افهامهم ، فرأيتم كيف درج صوغ اذهانهم في مواضي الليالي من طور الى طور ، وشهدتم اطراد عصورهم وما كان يتخلل هذه العصور من خلابة في الالسن ، او من تشديق وتقعير فينقلب بكم تاريخ أدبنا من عصور السهولة والايجاز الى عصور التكلف والتزيد ، ومن الاقتصاد في النظر الى التبسط في التفكير وعلى هذا يكون التاريخ صلة محكمة الاطراف محبوكة الوشي ، بين حاضر الخواطر وماضيها ، واذا استطعنا ان نؤلف بين الحاضر والماضي حافظت لغتنا على وحدتها وازدادت عظمة سلطانها .

نعم ، خالج قلبي الرجوع الى البحث عن تاريخ الادب لان هذا التاريخ هو الذي ينزع بالنفس الى التمتع بآثار الاولين ويحمل رجال الادب على املاء قلوبهم من هذه الآثار ، فيطلعهم على دروج اصحابها من حال الى حال وينبههم على توسعهم في أساليب شتى ومذاهب مختلفة ، كل عصر وله أسلوبه ، وكل دهر وله مذهبه ، وجملة المقال ان تاريخ الادب هو الذي يضيء لنا سبيل العقل البشري حتى ندرك آثار العبقرية في الاحقاب ؛ فنصل أواخرها باوائلها ، ومتى استحكمت هذه الصلة اتسعت افياء العبقرية .

هذا هو تاريخ الادب وهذه هي فعلته في الامم ، بقي ان نعرف كيف ينبغي لهذا التاريخ ان يكون حتى يعمل عمله هذا . جعل تاريخ الادب لاحياء آثار الماضي ورسومه ، حتى تمثل الاذهان هذه الرسوم والاثار فنصبح بمحضر من أشخاص ناطقين يصورون لنا صوراً شتى ، في كل صورة منها فكر وشعور ، ينبغي لتاريخ الادب ان يكون فيه شيء من الحياة حتى يمثل لنا حقائق الاثار على وجوه متباينة ، فمرة نرى وضوح هذه الاثار وصفاءها ، ومرة لا نرى الا ابهامها وتعقيدها ، وحيناً نسمع خفي صوتها ؛ وحيناً لا نجد فيها الا الجمود ، ان تاريخ الادب هو الذي يبعث أنواع هذه الاثار حتى تأخذ العين خصائصها وصفاتها ومحاسنها ومفاسدها وجمودها وحياتها وعلوّ قدرها وانحطاطه ومختلف الوانها ومتباين أساليبها ومذاهبها . ان تاريخ الادب هو الذي يبعث روحاً في هذه الاثار كلها مستعيناً على التمكن من احيائها بالفن وما أوتيه من سلطان ، فالفن وحده هو الذي يحيي ما مات من الرسوم . وخلاصة الامر اننا نطلب الى المؤرخ الادبي ان لا يذهل عن شيء في تصوير صفحات التاريخ ، فلا ينبغي له ان يغفل عن تفاصيل الآثار وظروفها وعن الوانها ومعارضها وخصائصها .

فلنبحث بعد هذا كله هل عندنا تاريخ ادبي يستطيع ان يصور لنا حقيقة الماضي ، حتى نطلع على اطوار هذا الماضي وضروب اساليبه ومذاهبه ، اما المؤلفون في القديم فقد ذكرت لكم انهم لم يصنعوا شيئا في تاريخ الادب واما المؤلفون في هذا العصر فما اظن انهم سبقوا المتقدمين في هذا الميدان ، وسننظر في ذلك في مجلسنا هذا . اظن انكم ما نسيتم قولي : التاريخ الادبي انما هو سلسلة آثار ولم اقل مجموع آثار ، والفرق بين الجمع وبين التسلسل ظاهر ، فالآثار المجموعة ليست من تاريخ الادب في شيء وانما الاثار المطردة المتسلسلة هي التي تصور لنا الماضي ، الاثار المجموعة لا تدلكم الا على نتائج خواطر لا يتصل بعضها ببعض ، فلا تحيطون بشيء من تأثير عصر في عصر ، وتأثير مؤلف في مؤلف وانما الآثار المتسلسلة تصف لكم ارتباط عصر بعصر ، واتصال مؤلف بمؤلف فتشهدون سير العقل البشري وتنقله من حال

الى حال، ان ما وضع حتى اليوم من المؤرخات الادبية مجاميع لاسلاسل، فان اصحاب هذه المجاميع اذا درسوا مؤلفا من المؤلفين فانهم لم يدرسوا من تقدمه ولا نظروا في الذي جاء بعده، انهم لم ينظروا في اواصر المصنفات وارتباطها بجملة التاريخ الادبي، ان الذين كتبوا في تاريخ الادب كانت كتبهم مجاميع ولم تكن سلاسل مطردة، فان كل عصر متصل بالذي سبقه ومهد السبيل للذي تلاه.

تصفحت طائفة من كتب تاريخ الادب في هذا العصر، واحببت ان اجد فيها ما اصطلحوا عليه ان تكون اشباه هذه الكتب، فلم اظفر بشيء وانما الذي تبين لي ان هذه المؤرخات الادبية مجاميع آثار فيها قليل من الدراسة الادبية والنقد الادبي ولكن هذه الدراسة مشوهة الاسلوب وهذا النقد مثلوم المذهب فلم تبين هذه المؤرخات الاثار التي ابقاها شاعر من الشعراء في اهل عصره، ولم توضح العوامل التي عملت في هذا الشاعر حتى قال شعره، ولا ذكرت كيف نشأ خيال هذا الشاعر، وكيف نما حسه وشعوره، لم تبين الظروف التي قال في خلالها شعره، على اني اعتقد ان ذكر هذه الامور لا يتيسر في هذا العصر لمؤرخ ادبي، وعلى التخصيص ذكر الروح الادبي والروح الفني في عصر من العصور، لوعورة هذا المسلك وخشونة هذا المركب، ولا يتهيأ شيء من ذلك الا بعد سنين طويلة فكتب تاريخ الادب في هذا العصر ليست من التاريخ في شيء وانما هي مجاميع مشتملة على قليل من دراسة الادب ونقده، فلنبحث هل تشتمل في الحقيقة على شيء من هذه الدراسة وهذا النقد.

اخذت عرضاً تاريخا ادبياً وضعه استاذ من اساتيذ الادب في مصر، وكتب التاريخ قليلة ثلاثة او اربعة على ما اظن، اخذت عرضاً هذا التاريخ وقرأت كلام صاحبه على المتنبي حتى اعرف كيف حاول ان يبحث عن المتنبي، ولم تكن غايتي الاستعانة بهذا الكلام، فان الناقد الادبي يجب عليه ان يقرأ آثار المؤلف حتى يستطيع ان يبدي رأياً فيها، فاذا استعان بكلام غيره على هذه الآثار لم يكن نقده نقداً، قرأت الكلام على المتنبي في هذا التاريخ لاطلع على اسلوب المؤرخ او على

اسلوب الناقد على الوجه الاصح ، فوجدته بعد ان ذكر اليسير من اخبار حياته اشار الى منزلته في الشعر فحكم له وقال : لم ينبغ احد بعده بلغ غايته في الشعر ، الا اني كنت أحب ان اعرف شيئاً عن نبوغ المتنبيء نفسه ، فلماذا لم ينبغ أحد بعد المتنبيء فلم يبين الناقد السماء التي حلق فيها المتنبي ، ولم تطاولها سماء ، ولا الافق الذي امتد اليه حسه ، ولا الصور التي صورها ، ولم يذكر شيئاً من شعور المتنبيء ودقائق هذا الشعور ، وهو العامل الاكبر في شعره ، ولاذكر طبيعة هذا الشعور ولا اشار الى شيء من عاطفته ، ولا وضح طبيعة هذه العاطفة ، ولابحث عن قلق المتنبيء واضطرابه وعن أسباب هذا القلق والاضطراب ، ولا اشار الى تناقض المتنبيء في اخلاقه ، ولاصور لنا مثله الاعلى في الحياة ولاذكر هل كان هذا المثل مادياً أم معنوياً ، ولا تعرض لبعض نزعات المتنبي في الفلسفة ولا ابدى رأيه في خلود المتنبي ، هل يخلد ابو الطيب ، وما هو السبب في خلوده ، وفي الجملة فقد قرأت البحث عن المتنبيء فلم تنشأ في ذهني صورة عامة ، قال المتنبي في كل الاغراض ، ما هي هذه الاغراض ، أجاد المتنبي في وصف المعارك ، ولكن أين مواطن الاجادة ، المتنبي في كلامه كثير من التعقيد اللفظي ، فاين مواضع هذا التعقيد ؛ قرأت هذا كله فلم تنشأ في ذهني صورة المتنبي العامة ، ولا صورة شعره ولا صورة حسناته ولا صورة سيئاته ؛ فلم أعرف شيئاً عن جملة حاله وشعره وأسلوبه .

فرغت من هذا التاريخ ، فاخذت تاريخاً غيره فوقع نظري عرضاً على بحث صاحبه عن ابي فراس الحمداني ، فتبين لي ان المؤلف قد استعان برأي الثعالبي في ابي فراس ؛ حتى انه لجأ في ذلك الى الفاظه نفسها فقال : ولما خرج قمر البيان من سراره ، واطلق اسد الحرب من اساره . وقال في موضع آخر في كلامه على شعر ابي فراس : شعره على مثال الشعر القديم متانة وأسلوباً الا ان عليه رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك ولم تجتمع هذه الخلال قبله الا في شعر عبد الله بن المعتز ، وهذا الكلام انما هو كلام الثعالبي نفسه ، اي امانة في نقد لم يقرأ صاحبه الاثر الادبي الذي ينقده ، اي روح في كلام لم يصدر عن قلب صاحبه ، فلو قرأ هذا

المؤلف الأثر الادبي الذي ينقده لكان له رأي فيه خاص به ، مثل المصادر الادبية في تأثيرها في اذهاننا كمثل مشاهد الطبيعة في تأثيرها في حواسنا فكما ان هذه المشاهد قد تترك في حواس مصور آثاراً لا تتركها في حواس غيره من المصورين ؛ فكذلك المصادر الادبية فانها قد تترك في ذهن رجل آثاراً لا تتركها في ذهن غيره ، فيجب على الذي يتفرغ للنقد ان يقرأ الكلام الذي ينقده ؛ وأما اذا ردد ما قاله غيره فلا تجد أمانة في قوله فاذا كنا لا نزال نكرر آراء المتقدمين ونستعين على بحثنا بكلامهم نفسه أو نشوه هذا الكلام في بعض الاحايين فكأننا لم نخط خطوة في الفلسفة .

اكتفيت بهذا القدر من الاستشهاد لابين لكم ان فريقاً من المؤلفين في الادب لا يزالون ينسخون في هذا الدهر اقوال المتقدمين ، فهم ينسحبون على اذيالهم في كتابة المؤرخات الادبية مع شيء يسير من التعديل ، على ان البحث عن مؤلف من المؤلفات في هذا العصر يختلف عما كان في القديم فقد استفاضت المناهج العلمية في دراسة الادب وشاعت مذاهب النقد وتبدلت الارض غير الارض والسموات واصبح هذا التطور علامة الحياة نفسها ، فلو اجتزأنا بآراء المتقدمين لجمدت القرائح ، ولنضبت الخواطر ، فان لكل ناقد أسلوباً وان لكل مؤرخ مذهباً وعلى قدر اختلاف هذه الاساليب والمذاهب يزداد رونق الادب . فاذا تشابهت فنون الكتابة نفرت الآذان عن كل مردد ، وانقبضت القلوب عن كل مكرر .

أما وقد أشرت الى بعض المطاعن في المؤرخات الادبية فلا أرى بأساً بان أتلو عليكم صفات المؤرخ الادبي على حسب ما حددها الاستاذ « فاكه » في كتابه : فن القراءة .

« يجب على المؤرخ الادبي ان ينسلخ من دخيلته [1] على قدر ما أعان عليه الامكان ؛ يجب عليه أن يتجرد منها كل التجرد ؛ فلا يجوز له أن يعرب عن الاثر الذي أبقاه في نفسه مؤلف من المؤلفين ؛ وانما ينبغي له ان يفصح عن الآثار التي أبقاها هذا المؤلف في أهل عصره وابناء زمانه ، فاذا كان يبحث عن عصر من

(١) دخيلة الرجل : مذهبه وجميع أمره وقد استعملتها بدلا من « الشخصية »

العصور وجب عليه ان يبين روح هذا العصر العام على حسب ما يعرف من تاريخه وان يوضح الروح الادبي والروح الفني في هذا العصر على قدر ما يعرف من التاريخ الادبي و التاريخ الفني ، يجب عليه ان يقيس - وهذا الامر يكاد يكون ممتنعاً - العوامل التي عملت في مؤلف من المؤلفين وان يبين كيف نشأ عقل هذا المؤلف بحسب الكتب التي قرأها في حياته ، وبحسب الرسائل التي كتبها ، وبحسب رأي اهل عصره فيه ، يجب عليه ان يبحث عن مجامع الظروف العامة التي كتب في خلالها : ظروف قومه ، وظروف مكانه ؛ وظروف اهله ، وظروف شخصه . يجب عليه ان ينقب عن التأثير الذي اثره هذا المؤلف نفسه ؛ اي ان يذكر الرجال الذين راقتهم كتابته والرجال الذين لم تعجبهم هذه الكتابة . فلا يجوز للمؤرخ ان يعرف الا الحوادث ولا ان يعلم غيره الا بهذه الحوادث نفسها و بروابطها ، فلا يحق للقارىء ان يعلم كيف يحكم هذا المؤرخ ، ولا يحق له أن يعلم انه يحكم ولا يجوز له ان يعرف كيف يشعر ، ولا يجوز له ان يعرف انه يشعر .

أما الناقد الادبي فانه على خلاف المؤرخ فهو يبتدىء من حيث ينتهي المؤرخ الادبي ، انه على سطح هندسي غير السطح الذي ترى عليه المؤرخ الادبي ، فالذي يُطلب الى الناقد ان يبينه انما هو فكره في مؤلف من المؤلفين ، أو في أثر من الاثار العقلية سواء اكان هذا الفكر صادراً عن عوامل عقلية ام كان صادراً عن هوائج نفسية ، فلا يطلب اليه ان يصور مخططاً وانما يطلب اليه ان يبين الاثار التي بقيت في نفسه بعد سفر من الاسفار »؟

٧ كانون الاول سنة ١٩٢٩

أطوار النقد

أفلا يزال منكم على ذكر ما قلته لكم في آخر مجلس من مجالسنا ، أفلا يزال عالقاً بحفظكم ان تاريخ الادب شيء وان النقد شيء آخر ؛ فقد حدثتكم بخصائص المؤرخات الادبية ، وتعرضت لبعض المطاعن فيها ، فأرى ان أجعل النقد حديثي في هذه الامسية فألمح الى أطوار النقد في لغتنا الكريمة في الجاهلية وصدر الاسلام وفي زمن بني أمية وبني العباس ؛ ثم أجمل الكلام على النقد الادبي في بعض لغات الغرب في القرون الوسطى وفي العصر الحديث .

كان نقد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام وفي أيام بني أمية حكماً مختصراً يحكمونه على شاعر من الشعراء او لشاعر منهم ، وقد كان يجري شيء من هذا النقد في اسواق العرب وأنديتهم في الجاهلية وفي مجالس الخلفاء وقد ملئت كتب الادب بكثير من موجز هذه الأحكام انقل اليكم نماذج منها على سبيل الاستشهاد .

قيل للحطيئة : من أشعر الناس ، فأخرج لساناً دقيقاً كأنه لسان حية وقال : هذا اذا طمع .

وقال ابن عباس ؛ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنشدني لاشعر شعرائكم قلت : ومن هو يا امير المؤمنين ، قال زهير ، قلت : وكان كذلك قال : لا يعاظل بين الكلام ولايتبع حوشيه ، ولايمدح الرجل الا بما فيه .

وكتب الحجاج بن يوسف الى قتيبة بن مسلم يسأله عن اشعر الشعراء في الجاهلية وأشعر شعراء وقته فقال : اشعر الجاهلية امرؤ القيس وأضربهم مثلا طرفة ، وأما شعراء الوقت فالفرزدق أفخرهم وجرير اهجاهم والاخطل اوصفهم .

من هذه الامثلة القليلة يتبين لكم ان النقد كان عبارة عن خطرات سريعة ونظرات عجيلة لا يستند الى شيء من قواعد الفن الشعري الا ان هذه الاحكام كانت صادقة في معظم الاحايين تصدر عن بديهة وفطنة حتى جاء القرن الثالث فدخل النقد في طور آخر وألف المؤلفون فيه كتباً ، منها طائفة زعم اصحابها انها تشتمل على تفصيل الشعراء من أهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين ، وانزالهم منازل والاحتجاج لكل شاعر بما وجده اصحاب هذه الكتب من حجة له ، وما قال فيه العلماء ، من هذه الكتب طبقات الشعراء للجمحي ؛ غير ان صاحب هذه الطبقات لم يبحث الا عن الصور الفنية كحسن الديباجة وكثرة الرونق وجزالة البيت وما شابه ذلك ، كقوله مثلا : كان الحطيئة متين الشعر ، شرود القافية . وكان نابغة بني جعدة شاعراً مفلقاً فلا يختلف طراز هذه الاراء عن الطراز القديم.

ومنها طائفة تتضمن قواعد الشعر ككتاب ابي العباس ثعلب الا ان بعض الذين توسعوا في هذا الباب هم الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ، وابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء وقدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر ، وابن عبد ربه في عقده الفريد ، والآمدي في موازنته بين ابي تمام والبحتري والجرجاني في وساطته بين المتنبي وخصومه ؛ وابن رشيق في كتابه العمدة الى غيرهم من الذين كتبوا في تراجم الشعراء والكتاب كالثعالبي وابن خلكان .

كانت هذه الكتب اشبه شيء بكتب الفن الشعري في بعض امم الغرب فانها تشتمل على قواعد الفن والذوق فلم يشر اصحابها الى الآثار الادبية الا من حيث الصور الفنية فلم يخبر ابن قتيبة مثلا في كتابه : الشعر والشعراء ، الا عما يستجاد من شعر الرجل وما أخذ العلماء عليه من الغلط والخطا في الفاظه ، فلم يخبر الا عن الوجوه التي يختار الشعر عليها ، ويستحسن لها ، وكل هذا لا يتعدى المحاسن اللفظية غير ان ابن قتيبة قد تبسط في بحثه عن القديم والحديث بعض التبسط فقال : ولا نظرت الى المتقدم من الشعراء بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، فالذي يدل عليه باطن كلام ابن قتيبة ان القديم انما هو قديم بالنسبة الى

العصر الذي ظهر فيه ولكن الذي توسع في قواعد الفن انما هو ابن رشيق في كتاب العمدة ، على انه مع توسعه هذا لم يجاوز نقده الاقتصار على الصور الفنية فقد قال في فضل الشعراء :

(كل منظوم احسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة الا ترى ان الدر وهو اخو اللفظ ونسيبه واليه يقاس وبه يشبه ، اذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب ومن أجله انتخب وان كان اعلى قدراً واغلى ثمناً فاذا نظم كان اصون له من الابتذال واظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال وكذلك اللفظ اذا كان منثوراً تبدد في الاسماع وتدحرج عن الطباع .)

فكأن الشعر عبارة عن الفاظ تشبه الدر على ان ابن قتيبة كان يعرف ان العرب احتاجت الى الشعر لتغني بمكارم أخلاقها وطيب اعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة ولكنه نظر الى ظواهر الاكسية التي كانت تصون كرم هذه الاخلاق وطيب هذه الاعراق وصلاح تلك الايام ونزوح تلك الاوطان ولم يتغلغل في بواطن هذا الكرم وهذا الطيب وقد كان في هذه الكتب كلها شيء من النقد اللغوي وهو على ما اعتقد الاساس الذي لا يستغني عنه النقد الادبي نفسه ، وان كان يختلف عنه ، فلا نكاد نجد نقداً ادبياً دون ان يكون فيه نقد لغوي فالكتب التي ذكرتها لكم لم تنظر في روح الشاعر وفكره وعاطفته فلم تفكك اجزاء هذا الشاعر وتبحث عن كل جزء منها ، فكان العصر الذي ظهرت فيه عصر صور فنية الا ان فريقاً من المؤلفين اشاروا الى تأثير بعض العوامل في الشعراء كتأثير البيئة من حاضرة وبدو وتاثير المزاج من سلاسة في الطبع وجفاء في الخلقة ومنهم الجرجاني في وساطته وهذا مذهب طريف في نقد الادب في لغة العرب يكاد يشبه مذهب « تين Taine » في النقد الحديث وسيأتي الكلام على هذا المذهب .

ومن هذا القبيل ابو عامر بن شهيد الاندلسي فالاثار الادبية في نظره صور ظاهرة تدل على بواطن اصحابها فمن قوله :

« ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه فمن كانت نفسه من اصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً يطلع صور الكلام والمعاني في اجمل هيآتها ، ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من اصل تركيبه والغالب عليه جسمه كان ما يطلع في تلك الصور ناقصاً عن الدرجة الاولى في التمام والكمال وحسن الرونق » وهذا الاسلوب في النقد يكاد يشبه اسلوب « سانتبوف » في هذا العصر ومذهب « سانتبوف » التعمق في روح المؤلف حتى يبعث من مدفنه فنرى هيئته وصورته .

اما التراجم فكنتم تجدون في معظمها اساليب متشابهة و الفاظاً متقاربة بحيث يتحقق عندكم ان الشعراء الذين ينقدهم اصحاب هذه التراجم متماثلون في صيغهم وقوالبهم فمن قول اصحاب هذه التراجم : فلان احد افراد الدهر في النظم والنثر وفلان فرد دهره وشمس عصره وفلان اعجوبة الزمان ونادرته وفريد عصره وباقعته ، فيكاد يخيل اليكم ان الناس كلهم اعاجيب الزمان ونوادره وآحاد الدهر وشموسه ، افلم يعسعس ليل الى جنب شمس من تلك الشموس !

هذه هي جملة أطوار النقد في الجاهلية وصدر الاسلام وفي زمن بني أمية وبني العباس أتيت على ذكرها على سبيل الايجاز ثم وقف النقد وقفته فلننتقل الى اطوار النقد في بعض لغات الغرب في القرون الوسطى وفي العصر الحديث .

ما أظن ان أدباً من الآداب قد نمت مذاهبه وامتدت ظلاله في العصور الاخيرة دون ان يكون للنقد الاثر الابلغ في نمو هذه المذاهب وامتداد هذه الظلال :

فالادب الالماني في القرن التاسع عشر قد انبلج نوره من أفق الناقد « لسينغ Lessing » وقد كان النقد روح الادب الفرنسي من ثلاثة قرون ، ولم يحدث حادث في هذا الادب وفي أذواق أهله من القرن السادس عشر حتى يومنا هذا الا كان النقد مصدر هذا الحادث او اصله ، حتى ان كثيراً من شعراء فرانسة أمثال « رونسار » و « مالرب » و « بوالو » و « فولتير » و « شاتوبريان » و « هوغو » قد اعتمدوا على النقد و لجأوا اليه في بسط آرائهم ومنتقداتهم في الادب .

نشأ النقد الادبي الحديث في ايطالية في القرن الخامس عشر وقد كان لنشأته عوامل شتى منها عاملان كبيران : عامل باطن وعامل ظاهر ، أما العامل الظاهر فهو اضطرار رجال التجديد في ايطالية الى تعارفهم وانصرافهم الى استخراج ما خفي من الكنوز في متقدم العصور من مدافنها ، وأما العامل الباطن فهو تيقظ « الشخصية » فقد كان الرجل في القرون الوسطى تابعاً لطبقته ولرجال نقابته ، قبل ان يكون مالك أمره ، فلم يكن له في كل حين تصرف في شأنه وعمله وفكره ولما طلع فجر التجديد تيقظت « القوميات » وخرج الفرد عن الرق فاصبح هم رجل الفن ان يدخل في عمله سواء أكان هذا العمل شعراً ام كان تصويراً شيئاً من روحه اي شيئاً من طابعه «١» .

ثم انتقل النقد من ايطالية الى فرنسة فصبغ فيها بصبغة ادبية فجعل نقدة الكلام في تآليفهم المحل الاول للمبادىء والمذاهب ؛ اني لا اتعرض في هذا المقام لتطور النقد في فرنسة فهذا خارج عن موضوعي ، فلا اتعرض لكتب الفن الشعري في العصرين السادس عشر والسابع عشر ، ولما كانت تشتمل عليه هذه الكتب من قواعد الذوق والفن ، ولا اتصدى لاضجاج القوم في مسألة القديم والحديث ، ولما نشأ عن ذلك من خروج النقد عن طور ودخوله في طور آخر فبعد ان كان الناقد يدرس الاثار من حيث انها آثار شرع يدرسها من حيث انها صور الحضارات . اني لا أتصدى لتطور النقد بعد هذا كله فقد اصبح للاثر الادبي في نظر « فيلمان » « Villemain » ارتباط وثيق بالاوضاع الاجتماعية والسياسية .

كل هذا لا حاجة بنا اليه في هذا المقام وربما مست الحاجة اليه في العام المقبل ، ربما احتجنا اليه في دراسة نقدنا الادبي في اطواره كلها في الجاهلية وصدر الاسلام وفي زمن بني أمية وبني العباس وفي عصرنا هذا فقد نضطر الى شيء من ذلك اذا درسنا هذا النقد وقابلنا بين أطواره وبين أطوار النقد الحديث .

كل هذا لا حاجة بنا اليه اليوم على انه لا أجد لي بدأ من ان اذكر لكم اربعة

---

(١) رأي الاستاذ برونتير في كتابه : تطور الانواع فى تاريخ الادب

نقدة قد استفاضت مذاهبهم في الادب الحديث وكان لها اثر فيه ، واريد بهم فيلمان وسانتبوف وتين وبرونتير . فاذا اردنا ان نفهم أوضاع الادب الحديث فلامندوحة لنا عن الاطلاع على مذاهب هؤلاء النقدة .

أما « فيلمان Villemain » (١٧٩٠ — ١٨٧٠) فهو مؤلف كتاب درس الادب الفرنسي ، واستاذ البلاغة في السوربون ، وصاحب سر (الاكادمية) وكتابه هذا كان فاتحة النقد الحديث فقد جعل فيلمان للمجالس الاجتماعية أثراً في الادب فقال :

لم يخرج من المجالس النيابية نوع حدبث في الادب فقط او صبغة خطابية او بلاغة سياسية بدلا من البلاغة الدينية وانما خرج منها شيء آخر ، هبّت من هذه المجالس نفحة حياة ، خرج من هذه المجالس عنصر حديث امتزج باجزاء الادب كلها فبدل منها وغير واعاد اليها شبابها .

وأما « سانتبوف Sainte-Beuve » (١٨٠٤–١٨٦٩) فقد حاول ان يطوي من ظل العاطفة الشخصية في النقد على قدر الامكان ؛ فالناقد في نظره يجب عليه ان يكون منزهاً عن كل غرض حتى يستطيع ان يكشف أسرار أرواح تختلف عن روحه ، يجب عليه ان يكون صاحب عقل مطلق لا يشغله غرض من اغراض الفن والاخلاق والدين والسياسة .

فالنقد يلزمه ان يكون في حيدة عن كل شيء على نحو حيدة العلم .

لا يريد « سانتبوف » ان يكون النقد تابعاً لاقيسة محدودة فاذا كان تابعاً لشيء من ذلك فكأننا نحاول ان نلزم الاشياء ان تكون تابعة لمذاهبنا فالطبيعة مملوءة بامور متنوعة وقوالب مختلفة فلا يلزم الناقد ان يكون خاضعاً لسلطان واحد ، وقد اعترض على تبيعه « تين » لما شاء هذا ان يطبّق مذاهب العلم في العقل البشري ويجعل للعبقرية الشخصية أسباباً عامة . يقول « سانتبوف » ينبغي للناقد ان يتجرد من نفسه في النقد ، فمن شروط عبقرية النقد ان لا يكون للناقد فن وان لا يكون له أسلوب فاذا كان للناقد شيء من ذلك صرف همه الى اثره الخاص فظهر

اسلوبه في خلال الاثر الادبي الذي ينقده .

فاذا احتاط الناقد في هذه الامور كلها وجب عليه يومئذ ان يبعث كل مؤلف من مرقده حتى نرى هيئته الخاصة على ان يعتني بكل الظروف التي أتى على ذكرها المؤلف في ترجمته ومن هنا يتبين لكم ان النقد أصبح كناية عن تعمق في روح المؤلف.

اراد سانتبوف ان يدرس آثار الرجال على نحو درس علماء الطبيعة لنماذج الانواع المختلفة في عالمي الحيوان والنبات الا انه يرى ان اليوم الذي نستطيع فيه تصنيف الكتاب اصنافاً ، ان اليوم الذي نستطيع فيه وضع تاريخ طبيعي للعقول انما هو يوم بعيد ، على ان الذي يهم انما هو وصف الافراد على وجه الضبط .

واما تين Taine (١٨٢٨ — ١٨٩٣) فكل اثر من الاثار الفنية في نظره يصدر عن صاحبه حتماً لعلة من العلل الخارجة لان الرجل في الطبيعة يتبع القوانين العامة على نحو المخلوقات واليكم قوله :

قد يمكن ان يعتبر الرجل حيواناً من نوع سام يضع فلسفة ويقول شعراً كما تنسج ديدان القز بيوتها وكما تبني النحل خلاياها فاذا وجدنا بستاناً ونحلا فاننا نريد ان نعرف كيف يكون بناء الخلية .

من هنا يظهر لكم ان « تين » قد حاول ان يطابق بين العلم وبين نقد آثار العقل والعاطفة وعلى هذا فقد أراد ان يجعل النقد تاريخاً طبيعياً كبيراً تفسر فيه الاثار والقرائح والامزجة بحسب الجنس والبيئة والزمن ، لقد ادخل تين عناصر حديثة في دراسة الاثار الادبية الا ان مذهبه لا يخلو من بعض المبالغات وقد أثر في الفلسفة وفن الرواية .

ثم جاء برونتير Brunetière (١٨٤٩ — ١٩٠٧) فانبسط سلطانه على العقول حيناً من الدهر ومذهبه في الادب مذهب النشوء والارتقاء قال :

انا نعلم ما استفاده التاريخ الطبيعي والتاريخ والفلسفة من هذا المذهب ، فاريد ان ابحث عن هذا الامر : أفلا يستطيع التاريخ الادبي والنقد الادبي ان ينتفعا بهذا المذهب ، انما مثل الانواع الادبية في نظره كمثل انواع الحيوان والنبات

فانها تولد فتعيش فتموت او تتحول . وهو لا يؤمن بمذهب التولد الذاتي في الادب ، فالطريقة الغنائية في القرن التاسع عشر لم تظهر فجأة وانما قد هيئت من القرن الثامن عشر .

هذه نظرة عامة في أطوار النقد الادبي الحديث ليس فيها شيء من التطويل والتفصيل وانما غايتي اطلاعكم على الزهيد من مبادىء هذه الاطوار حتى لا تكون غريبة عن اذهانكم وقد تبين لكم من هذه النظرة كيف امتد سلطان العلم الى آفاق الادب فامتزج بالادب علم النفس والتاريخ الطبيعي وعلم التشريح وعلم الفيزيولوجيه ومذهب النشوء والارتقاء ثم دخل النقد بعد برونتير فى طور آخر وقل اعتناء النقدة بالاقيسة والمذاهب وجعلوا همهم ان ينقلوا الينا الآثار التي رسخت في نفوسهم من قراءة كتاب من الكتب او ان يفهموا هذه الكتب ويفسروها لنا .

وجملة القول : النقد يحيط بالبلاغة والاداب والفلسفة والتاريخ وما شابه ذلك فلا يصح ان يكون النقد في حال من الاحوال ثرثرة وهذيانا او خلطا وتخبيصاً ؟

١٤ كانون الاول سنة ١٩٢٩

الأسلوب

مر بكم وانا الخص لكم مذهب « سانتبوف » في النقد ان الناقد ينبغي له ان يتجرد من نفسه في نقده فمن شرائط عبقرية النقد ان لا يكون للناقد فن وان لايكون له أسلوب فاذا كان له شيء من ذلك صرف باله الى العناية باسلوبه فظهرت آثار فنه على الكلام الذي ينقده . هذا الطراز من النقد اسمه : النقد الموضوعي وصاحب هذا المذهب يقتصر على الافاضة في الموضوع نفسه دون التعرض لاشياء لا تتعلق بالموضوع فكأنه يحاول ان ينسلخ من عاطفته في نقده وقد اعترض على هذا المذهب « اناتول فرانس » فقال : (١)

« النقد انما هو نمط من الروايات على نحو الفلسفة والتاريخ تزاوله العقول الفطنة الطلعة وكل رواية اذا نحن فهمناها كل الفهم ان هي الا ترجمة المؤلف بقلمه ، فالناقد الحاذق هو الذي يفصح عن خوالج نفسه في تضاعيف روائع المؤلفات ، لا يوجد نقد موضوعي كما انه لا يوجد فن موضوعي وكل الذين يتبجحون بانهم يضعون في مؤلفاتهم شيئاً غير روحهم فهم واهمون ، فالحقيقة ان المرء لا يخرج من باطنه أبداً ، وهذا من اكبر شقاء البشرية ، اننا قيد انفسنا فكأننا في محبس دائم ، فالذي يليق بنا عمله انما هو الاعتراف بهذه الحالة الفظيعة والاقرار باننا نتكلم بكلام على انفسنا كل ما عجزنا عن السكوت ، فاذا كان الناقد حراً وجب عليه ان يقول : ساداتي ! اني اريد ان اتكلم بكلام على نفسي في اثناء كلامي على « شكسبير » او « راسين » او « باسكال » او « غيت » فان في ذلك فرصة حسنة .

وهذا النوع من النقد اسمه : النقد الذاتي ، وصاحب هذا المذهب لا يستطيع ان يتملص من الاعراب عن لواعج صدره في خلال كلامه على مؤلف من المؤلفين .

(١) الحياة الادبية – الجزء الاول – الصفحة ٤

مالنا ولهذا كله ، انما بغيتي الكلام على الاسلوب من حيث هو اسلوب دون الاندفاع في التنقيب عن طبقات الاساليب والتلميح الى محاسنها ومقابحها الى غير ذلك مما يرجع الى صناعة الترسل والانشاء .

من شرائط عبقرية النقد ان لا يكون للناقد أسلوب فما هو الاسلوب ؟

قرأت من يومين كتاباً دوّنت فيه احاديث « اناتول فرانس » في مجالسه ، قال جامع هذه الاحاديث وهو من الذين كانوا يحضرون مجالس اناتول (١)

طلبوا الى اناتول ان يقص عليهم قصة « رنان » مع راهبة الدير في لبنان فقال اناتول :

اسمعوا الحديث من فم رنان نفسه ولست اعني بهذا انه حسن القصص ولكنه كان صاحب طريقة خاصة ، فكان يملأ احاديثه شواهد ويتأوه تاوهات البريتونيين ويتبسم ويدير اباهمه على بطنه ويورّم خديه الضخمين في اثناء الحديث والخلاصة كان يطبع احاديثه بطابع خاص .

احب ان استنبط تعريف الاسلوب من هذا الكلام فالاسلوب هو الطابع الخاص الذي يطبع به الكاتب كتابته ، والشاعر شعره ، والقاص قصته . الاسلوب هو القالب الذي يصب فيه كل واحد منا فكره وعاطفته .

يقول « بوفون Buffon » : الاسلوب انما هو الرجل نفسه ، ومعنى هذا ان الاسلوب انما هو فهم المؤلف وطابع عقله فالاسلوب على هذا الوجه انما هو الشيء الذي يملكه المؤلف ويختص به في اي كتاب من الكتب ، لا يراد بهذا الكلام ان الاسلوب صورة طبع المؤلف او صورة اخلاقه ، وانما المراد به المنهاج الذي ينهجه هذا المؤلف في الافصاح عن فكر يختلج في ذهنه او عاطفة تضطرب في قلبه ، فهو جملة ما يتذرع به المؤلف من الذرائع الى تصوير فكره او تصوير عاطفته .

لنضرب مثلا للاسلوب ، فلنرجع الى اديب من ادباء العرب ، فلنرجع الى شيخ ادبائنا في القديم وأعني به الجاحظ ، من اساليب الجاحظ انه يلجأ الى احقر

---

(١) اناتول فرانس قاّص — بقلم نيقولا سكور — الصفحة ٧١

موضوع وأي موضوع أحقر من الكلام على الحاح الذباب ، فيفرغ هذا الفكر في قالب و يطبعه بطابعه الخاص ، واذا هو موضوع يستهوي النفس ويستميل القلب قد استخلص منه حكمة من اروع الحكم ، واي حكمة اروع من عجز الانسان عن اضعف المخلوقات اي عن الذباب ، فالجاحظ يعظم المعاني الحقيرة فتعظم ، ويحقر المعاني العظيمة فتحقر ؛ من هذا النوع كلامه فى كتاب الحيوان على الحاح الذباب على احد قضاة البصرة في ايامه ، عبد الله بن سوار ، وصف الجاحظ وقار هذا القاضي فصوّره في سطر فقال «١» : لم ير الناس حاكما قط ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذين ضبط وملك ؛ ثم وصف جلوس هذا القاضي فصوره في صورة بناء مبني او صخرة منصوبة فقال : فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكىء فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحل حبوته ولا يحل رجلا على رجل ولا يعتمد على احد شقيه حتى كأنه بناء مبني او صخرة منصوبة ، ثم افاض في غير ذلك من دقائق الصفات حتى اذا فرغ من وقار القاضي وجلوسه ومن الحاح الذباب عليه وحركة القاضي في اطباق جفن على جفن والموالاة بين الاطباق والفتح وقع في نفس كل واحد منا انه يستطيع ان يقص هذه القصة باسهل من هذا الكلام ولكنه اذا جمع ذهنه وقلّب نظره في الموضوع وعرض على باله مفردات اللغة وتراكيبها واخذ قلمه ليكتب اتى عليه يومه كله ولم يقل شيئاً .

هذا هو الاسلوب وهذا هو معنى كلامي : الاسلوب ملك المؤلف لا ينازعه فيه منازع ، فالفكر الذي بينه الجاحظ انما هو فكر عام يخطر على بال كل واحد منا ولكن المعرض الذي عرض فيه هذا الفكر انما هو معرض جاحظي لا يقلده فيه مقلد ولا يزاحمه عليه مزاحم . قال صاحب كتاب ثقافة الافكار الاستاذ « ريمي دي غورمون Remy de gourmont »

« الكتابة صناعة من الصناعات ولكن الاسلوب ليس من العلم في شيء فاذا قلنا الاسلوب هو الرجل نفسه او اذا قلنا الاسلوب هو شيء مقدس فقولنا واحد ، فالاسلوب

---

(١) كتاب الحيوان ـ الجزء الثالث ـ الصفحة ١٠٦

خاص بصاحبه وكما ان لكل واحد منا صوتاً خاصاً به او لوناً خاصاً بعينيه فلكل واحد منا أسلوب خاص به ، انك تستطيع ان تتعلم صناعة الكتابة ولكنك لا تستطيع ان تتعلم كيف يكون لك أسلوب فمن الممكن ان تلون أسلوبك على نحو خضبك لشعرك ولكنك لزمك ان تستأنف هذا التلوين في كل صباح دون شيء من اللهو ، قد يتعلم المرء قليلا ان يكون له أسلوب الا انه ينسى في خلال الحياة ما تعلمه ، فالرياضة التي تحسّن سائر المواهب تفسد في بعض الاحايين موهبة الاسلوب .

الكتابة على نحو ما يفهمها « فلوبر » او « غونكور » انما هي ان تكون شيئاً وان لا تشبه غيرك ، فالحصول على أسلوب انما هو ان يكون لك في لغة عامة مشتركة لهجة خاصة نسيجة وحدها على ان تكون هذه اللهجة لغة كل الناس ولغة واحد من الناس في وقت معاً . »

ومن أصحاب هذا الرأي « اناتول فرانس » فقد قال :

« أي الرجال يستطيع إن يفخر بانه فكر في امر لم يفكر فيه غيره ، فالاديب يعلم علم اليقين ان الافكار ملك الناس باجمعهم فلا يقدر احد أن يقول : هذا الفكر لي ، الاديب يعلم ان قيمة الفكر بالقالب الذي يفرغ فيه هذا الفكر .

فافراغ فكرة قديمة في قالب حديث هذا هو الفن كله وهذا ما يستطيع البشر ابداعه وإنشاءه ، ليس الفكر ملكاً لمن يبدعه وانما هو ملك الذي يثبته في أذهان الرجال . »

وقال في موضع آخر :

الفن لا يكون موضوعه الحقيقة فالحقيقة تلتمس في العلوم لانها غرض هذه العلوم فلا تلتمس في الادب لان الادب لاموضوع له الا الجمال ولا يمكن ان يكون له الا هذا الموضوع . »

هذه آراء كتاب الافرنجة في الاسلوب فلننتقل الى ناحية اقرب منا فلننظر الى ادبائنا انفسهم والى آرائهم في هذا المذهب ، قال ابو هلال العسكري صاحب كتاب الصناعتين وكتابه هذا من أبلغ الكتب التي تضمنت قواعد الفن والذوق :

« ليس لاحد من اصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم ولكن عليهم اذا اخذوها ان يكسوها الفاظاً من عندهم ويبرزوها في معارض من تأليفهم ويوردوها في غير حليتها الاولى ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها فاذا فعلوا ذلك فهم احق بها ممن سبق اليها ولولا ان القائل يؤدي ما سمع لما كان في طاقته ان يقول ، وانما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين . وقال امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه : لولا ان الكلام يعاد لنفد وقال بعضهم : كل شيء ثنيته قصر الا الكلام فانك اذا ثنيته طال .

على ان المعاني مشتركة بين العقلاء فربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي وانما تتفاضل الناس في الالفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها وقد يقع للمتأخر معنى سبقه اليه المتقدم من غير ان يلم به ولكن كما وقع للاول وقع للآخر . »

وقال ابن رشيق في العمدة نقلا عن بعض العلماء :

« ان المعاني موجودة في طباع الناس يستوي الجاهل فيها والحاذق ولكن العمل على جودة الالفاظ وحسن السبك وصحة التأليف ، الا ترى لو ان رجلا اراد في المدح تشبيه رجل لما أخطأ ان يشبهه في الجود بالغيث والبحر ، وفي الاقدام بالاسد ، وفي المضاء بالسيف ، وفي العزم بالسيل ، وفي الحسن بالشمس ، فان لم يحسن تركيب هذه المعاني في احسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة لم يكن للمعنى قدر ، وبعضهم مثل المعنى بالصورة واللفظ بالكسوة فان لم تقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها وتضاءلت في عين مبصرها . »

من هذا يتبين لكم ان اكابر الادباء وبلغاء الكتاب قد اجمعوا على فضل الاسلوب فالاعتناء بالاسلوب قديم عهده في الامم فاليونانيون كانوا على هذا المذهب والرومانيون اولعوا الولع كله بجمال الاسلوب حتى أفرطوا في هذا الامر فأدى بهم افراطهم الى التقصير في الكتابة الحسنة ؛ ان للاسلوب سلطاناً لا يقاوم

وما قيمة الكاتب الا أسلوبه ، يقول بعض الادباء : ان أكثر فواجع « شكسبير » لم تكن الا سلسلة استعارات طرست على آثار القصة الاولى التي جاءته ، انه لم يخترع الا شعره وعباراته فالصور التي صورها حديثة وحداثتها هذه هي التي بعثت روحاً في فواجعه . انظروا الى الشعراء الذين عاشوا في زمن البحتري ثم انظروا الى الذين طواهم فلم يمتد لهم ظل ولم يتسع لهم فيء أفيعيش البحتري ويموت شعراء وقته لو لا الاسلوب ، ان اختراع المعاني محدود ولو لم يكن للمرء أسلوب يختلف به عن غيره لنفد الكلام في العصر الاول من عصور الآداب ولو كان مدار البلاغة على المعاني وحدها لكان الالكن على رأي ابي هلال العسكري بليغاً لانه يفهمنا حاجته بل يلزم ان يكون كل الناس بلغاء حتى الاطفال لان كل واحد منهم لا يعدم ان يدل على غرضه بعجمته او لكنته او ايمائه او إشارته بل لزم ان يكون السنور بليغاً لانا نستدل بضغائه على كثير من ارادته .

هذا هو الرأي الذي اطبقوا عليه وما شذ عنه بعض الناس ولا طعنوا فيه الا لعجزهم عن ان يكون لهم أسلوب حسن ولا يقعن في خلد احدكم ان المراد بالاسلوب مجرد الالفاظ فهذا ظاهر الاحالة لان الالفاظ تدل بطبيعتها على معان فلا ترون الفاظاً من دون معان والذين تجدون لهم أساليب ضخمة ولا تجدون لهم معاني ضخمة هم أصحاب أسلوب اجوف فارغ لانهم لم يحوكوا الكلام على حسب الاماني ولا خاطوا الالفاظ على قدود المعاني ؟

٢١ كانون الاول ١٩٢٩

المحاضرة الثامنة

سحر العبقرية

اجملت الكلام حتى اليوم على امور كانت على غير قصد مني شبه تمهيد لدراسة شعرائنا الثلاثة : ابي الطيب وابي عبادة وابي تمام ، وافق التمهيد مديد. فانا اخشى اذا مضيت في هذه المقدمات ان تنقضي سنتنا ولم نجالس أحداً من شعرائنا الثلاثة ولا احطنا بشيء من وشي طباعهم وصوب قرائحهم فارى ان اجتزىء بهذا المقدار من التمهيد وان ادرس وايا كم بعد اليوم اول الشعراء الذين ذكرتهم واريد به ابا الطيب المتنبيء مالىء الدنيا وشاغل الناس دون التعمق في دقائق الشعر وما يتعلق به فنه ، فما هو الشعر ومن هم الشعراء ؟

الشعر ومعناه في اليونانية « الابداع » انما هو في متعارف الاصطلاح الفن الذي يستخدم الالفاظ المتناسقة في تصوير الجمال ، اي في تصوير افكار وعواطف لاصقة بما يناسبها من الصور . الغرض من الفنون بمجامعها تصوير الجمال وقد علمتم ان تصوير الجمال انما هو الافصاح عن فكر من الافكار او عن عاطفة من العواطف على ان تكون هذه الافكار والعواطف قد كسيت ما يشا كلها من ضروب اللباس ، والتأليف بين الافكار والعواطف وبين قوالبها انما هو من عمل الخيال اي خيال اصحاب الفنون ، فاذا خطر على بال واحد منهم موضوع من الموضوعات وقع في حالة اشبه شيء بالوحي يرتفع فيها الى جو اعلى من جو العامة ويحلق في سماء امد من سمائهم فيخترق الموضوع ذهنه وفي هذه الاثناء تتكشف الافكار له في شكلها الحسي فينزل الوحي عليه .

وعلى هذه الصورة ؛ الفنون كلها متماثلة وانما تختلف باختلاف الوسائل التي يتوسل بها اصحابها الى بيان اغراضهم ؛ فالمصور يلجأ الى الخطوط والالوان ، وصاحب الموسيقى يرجع الى الالحان والاصوات ، والشاعر يعمد الى الالفاظ

قال « اناتول فرانس » في سحر الالفاظ : قلق الشعراء لذيذ ، فلا ترثوا لهم ان الذين يغنون يعلمون كيف يخلعون حلة بيضاء على سواد قنوطهم ، فلا سحر الا سحر الالفاظ فالشعراء يتعزون كما يتعزى الاطفال وما عزاؤهم الا الصور »

فالشعر لايتم بالاوزان والتقفية وانما يتطلب صوراً لانه بالصور وحدها يستطيع ان يخلع على الافكار والعواطف لباساً محسوساً .

(متى يكون الشعر)

لا يكون الشعر الا اذا جمعت الفاظ متناسقة و كانت هذه الالفاظ تتضمن صوراً تناسب المعاني التي تصورها ، فلا تزداد الافكار والصور تناسباً ولا تزداد الالفاظ من جهة ثانية تناسقاً ، سواء أكان هذا التناسق في الالفاظ نفسها ام كان في الافكار وفي الالفاظ التي تمثلها الا ازداد الشعر كمالا .

قد يكون الشعر في مندوحة عن الاوزان طال ما ان الشاعر يستطيع ان ينسق كلامه من دون وزن ، الا ان الاوزان نافعة لان الالفاظ الموزونة اشد تناسقاً دع عنك ان هذه الاوزان تجعل لكل نوع من انواع الفكر والعاطفة لغة خاصة فلكل جنس من اجناس العروض مقام واذا امكن ان يكون شعر دون أبيات موزونة ولا اقول دون تناسق او اذا امكن ان تكون ابيات موزونة دون شعر فلا بد لنا في كل حال من اعتبار الاوزان قال « شينيه Chaignet » في كتابه علم الجمال (١) البيت من الشعر ما هو الا لباس ولكنه لباس طبيعي لطيف تلبسه الفكرة الشعرية ، البيت من الشعر جناح يعين هذه الفكرة على الارتفاع من الارض ويحول دون تلطخ بردها القشيب بالوحل ، البيت من الشعر انما هو المثل الاعلى للكلام .

وقال ابن رشيق في العمدة :

« فاذا اخذه — اي اذا اخذ الشعر — سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشتاته وازدوجت فرائده وبناته واتخذه اللابس جمالا والمدخر مالا فصار قرطه

(١) شينية — علم الجمال — الصفحة ٦٣٦

الاذان وقلائد الاعناق واماني النفوس واكاليل الرؤوس ، يقلب بالالسن ويخبأ في القلوب مصونا باللب ممنوعا من السرقة والغصب .

(ماهو ارتباط الشعر بالموسيقى)

الغناء الذي يزيد في تناسق الكلام يزيد ايضا في كمال الشعر وقد كان الشعر والموسيقي في بدء الجماعات متحدين فكان كل شاعر صاحب موسيقي على ان اتحاد الموسيقى والشعر لا ينفع الشعر الا اذا كانت الحان الموسيقى تصاحب في الشعر الالفاظ وحدها .اما اذا حالت الموسيقى دون فهم الشعر امتنع الشعر ، ولم يزاول الناس الموسيقى في الاصل للموسيقى ذاتها ولكنها خادمة الشعر ولهذا لم تتكامل اغاني الامم في بدئها تكامل الموسيقى في عصرنا هذا .

وهنا لابد لي من تلخيص هذا الامر : الموسيقى فن يختلف عن فن الشعر وان كانا يستخدمان الالحان في تصوير الجمال ، الا ان الموسيقى تستخدم الالحان للألحان ذاتها فغايتها العاطفة موصولة بالالحان ، فكل ما غرقت الموسيقى في تناسق الالحان وتجردت من الفكرة التي تصورها الفاظ هذه الالحان كانت الموسيقى متكاملة ، اما الشعر فانه على خلاف هذا الامر فهو يعتبر اللحن بمنزلة علامة لنقل الفكرة والصورة . فاللحن ليس بغرض الشعر الحقيقي وانما حقيقة غرض الشعر الفكرة المحسوسة التي يمثلها اللحن للذهن .

للافصاح عن الفكرة والعاطفة مذهب آخر من الكلام وهو النثر ، فالشعر يختلف عن النثر من وجهين من حيث المعنى ومن حيث المبنى .

أما من حيث المعنى فالمنظوم من الكلام غرضه تصوير الجمال أي جعل الافكار محسوسة فهو يصور الجمال للجمال نفسه فلا تكون غايته الا اللذة ولكن النثر قد يكون من دون ان تجدوا فيه صيغة محسوسة للافكار ، واذا عني الكتاب في بعض الاحايين بالجمال فما هو الا ليحصلوا على منفعة ما ، فهم يستفيدون من سحر الجمال ما يمكنهم من التهذيب والاقناع وما شابه ذلك .

الشعر لا يعرض علينا الافكار المجردة كما يفعل النثر ولكنه يعرض علينا

حقائق هذه الافكار المحسوسة حتى نكاد ندرك الافكار ذاتها وظواهر صيغها ،
كل هذا في شكل مرصوص كأنه بناء مبني لا خلل فيه فاذا قلنا الربيع فانا نفهم
الذي يراد بكلمة الربيع ولكننا لا نتصور شيئاً في أذهاننا واما اذا سمعنا
البحتري يقول :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً ... من الحسن حتى كاد ان يتكلما

ادركنا الفكرة نفسها اي فكرة الربيع ولكن سحر العبقرية قد بعث في
هذه الفكرة حياة حتى كأننا بمحضر شخص باسم الثغر ضاحك الوجه قد
همّ بالكلام .

فالشعر غرضه ان يعرض الفكر في معرض ظاهر فهو يتحامى التجريدات
ومصطلحات العلم واستدلالات الفلسفة التي هي من خصائص النثر فهي تجعل
الشعر في عالم يختلف عن عالم الخيال وعالم الصيغ المحسوسة ، قال « اناتول فرانس » :

« يحق للعلم ان يطلب الينا ان يجتهد ذهننا وينتبه فكرنا ولكن الفن ليس
له هذا الحق ، شأن الفن ان يلذك ويسرك ليس له غير هذا الشأن ، ولكنهم في
هذا العصر قد خلطوا وخبصوا فاحبوا ان يطبقوا في نتائج الادب ما طبق من
الطرائق في العلم على ان بين انشودة من الاناشيد وبين الهندسة الوصفية بوناً
عظيماً فالشعر غير الهندسة وما ينبغي لملاذ الفن ان تكون متعبة للذهن » .

ولست ادري الى اي غرض رمى ابن رشيق في كلامه لما قال :

« والشعر مأخوذ بكل علم مطلوب بكل مكرمة لاتساع الشعر واحتماله كل
ما حمل من نحو ولغة وفقه وحساب وفريضة » .

اما ان يكون الشاعر مثقفاً فهذا لا بد منه ، واما ان يحمل الشعر ماتحمله
إياه من فقه وفريضة وحساب فهذا مالا قدرة له عليه ، فالشعر شيء والجمع
والطرح شيء آخر .

قلت : الشعر يختلف عن النثر من حيث المعنى وهو يختلف عنه من حيث
المبنى فلكل فكر من الافكار صورة تناسبه من الكلام والفكرة الشعرية تختلف

عن الفكرة النثرية فوجب ان يكون لكل من الشعر والنثر لغة خاصة قال ابن رشيق:

« وللشعراء ألفاظ معروفة وأمثلة مألوفة لا ينبغي للشاعر ان يعدوها ولا ان يستعمل غيرها كما ان الكتاب اصطلحوا على الفاظ باعيانها سموها: الالفاظ الكتابية لا يتجاوزونها الى سواها ».

فالشعراء هم اساتذه اللغة ان لهم ألفاظاً أشرف من الفاظ الكتاب فهم يستعملون كلاماً اندر واقدم ويولدون الفاظاً وتراكيب كتوليد امرىء القيس لهذا التركيب: بعيدة مهوى القرط، وكتوليد غيره من الشعراء.

هذا موجز القول في الشعر وما أظن اني بلغت الغاية في الكلام عليه فان في الشعر شيئاً غير تناسق الالفاظ وغير تناسق المعاني والصور، ان في الشعر سراً روحانياً يدركه الذي يزاوله وقد لا يدركه غير الذي يزاوله وهذا السر الروحاني هو الذي يجعل الشعر شعراً يهز النفوس ويحرك الطباع، ما اجمل قول صحار العبدي لمعاوية وقد قال له معاوية:

ماهذا الكلام الذي يظهر منك، فقال صحار: « شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على السنتنا » نعم الشعر شيء والشعر كل شيء، ولكن ما هو هذا الشيء، ان هو الا وحي يوحى، فما الاوزان وما القوافي وما التنسيق، ان في الشعر شيئاً لا تهبه صناعة وانما تهبه الطبيعة وحدها، تلهمه الهاماً فيطفح على خاطر صاحبه، فيقذفه على لسانه فمن كان الشعر غير مناسب لطبيعته وغير ملائم لقريحته فليسمع ما قاله له ابن عبد ربه:

« فلا تمض مطيتك في التماسه ولا تتعب نفسك الى انبعاثه باستعارتك الفاظ الناس وكلامهم، فان ذلك غير مثمر لك ولا مجد عليك ما لم تكن الصناعة ممازجة لذهنك وملتحمة بطبعك، واعلم ان من كان مرجعه اغتصاب نظم من تقدمه واستضاءته بكوكب من سبقه وسحب ذيل حلة غيره ولم تكن معه أداة تولد له من بنات ذهنه ونتائج فكره الكلام الجزم والمعنى الجزل لم يكن من الصناعة في عير ولا نفير ».

من هذا كله تستخلصون ان الشعر قد ركب في الطبع وامتزج بالنفس فالطبع هو العامل الاكبر في الشعر ولعمري كيف يكون الشاعر رقيقاً اذا قدت طبائعه من الصخر ، ونحت قلبه من الحجر ، أم كيف يكون ظريفاً اذا نشأ على الغلظة والفظاظة وطبع على فتور الذهن وجمود النفس ، فالناس كلهم يستطيعون ان يتكلفوا الشعر وما كل شعر يقولونه خالد على وجه الدهر فاذا لم يكن الشعر ابن الوحي والالهام ذهب جفاء ولم يمكث في الارض .

هذا هو الشعر ، هذا هو سحر العبقرية ، فمن هم الشعراء : من هم هؤلاء السحرة ، فاذا اردتم ان تعرفوا من هم الشعراء فاسمعوا ما قاله « فكتور هوغو » :

« من الخطأ لا بل من الجناية ان يخطر ببال الاديب انه يحق له ان يكون بمعزل عن مصالح قومه ورغائبهم ، وان يعدل بقريحته عن التأثير في اهل عصره وابناء زمانه وان يتفرد بحياته فلا يكون له عمل في البنيان الاجتماعي ، فمن الذي يخلص النية في هذه الاعمال الجليلة غير الشاعر ، أي صوت يعلو في العواصف غير صوته ، ام اي وتر يستطيع ان يخفف من شدة العواصف غير وتر قيثارته ؛ فمن الذي يقتحم الفوضى فيذهب بمقابحها ويهجم على الاستبداد فيدرج بمكارمه وقديماً كان الشاعر صاحب الامر النافذ في الجمع بين الشعوب والملوك وحديثاً له الامر في التفريق بينهم . »

فاذا علمتم مكانة الشعراء في المجتمع البشري ادركتم معنى احتفال قبائل العرب في القديم بشعرائهم ، قال ابن رشيق :

« كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الاطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الاعراس ، ويتباشر الرجال والولدان لانه حماية لاعراضهم وذب عن احسابهم وتخليد لمآثرهم واشادة بذكرهم وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد او شاعر ينبغ فيهم او فرس تنتج . فممن حمى قبيلته زياد الاعجم وذلك ان الفرزدق هم بهجاء عبد القيس فبلغ ذلك زياداً وهو منهم فبعث اليه : لا تعجل وانا مهد اليك هدية فانتظر الفرزدق الهدية فجاءه من عنده :

فما ترك الهاجون لي ان هجوته مصحاً أراه في أديم الفرزدق
ولا تركوا عظما يرى تحت لحمه لكاسره ابقوه للمتعرق
سأكسر ما أبقوا له من عظامه وأنكت مخ الساق منه وأنتقي
فانا وما تهدي لنا ان هجوتنا لكالبحر مهما يلق في البحر يغرق

فلما بلغته الابيات كف عما اراد وقال :

لا سبيل الى هجاء هؤلاء ما عاش هذا العبد فيهم » .

وكيف لا تحتفل العرب بشعرائها وهم الذين يصورون الحق في صورة الباطل ويصبون الباطل في قالب الحق فاذا قالوا أنجحت مقالتهم في القلوب ، قال اناتول فرانس : «[1]»

« الشاعر ملك ، الشاعر اكثر من ذلك ، انه فوق أفق البشر ، ينزل عليه إله الشعر هدوء الفكر ومسرات العقل ، انه يكتشف عوالم حديثة على نحو « كولومب » دون ان يزايل مركزه ويفتتح البلاد على نحو « شارلمان » من غير ان يتحرك من مكانه .

انه يجمع هوائج النفوس فيبعث حياة كل واحد من البشر ، يشعر بفرح كل من يفرح ويحس بألم كل من يألم في هذا العالم .

اي سلطان في يديه ! انه يجمع الالفاظ ، تلك الالفاظ الباطلة التي تقلب العالم ، الشاعر يحكم على الاحياء وعلى الاموات .

انظروا الى الملك « مكبت » دل استقصاء المؤرخين على انه لم يقتل احداً وعلى ان زوجته كانت امرأة صالحة فلم يكن على يدي « مكبت » لطخة دم ولكن من الذي يؤمن بعد اليوم بصلاح الزوجين الفاجعين . أراد شكسبير ان يصور الملك « مكبت » في صورة مجرم فظيع فلطخ يد زوجته لطخة حمراء فنظر الناس بعد تصوير « شكسبير » الى الملك « مكبت » والى زوجته فلم يروا في « مكبت » الا رجلا قاتلا غاصباً ولم يروا في زوجته الا انامل غميسة في النجيع . فلا يستطيع

(١) اناتول فرانس قاص - بقلم نيقولا سكور - الصفحة ٤٣

احد ان ينصفهما بعد كلام شكسبير ، وان ينظر في مظلمتهما مرة ثانية فقد نطق الشاعر واذا الشاعر نطق فلا تسمع العصور غير صوته ».

ما أعظم سلطان الشاعر ! ما انفذ كلامه ! من كلام الازدي على سيف الدولة انه كان جائراً على رعيته ، ومن كلام قاضي سيف الدولة ابي الحصين : كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك ، ولما قتل هذا القاضي في احدى المعارك داسه سيف الدولة بحصانه وقال : لا رضي الله عنك فانك كنت تفتح لي ابواب الظلم ، وذكر بعض المؤرخين ان بني حمدان اكبوا على ابناء عمهم بني حبيب بصنوف الجور حتى مرق بنو حبيب من دينهم والتحقوا بالروم ، كل هذا نسي منسي ، ذهب جور سيف الدولة ان كان جائراً وذهب ظلمه ان كان ظالماً ولم يبق في اذهان بعض الناس من سيف الدولة الا الصورة التي صورها ابو الطيب المتنبي في شعره ، ستكر الايام وتمر العصور وسيف الدولة :

تشرف عدنان به لا ربيعة وتفتخر الدنيا به لا العواصم [1]

هؤلاء هم الشعراء . —

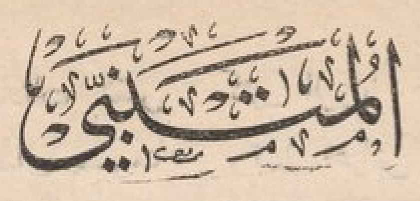
دخل ابن هرم بن سنان على عمر بن الخطاب فقال له من انت قال : ابن هرم ابن سنان قال: صاحب زهير ، قال : نعم قال : اما انه كان يقول فيكم فيحسن قال : كذلك نعطيه فنجزل قال : ذهب ما اعطيتموه وبقي ما اعطاكم .

وما اريد بعد هذه الخاتمة ان اقول شيئاً فالشعراء هم الذين اذا اعطوا بقيت عطاياهم على شباب الايام وعلى هرمها ؟

٢٨ كانون اول سنة ١٩٢٩

---

(١) لا يراد بهذا الكلام ان حكم التاريخ على « مكبث » او على سيف الدولة قد بطل دفعة واحدة وانما يراد به تصوير تأثير الشعراء ومبلغ هذا التأثير .



١

اول عهدي به — دراستنا في الماضي والحاضر

كتب التراجم

أرجع بالخاطر الى الماضي ، وبيني وبين هذا الماضي سبع عشرة سنة ، وماهي هذه البرهة قياساً بالزمان الذي لانهتدي الى اوائله ، ولانتصل باواخره ، ماهو العمر كله سواء اطال هذا العمر ام قصر ، وسواء أبسمت جنباته ام عبست ؛ ما هو عمر الانسان الى جنب اعمار العوالم في الطبيعة والى جنب اعمار طبقات الارض . ما لنا ولهذا التعجب ، فاننا اذا امعنا في اشباه هذه المسائل غرقنا في خضم الزمان ، وتبين لنا اننا لم نك شيئاً في العالم ، ارجع بالخاطر الى الماضي ؛ وقد كان الشباب ميد الغصن ، أملد العود ؛ وكان البال هادئاً والفكر ساكناً لم يشغله شيء من شواغل الحياة وما اكثر شواغلها ، اللهم الا انصرافه الى الادب وتمتعه بآثاره الخالدة ولكن هل كنا نفهم هذه الاثار ؟ هل كانوا يفهموننا اياها ؟ هل كان يحسن فهمنا وتفهيمهم ؟ كنت ورفيق لي اذا اغتنمنا خفة من زحمة مدرستنا نتردد الى مكتبة مطمئنة مستقرة ليس فيها شيء من العظمة وانما عظمتها في حقارة شأنها ، كنا نتتاب هذه المكتبة في حي رفيقي أي في حي النصارى فما كنا نجالس من الشعراء الا شيخنا ابا الطيب ولا كنا نحادث من الكتاب الا استاذنا عبد الله بن المقفع .

اني لا ازال اذكر الابيات التي كنا نرددها ونستعظمها ونحن لا نعرف

السر في عظمتها، ومن هذه الابيات، وهي كريمة عليّ، لانها رفيقة الصبوة وشقيقة الروح :

وانا لنلقى الحادثات بانفس　　كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا ان تصاب جسومنا　　وتسلم اعراض لنا وعقول

ومنها :

واحتمال الاذى ورؤية جانيه　　غذاء تضوى به الاجسام
ذل من يغبط الذليل بعيش　　رب عيش اخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه　　ما لجرح بميت ايلام

ومنها في استعطاف سيف الدولة :

ان كان سركم ما قال حاسدنا　　فما لجرح اذا ارضاكم ألم

ومنها في رثاء جدته :

اتاها كتابي بعد يأس وترحة　　فماتت سروراً بي فمت بها غما
حرام على قلبي السرور فانني　　اعد الذي ماتت به بعدها سما

نعم هذه طائفة من الشعر الذي كنا نتحدث به انا ورفيقي من دون ان نخوض في شيء من الكلام على بواطن هذا الشعر او نتصدى لكشف الغطاء عن اسراره وانما كان يسحرنا بظاهره فيشغلنا جمال هذا الظاهر عن النظر في جمال الباطن فكنا نجهل المتنبي ونجهل طبيعة عبقريته وانما كنا نتغنى بشعره حتى افترقنا فطرحتني النوى مطارحها واذا انا في شارع من شوارع الاسكندرية واذا انا في دكان وراق من الوراقين فاخذت عيني ديوان ابي الطيب الذي شرحه الشيخ اليازجي فاشتريت هذا الديوان وحفظت منه ماتيسر لي حفظه وقد ذهب المحفوظ الا اقله وانا لم ازدد معرفة بالمتنبي وبحقيقة حاله وشعره وانما ازددت عبادة له .

هذا اول عهدي بشيخنا ابي الطيب وما قدمت هذا الكلام عبثاً، ولا رجعت الى الماضي عرضاً؛ فلم اتعود ان اقلق غيري واضجره بكلامي على نفسي وانما المرء لا يكون اميناً كل الامين الا اذا جرى على لسانه ما تصوره فكره . هذ

ما قاله « اناتول فرانس » لم اعرض الماضي عليكم عبثاً وانما اردت أن أصف لكم طوراً من اطوارنا في فهم الادب ، اردت ان اصور لكم كيف كانت دراستنا للادب من سبع عشرة سنة ، كنا لا ندري بشيء من جملة حياة الشاعر وجملة اخلاقه وطبائعه وجملة عبقريته ، حسبنا ان نستظهر بعض اشعاره ونروي هذا المستظهر في مجالسنا حتى يطبعنا الادب بطوابعه ويصبنا في قوالبه . اما اليوم فلا يكفينا ان نملأ اذهاننا ببعض ابيات نجعجع بها في محافل الادب ، تلك حالة قد خلت ، ليس صاحبها في شيء من الادب . قرأنا المتنبي فلم نعرف عنه كل شيء تهمنا معرفته ، لم نعرف أين ولد وأين نشأ وكيف حصّل وقرأ ، وما هي إخباره من مبادئها الى خواتيمها ؛ كيف جال في الاقطار وكيف اتصل بسيف الدولة ثم انفصل عنه ، وكيف قصد كافوراً ثم تركه ، وكيف عاد الى بغداد ثم خرج منها ، وكيف رحل الى بلاد فارس ثم غادرها فقتل في طريقه الى وطنه الكوفة . قرأنا المتنبي فلم نحط بشيء من سلسلة اخباره ؛ فلم يتبين لنا طراز حياة المتنبي وما قصدنا ان نعرف انه اتصل بفلان او فلان من الوزراء والامراء ، وانما اذا عرفنا جملة اخباره استخلصنا منها نمط حياته فتبين لنا ان هذه الحياة كانت جيّاشة بالحوادث والفتن ، فيّاضة بالقلق والاضطراب يكاد صاحبها لم يعرف الهدوء في يوم من ايامه ، ولم يذق الطمأنينة في ساعة من ساعاته ، اعصاب هائجة مائجة اذا حركوا منها طرفاً انتفضت ولا انتفاض البرق فويل للذي مسّها بسوء .

هكذا قرأنا المتنبي ، اما اليوم فاني احاول ان ادرسه وإياكم على صورة أتم ، ووجه اكمل ، أحاول اليوم ان اقرأ شعره وان ادوّن في دفتري ما توحيه الي هذه القراءة ، وان احدثكم في كل اسبوع بما بقي في نفسي من آثارها على مختلف صفات هذه الآثار ، وعلى ما به لا بد لنا من ان ننتقل الى وطن شيخنا ابي الطيب ونراقبه في اطوار حياته بمجامعها ونصحبه في اسفاره كلها . في جولانه في الشام وفي اتصاله بسيف الدولة ؛ وفي دخوله مصر وخروجه منها ، وفي رجوعه الى العراق وفي شخوصه من العراق الى فارس وفي مغادرته بلاد فارس وعودته الى

وطنه وفي مقتله على طريقه الى الكوفة ؛ لا بد لنا من ان نصحب شيخنا ابا الطيب من مبدإ منشأه الى خاتمة حياته وانْ نعنى بجميع ما حدث له من الحوادث في مجالسه كلها وما أكثر هذه الحوادث ، وان نستنبط منها طراز حياته وما ملئت به هذه الحياة من قلق واضطراب ، وما تقلبت فيه من علو وهبوط ، لا بد لنا بعد الوقوف على دقائق هذه الحياة من معرفة مزاجه وخلقه مستندين في هذه المعرفة الى آثار عبقريته نفسها ؛ لا بد لنا من النظر في آثار عصره في شعره وآثار شعره في عصره ، ما الذي اوحاه اليه عصره وما الذي اوحاه الى عصره ، لا بد لنا من النظر في عبقريته وفي خصائصها راجعين في الاحاطة بهذه الخصائص الى مصادر شعره ، وجملة القول لا بد لنا من ان نعيش مع المتنبي حتى نعرف من هو المتنبي ، وقد يجوز ان يعرض لي في اثناء هذا كله فكر عام يجره فكر خاص ، لان المرء اذا تصور موضوعاً وهيأ له عناصره ثم أخذ قلمه ليكتب هجم على ذهنه شيء مما كان يتصوره ، كان قلم ابن المقفع كثيراً ما يقف ، فقيل له في ذلك ، فقال تزدحم الافكار في صدري فيقف القلم لتحيره .

أول ما يهمنا علمه الاحاطة بحياة المتنبي من أولها الى آخرها ، والوقوف على اخباره وحوادثه من دون ان تكون هذه الاخبار مقتضبة مبعثرة فاذا وقع الاقتضاب في الاخبار فاتتنا صورة صاحبها المتكاملة ، فاذا كنا نبحث عن حياة المتنبي وتعرضنا في خلال بحثنا للكلام على شعره دون ان يكون لهذا الكلام ارتباط بحياة صاحبه شاهت صورة هذه الحياة وقبحت فالاجدر بنا ان نرسل اخبار الحياة دفعة واحدة ، وقد عني الافرنجة بهذا النمط من الترتيب العناية كلها ، اذكر اني قرأت كتاباً عمله « اناتول فرانس » سماه العبقرية اللاتينية ، وصف فيه طائفة من كبار شعراء فرانسة وكتابها ومن جملة هؤلاء الشعراء « راسين Racine » وكاد راسين يكون أكبر شعراء فرانسة ؛ عقد له اناتول فصلا في كتابه يشتمل على خمس وثلاثين صفحة لم يذكر فيها الا حياة راسين من صدورها الى اعجازها وقليلا ما كان يتعرض للكلام على عبقريته في تضاعيف كلامه على حياته الا ما اقتضاه المقام . من هذا يتبين لكم مبلغ اخبار الكاتب او الشاعر في الادب الحديث لان

لهذه الاخبار تعلقاً بروح الشاعر وباخلاقه وبطبائعه وبعبقريته نفسها .

رجعت الى المصادر التي استطيع ان اهتدي بها الى معرفة حياة المتنبى ومن جملة هذه المصادر : ابن خلكان، طبقات الادباء، يتيمة الدهر، الصبح المنبي . تصفحت كتاب ابن خلكان فبدلا من ان يبدأ بالكلام على مولد المتنبي ثم على اهله ثم على تحصيله ثم على اخباره ثم على شعره، بدأ بالكلام على تحصيله ثم انتقل الى الكلام على شعره ونثره ثم ذكر نظر الناس فيه ثم رجع الى اخباره ثم بيّن مولده ثم ذكر نسبه حتى ركب البحث بعضه بعضاً دون شيء من الترتيب وكذلك صاحب الصبح المنبى فانه عوضاً عن ان يروي لنا اخبار المتنبى دفعة واحدة رواها على صورة مفرّقة مبدّدة وانه ليروي لنا اخبار المتنبى عند سيف الدولة اذ ينقلب بنا فجاءة الى اخباره عند ابن العميد بحيث قضيت ثلاث ساعات ونصف ساعة في التدقيق والتمحيص حتى اجمع اخبار ابي الطيب كلها، وأصل بعضها ببعض من بدء حياته الى يوم مقتله، فلو ذكر صاحب الصبح المنبي الاخبار دفعة واحدة من دون ان يتخللها شيء من نقد الشعر او غيره مما لا محل له في فصل الاخبار لكفى القارئ كثيراً من العناء . ادبنا في القديم لا يزال فوضى ينقصه كثير من الترتيب، وهذه حقيقة واضحة حتي ان هذه الفوضى قد حملت بعض الناس على ان يعتقدوا اننا لا أدب لنا في القديم، او ان هذا الادب لا قيمة له . وما اعتقدوا هذا الاعتقاد الا لقلة الترتيب في ادبنا فلو روى المؤلفون اخبار شاعر من الشعراء على حدة حتى نستخلص من هذه الاخبار طراز حياته باجمعه . ولو نقدوا شعر هذا الشاعر على حدة حتى نستنبط من هذا النقد رأيهم في الشعر دون ان يتخلل الاخبار شيء من النقد . او ان يتخلل النقد شيء من الاخبار مما لا يتعلق بالنقد . لو فعل المؤلفون هذا كله لكان ادبنا في شكل اتم . فاذا قلنا ادبنا في القديم فوضى فما في مقالنا شيء من المبالغة . وما اظن ان ادبنا في الحديث احسن ترتيباً ومن المؤلم ان يدعو استاذ روسي في المجمع العلمي في لنينغرد وهو الاستاذ اغناطيوس كراتشقوفسكي، ادباء العرب الى تنظيم ادبهم في هذا العصر قبل ان يفكر احد

من هؤلاء الادباء فى التنظيم ، فقد كتب هذا الاستاذ مقالة بالعربية سماها : درس الاداب العربية الحديثة — مناهجه ومقاصده في الحاضر — نظر واقتراح — وارسل مقالته الى مجلة المجمع العلمي في دمشق ، وستظهر هذه المقالة قريبا في مجلة المجمع[1] وقد قرأتها كلها فان صاحبها دلنا على ما يجب علينا ان ننهجه من المناهج في ترتيب [illegible] الحديث واقترح ان يكون دخول نابليون مصر فاتحة عصر هذا الادب ؟

١١ كانون الثاني سنة ١٩٣٠

(١) نشرت هذه المقالة في الجزء الاول من المجلد العاشر من مجلة المجمع العلمي العربي — كانون الثاني ١٩٣٠

المحاضرة العاشرة

وطن المتنبي

خد العذراء



« موقع الكوفة – أوليتها – وصفها »

انتقل بكم في غسق ليلتنا هذه من البلد الذي رمى ظله عليه جبار بني امية الى البلد الذي اورفت ظلاله فيه جبار بني العباس ، انتقل بكم من دمشق الى بغداد :

محضتك يا بغداد ودي على النوى وأني ان أمحض ودادي أصدق
فما بردى لو لا الفرات بمورد لظمآن ان يشرب من الماء يشرق
ولا دجلة لو لا مناهل جاق بمجرى برود كالرحيق مصفق

انتقل بكم من شواطي بردى الذي نكاد نسمع نجواه وراء قاعة مدرستنا الى شواطيء الرافدين : دجلة والفرات ؛ تصوروا الامم التي طوتها هذه الانهر الثلاثة ، تصوروا العبقريات التي نبتت على ضفاف هذا الماء السادر في غلوائه ، الجامح في خيلائه ، الذي ما انفك يسخر في ماضيه وحاضره وآتيه من كل جبار عنيد . مالنا ولهذه الذكريات الاثيمة ، استغفر الله . وهل الامم الا سلاسل ذكريات . هل كان الحاضر الا ابن الماضي ، هل كان الآتي الا نتيجة الحاضر ؟ انتقل بكم من منازل العصابة الذين نادمهم حسان في الزمان الاول بجلق ، من منازل ابناء جفنة على بردى الى منازل النعمان على الفرات ، من متنزهات الغوطة جنة الدنيا الى متنزهات الخورنق والسدير .

اني لأجوز هذه المواضع كلها دون ان أقف بكم على موضع منها ما خلا

موضعاً طلع على الدنيا والناس من عشرة قرون ونيف برجل ملأ الدنيا وشغل الناس، وقبيح بنا ان نقاق شيخنا ابا الطيب في ضجعته و نبعثه من مرقده من غير ان نطوف بالوطن الذي انبت امثال ابي الطيب، ولا مثيل له، ونعرف شيئاً من خصائص هذا الوطن، والمرء ابن ارضه وسمائه ومائه وهوائه يأخذ من تربته ويعطيها وتناجيه ويناجيها، يؤثر فيه كل ناحية من نواحي هذه التربة فلا يتملص من عوامل طبيعتها ولا ينسلخ من عوامل السياسة والاجتماع والتاريخ في آفاقها. على ان بعضهم لم يجعل للبيئة المقام الاول في نشوء العبقريات: قال الاستاذ «برونتير»:

«لا تنسوا ان المرء وان كانت بيئته تؤثر فيه فهو يستطيع ان يتملص من آثارها وانه يستطيع ان يصرفها في مصالحه وقد أجمع علماء الطبيعة على هذا الامر لا شك انهم لا ينكرون آثار البيئة ولكنهم بعيدون عن ان يجعلوا لها حتى في علم الحيوان المحل الذي جعله لها «تين» في مذهبه». —

وسواء أتركت الكوفة في شعر ابي الطيب أثراً من آثارها ام لم تترك. وسواء أكان هذا الاثر غامضاً ام كان واضحاً لا بد لنا من السياحة في الكوفة لنرى اين هو هذا الوطن على التحقيق، نقرأ ان المتنبي ولد في الكوفة في محلة يقال لها كندة، ولكننا قليلا ما نهتم بمعرفة موقع الكوفة وقليلا ما نبالي بمعرفة طبيعتها ولا نسأل هل تغنى المتنبي بوطنه، هل عقّ وطنه. وحسبنا ان نعلم ان الكوفة مدينة من مدن العراق، قال ياقوت في معجمه: الكوفة بالضم المصر المشهور بارض بابل من سواد العراق. لا شك في ان هذا التعريف العام لا يزال مبهماً، فهو لم يزدنا علماً بموقع الكوفة، فلم يبين ياقوت اين الكوفة من بغداد واين هي من دجلة او الفرات حتى انه أورد ابياتاً في هجاء اهل الكوفة من جملتها بيت من الشعر أتحاشى عن ذكره في مثل هذا المقام يدل هذا البيت على ان الكوفة قريبة من دجلة وهذا خطأ لم ينبه عليه ياقوت.

قال صاحب كتاب بلاد العرب الاستاذ «دي فرجر M. Noel des Vergers»

مصر عمر البصرة على خليج فارس، ومصر الكوفة على بحرة الرهيمة (١) فاين الرهيمة ؟ يقول لنا الفيروزابادي في قاموسه المحيط: ورهيمة لجهينة عين بين الشام والكوفة. وهذا التعريف لا يقل غموضاً عن تعريف ياقوت للكوفة، وردت الرهيمة في شعر المتنبي معرّفة بال. لما خرج ابو الطيب من مصر ورجع الى الكوفة وصف منازل طريقه فقال في جملة ما قال:

فيا لك ليلا على اعكش أحمّ البلاد خفيّ الصُوى
وردنا الرهيمة في جوزه وباقيه اكثر مما مضى
فلما انخنا ركزنا الرماح بين مكارمنا والعلى

من هنا يستدل على ان الكوفة قريبة من الرهيمة لان الرهيمة آخر ما ذكر المتنبي في قصيدته من المواضع، وقد ذكر عشرين موضعاً فبعد ان ورد الرهيمة قال: ركزنا الرماح اي بلغنا الكوفة.

فالكوفة على التحقيق واقعة على الجانب الجنوبي من بغداد، في الجانب الغربي من الفرات، وبينها وبين بغداد مائة واربعون كيلومتراً، وصفها عراقي لي فقال: فيها بساتين ولا تزال آثار مسجدها القديم قائمة.

ولئن طولت الكلام على موقع الكوفة فقد تعمدت هذا التطويل لتعرفوا قلة التوضيح وقلة التحقيق في كثير من كتبنا.

مامعنى الكوفة. ويسميها قوم خد العذراء وسماها عبدة بن الطبيب: كوفة الجند فقال:

ان التي وضعت بيتا مهاجرة بكوفة الجند قد غالت بها غول

قال ياقوت في معجمه:

قال ابو بكر محمد بن القاسم: سميت الكوفة لاستدارتها، اخذ من قول

(١) قال ياقوت في معجمه: الرهيمة عين بعد خفية اذا اردت الشام من الكوفة وبينها وبين خفية ثلاثة اميال وبعدها القطيّفة مغرباً.

وعلى هذا الا يكون تعريف الاستاذ «دي فرجر» صحيحاً كل الصحيح فقد يجوز ان تكون الكوفة قريبة من الرهيمة ولكنها لم تبنَ على الرهيمة نفسها

العرب رأيت كوفانا : وكوفانا بضم الكاف وفتحها للرميلة المستديرة ، وقيل : سميت الكوفة كوفة لاجتماع الناس من قولهم تكوف الرمل اذا ركب بعضه بعضاً ، ويقال : اخذت الكوفة من الكوفان (١) . هم في كوفان اي في بلاء وشر ، وقيل : سميت كوفة لانها قطعة من البلاد . من قول العرب قد اعطيت فلان كيفة اي قطعة ، ويقال : كفت اكيف كيفاً اذا قطعت فالكوفة قطعة من هذا ، انقلبت الياء فيها واواً لسكونها وانضمام ما قبلها . وقال قطرب : يقال القوم في كوفان اي في أمر يجمعهم . قال ابو القاسم : قد ذهب جماعة الى انها سميت كوفة بموضعها من الارض وذلك ان كل رملة يخالطها حصباء تسمى كوفة . وقال آخرون : سميت كوفة لان جبل ساتيذما محيط بها كالكاف عليها . وقال ابن الكلبي : سميت بجبل صغير في وسطها كان يقال له كوفان ، وعليه اختطت مهرة موضعها . وكان هذا الجبل مرتفعاً عليها فسميت به . فهذا في اشتقاقها كاف » .

نعم هذا في اشتقاقها كاف . وهذا اكثر من الكافي ، ثمانية اسباب في تسمية بلد ، يحار المرء في معرفة الاصلح منها ، فيخرج من حيرته هادىء البال ، مطمئن الفكر بقوله : والله اعلم .

مالنا ولهذه الفوضى ، فلننظر الى أولية الكوفة في الاسلام ، فلنرجع الى أوائل الفتح الاسلامي ، فلنرجع الى أيام عمر بن الخطاب دون ان نجاوز هذا الزمن مخافة ان نضيع في مجاهل العصور .

بنيت الكوفة في خلافة عمر بن الخطاب على مقربة من اطلال الحيرة ، منازل المناذرة والاكاسرة قبل الاسلام . قال قوم : مصّرت الكوفة في السنة التي مصّرت فيها البصرة وهي سنة ١٧ وقال آخرون : مصّرت الكوفة بعد البصرة بسنتين ، وقالوا بسنة . والسبب في بنائها ان امير المؤمنين عمر بن الخطاب

(١) استعمل ابو الطيب المتنبي في شعره كوفان بدلاً من الكوفة فقال في مدح سيف الدولة :

ابن المعفر في نجد فوارسها   بسيفه وله كوفان والحرم

كانت تفد عليه وفود العرب بعد الفتوح والوانهم شاحبة ، وسحناتهم متغيرة فكتب الى سعد بن ابي وقاص : ان العرب لا يصلحها من البلدان الا ما أصلح الشاة والبعير ، فلا تجعل بيني وبينهم بحراً . وعليك بالريف فوقع اختيار سعد على أرض يقال لها قبل الاسلام سورستان فبنى فيها الكوفة ؛ وكان اول ما خط فيها المسجد ودار الامارة وقد نزل الكوفة في أوائل الفتح الاسلامي جماعة من نزار واهل اليمن ، اما أهل اليمن فكانت خططهم في الجانب الشرقي من البلد ، وهو خير الجانبين ، واما نزار فقد كانت خططهم في الجانب الغربي من وراء الغابات ، اني الفتكم من اليوم الى منازل أهل اليمن في الكوفة فسيمر بكم ان المتنبي ينتسب الى حي يمان فكأن اهل اليمن الذين نزلوا الكوفة في اول امرها في الاسلام أحبوا ان يسموا محلتهم فيها كندة احياء لذكر كندة ابي حي من اليمن ، والمتنبي ولد في هذه المحلة حتى قال قوم بديء الشعر بكندة ، يعنون امرأ القيس ، وختم بكندة يعنون ابا الطيب .

هذا موقع الكوفة وهذه اوليتها ، أفلا يليق ان نسمع وصفها ، ونعرف طبيعتها وللشاعر ارتباط بطبيعة وطنه ، وصف الكوفة محمد بن عمير العطاردي لعبد الملك ابن مروان فقال : الكوفة سفلت عن الشام ووبائها وارتفعت عن البصرة وحرها فهي برية مربعة اذا اتتنا الشمال ذهبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور واذا هبت الجنوب جاءتنا ريح السواد وورده وياسمينه واترنجه ، ماؤنا عذب وعيشنا خصب .

ووصفها الحجاج فقال : واما الكوفة فبكر عاطل عنطاء لا حلي لها ولا زينة .

وكان علي اذا اشرف على الكوفة يقول : يا حبذا مقالنا بالكوفة — ارض سواء سهلة معروفة — تعرفنا جمالها العلوفة (١)

وكان زياد يصيف في الكوفة ويشتو في البصرة .

والظاهر ان الكوفة صبغت في بدء امرها بصبغة دينية فكان سلمان الفارسي

---

(١) هكذا ورد الضمير في تعرفنا ولعل الرواية الصحيحة تعرفها جمالنا العلوفة .

يقول : اهل الكوفة اهل الله ؛ وهي قبة الاسلام يحن اليها كل مؤمن وكان علي يقول : الكوفة كنز الايمان وحجة الاسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث شاء والذي نفسي بيده لينصرن الله باهلها في شرق الارض وغربها كما انتصر بالحجاز .

وقال سفيان بن عيينة : خذوا المناسك عن اهل مكة وخذوا القراءة عن أهل المدينة وخذوا الحلال والحرام عن أهل الكوفة .

هذه صورة الكوفة التي عرضوها علينا ، ولكن سرعان ما عركت بالنوازل وركبت بالزلازل كما قال علي ، ولقد أشبه المتنبي امه الكوفة فما ظلم فما كان الا ابن النوازل ولا كان الا صنو الزلازل ، مارسته ومارسها ، وطاعنته وطاعنها فما هو ملها ولا هي ملته .

نعم هذا هو وصف الكوفة على قدر ما تيسر ، ولقد نشأ في الكوفة من الشعراء مطيع بن أياس وحماد عجرد وابو دلامة ودعبل الخزاعي وابو العتاهية وغيرهم حتى قال بعضهم : الشعر ميراث في الكوفة ، ولما استنفر علي اهل الكوفة لقتال اهل الشام ولم ينفروا معه خطب فيهم فقال : « اذا تركتكم عدتم الى مجالسكم حِلقاً عِزينَ تضربون الامثال وتناشدون الاشعار ، تربت ايديكم وقد نسيتم الحَرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها وشغلتموها بالاباطيل والاضاليل » . فالظاهر ان الشعر كان يجد في خد العذراء تربة صالحة وهواء صالحاً حتى زعم حماد ان النعمان بن المنذر امر فنسخت له اشعار العرب في الكراريس ثم دفنها في قصره الابيض بالكوفة فلما وثب المختار بن ابي عبيدة الثقفي بالكوفة سنة ٦٦ في سلطان ابن الزبير قيل له : ان تحت القصر كنزاً فاحتفره فاخرج تلك الاشعار قال : فمن ثم اهل الكوفة أعلم بالشعر من اهل البصرة .

وفي الكوفة نشأ أكابر النحاة : معاذ الهراء والكسائي والفراء وابن السكيت فكان الشذوذ من طبع الكوفيين .

وفي الكوفة نشأ أكابر علماء اللغة والادب كحماد الراوية والمفضل الضبي وابي عمرو الشيباني وابن الاعرابي وابن قتيبة وفيها نشأ كثير من الحفاظ .

من كل ما تقدم يتبين لكم ان الكوفة مدينة الشعر ومدينة النحو والشذوذ ومدينة اللغة ومدينة الدين . فقد ظهر فيها شيء من هذا كله وظهر على شيخنا ابي الطيب شيء من هذه الا ثار باجمعها فالشعر من طبع المتنبي والشذوذ من سجيته واللغة مختمرة فيه الا الدين فاني لا اجد في شعره نزعة اليه ، وانما لما اتصل بسيف الدولة ووصف غزواته في بلاد الروم وردت في شعره أبيات قلائل فيها شيء من النزعة الاسلامية اقتضتها طبيعة الحرب بين الروم والمسلمين .

ولست اعني بهذا ان الكوفة هي التي خلقت الشعر في طبع المتنبي او طبعته على الشذوذ ولو كان الامر كذلك لوجب ان يكون شعراء الكوفة كلهم مثل المتنبي وانما المتنبي مطبوع على الشعر ومطبوع على الشذوذ . واذا كان للبيئة اثر في المرء فقد يجوز ان يكون للكوفة بعض الاثر في نمو هذا الطبع وليس في هذا شيء من المبالغة على ان هذا المقام انما هو مقام الكلام على وصف الكوفة وطن ابي الطيب لا غير ، فلا أخرج عن هذا الكلام .

هذا آخر ما أحببت ان اذكره لكم مما يتعلق بالكوفة ، ولقد وددت لو ان لخد العذراء أثراً في شعر المتنبي أبلغ من الاثر الذي وجدته فليتني لم اعرف الكوفة الامن شعر ابي الطيب . واذا الشاعر لم يتغن بوطنه فمن الذي يتغنى به ؟ ان النفوس لتحركها محبة الالوان والاشكال أي أشكال هذا الوطن الكريم والوانه البراقة الوضاءة فمتى استطعنا ان نتغنى بجبالنا واوديتنا وبمروجنا وسهولنا ومتى استطعنا ان نتغنى بهذا النسيم العليل الذي نشقه آباؤنا وأجدادنا ، وبهذا الماء العذب الذي وردوا عليه وصدروا عنه وبهذه الغوطة الغناء مجلى الطبيعة ، ومغنى الانس عرفنا حينئذ قيمة الوطنية النقية الهادئة التي لا تقوى على قتلها العصور والاحقاب فما تكر عليها الايام الا ازدادت رسوخاً في القلوب وتمكناً من الصدور .

ان شيخنا ابا الطيب لم يبر وطنه المبرة التي نريدها في هذا العصر فكأن فكرة الوطن حديثة ؛ ولكنها غير حديثة الا ان شعراءنا لم يعالجوها في القديم معالجتنا لها في هذه الايام .

لم يترك المتنبي في شعره اثراً للكوفة . ولكنه تغنى ببعض منازل قريبة من وطنه فتارة كنت أجده شديد الحنين الى كندة محلته بالكوفة حتى جعل هذه المحلة بمنزلة والدته فقال لعلي بن ابراهيم التنوخي :

أمنسي السكون وحضرموتا ووالدتي وكندة والسبيعا

وتارة كنت اجده لا يوحشه وطنه اذا شطت به النوى فهو أفاق يضرب في البلاد مكتسباً فقد قال :

وما بلد الانسان غير الموافق ولا اهله الادنون غير الاصادق

نعم مرة كان يستوحش فيشتاق الى وطنه والى اهله من مصر :

بما التعلل لا اهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

❁ ❁ ❁

أحن الى أهلي وأهوى لقاءهم واين من المشتاق عنقاء مغرب

ومرة كان يستغني عن هذا الوطن فيطيب له المقام بكل ارض يأمل فيها ضيعة او ولاية ، فقد قال لكافور في مصر :

اذا لم تنط بي ضيعة او ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب

وقال له :

وكل امرئ يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

والخلاصة لم يتغن ابو الطيب بالتربة التي أنبتته وبالهواء الذي شمه وبالظلال التي أظلته واذا حن في بعض الاحيان الى شيء من هذا كله وذكر بعض أماكن قريبة من وطنه اختصر الكلام ولم يطوله :

وليلا توسدنا الثوية تحته كأن ثراها عنبر في المرافق

بلاد اذا زار الحسان بغيرها حصى تربها ثقبنه للمخانق

والثوية موضع على مقربة من الكوفة "١"

(١) قال ياقوت في معجمه : الثوية موضع قريب من الكوفة ، وقيل بالكوفة ، وقيل خربية الى جانب الحيرة على ساعة منها ذكر العلماء انها كانت سجناً للنعمان .

وكم دون الثوية من حزين   يقول له قدومي: ذا بذاكا

على ان المتنبي كان جوّاب آفاق قد دحا الارض فلم تشتد الفته لوطنه .

كأني دحوت الارض من خبرتي بها   كأن بنى الاسكندر السد من عزمي

فكان اذا نزل منزلا وكرمه اهل هذا المنزل وبجلوه ، استطابه فلم يحن الى ربعه ؟

١٨ كانون الثاني سنة ١٩٣٠

- بن المنذر كان يحبس بها من اراد قتله فكان يقال لمن حبس بها ثوى اي أقام فسميت الثوية بذلك ، وقال ابو حيان : دُفِن المغيرة بن شعبة بالكوفة بموضع يقال له الثوية ، وهناك دفن ابو موسى الاشعري في سنة خمسين

ولما مات زياد بن ابي سفيان دفن بالثوية

المحاضرة الحادية عشرة

نسب المتنبي

٣

اتصاله بقبائل اليمن – تأثير الدم – فخره بقومه –

فهم الناس لشعره – أهله

استوقفتكم وانا اطوف بكم في «خد العذراء» على الجانب الشرقي من هذا البلد الطيب ، مهبط الشعر والعبقرية ، وذكرت لكم ان اهل اليمن الذين نزلوا الكوفة في أول تمصيرها كانت خططهم ومنازلهم في هذا الجانب ، وهو خير الجانبين ، والمتنبي ولد في كندة وهي محلة في الكوفة ، فكأن اليمانيين الذين استوطنوا الكوفة ، احبوا ان يحيوا فيها اسماء بطونهم ، فسموا محلة كندة ، وكندة ابو حي من اليمن ، وسموا محلة ثانية السبيع ، والسبيع بن سبع ابو بطن من همدان ، وهمدان قبيلة باليمن ، وقد جاء ذكر المحلتين في شعر ابي الطيب ، ورويت لكم البيت الذي تضمنهما :

أمنسي السكون وحضرموتا   ووالدتي وكندة والسبيعا

فلننظر هل للمتني اتصال بهذه القبائل اليمانية وما هو نسب المتنبي .

لست ادري كيف يؤلفون في مثل هذا العصر ، عصر التنقيب والاستقصاء كتاباً يبحث بحذافيره عن حياة المتني وخلقه وشعره واسلوبه ، من دون ان يهتموا بالبحث عن اصل المتني ، سواء أكان هذا الاصل ظاهراً بعض الظهور ام كان خفياً بعض الخفاء ، لست ادري كيف يفهمون كلام الذي يقول :

وفؤادي من الملوك وان كان   لساني يرى من الشعراء

من دون ان يعتنوا بالسؤال عن آباء الذي يحمل هذا الفؤاد ، فاذا خفي علينا

اصل المتنبى ، خفي علينا ادراك روحه الذي يترقرق في شعره ، واذا نحن لم نفهم روح الشاعر فما الذي نفهمه من شعره .

اجمع الرواة على ان شيخنا ابا الطيب اسمه احمد ، وقد صرح باسمه في شعره :

تحمل المسك عن غدائرها الريح   وتفتر عن شنيب برود

جمعت بين جسم احمد والسقم   وبين الجفون والتسهيد

وأجمعوا على ان اباه اسمه الحسين ، فالمتنبي احمد بن الحسين ، ولكنهم اختلفوا في اسماء اجداده ، فقال بعضهم : هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد ، وقال آخرون : هو احمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار ، ولئن اضطربوا في اسماء اجداده فقد اطبقوا على ان ابا المتنبي جعفي . قال صاحب طبقات الادباء : وذكر القاضي ابو الحسن بن ام شيبان الهاشمي الكوفي ان عيدان كان جعفياً صحيح النسب . وعيدان السقاء لقب والد المتنبي ، فقد هدأ بالنا من ناحية نسب ابيه فلننظر اليه من ناحية نسب امه فلنستعن بطبقات الادباء فقد جاء فيه :

قال ابو الحسن وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا اشك فيها وكانت جارتنا وكانت من صلحاء النساء الكوفيات ، من هنا يتبين لكم ان والد المتنبي جعفي وان جدته همدانية ، فانكشفت لنا ناحية من نسبه نستطيع الاستعانة بها فللمتنبي أصل من الاصول فلندقق هذا الاصل على قدر الامكان .

قلت نزل الكوفة في اول امرها جماعة من أهل اليمن ومن هذه الجماعة همدان ومذحج ، وبهمدان ومذحج استعان زياد وهو امير البصرة والكوفة على القبض على حجر بن عدي صاحب فتنة الكوفة في ايامه وعلى شباب همدان ومذحج في الكوفة كان يثني زياد فاذا علمتم ان بين السنة التي مصّرت فيها الكوفة وهي سنة ١٧ وبين السنة التي ولد فيها المتنبي وهي سنة ٣٠٣ ثلاثة قرون على التقريب واذا احطتم من جهة ثانية باسماء ثلاثة من اجداد المتنبي تحقق عندكم ان اصل المتنبي من هذه القبائل اليمانية التي رمت اظلالها على الكوفة في اول بنائها . والد المتنبي جعفي وجدته همدانية فالمتنبي يماني الاصل من الناحيتين من .

ناحية ابيه ومن ناحية امه وفي فضائل بيوتات اليمن يقول عبد الله بن عباس لبعض اليمانية لكم من السماء نجمها ومن الكعبة ركنها ومن الشرف صميمه .

فلننظر الى المتنبي من ناحية ابيه . كان الحسين جعفياً صحيح النسب وجعفي على وزن كرسي من بطون سعد العشيرة و انما سمي سعد العشيرة لانه لم يمت حتى ركب معه من ولده وولد ولده ثلثمائة رجل وسعد العشيرة من قبائل مذحج وببيان مذحج اقر ابو عبيدة فقال : ولسان العرب مذحج .

ولننظر اليه من ناحية جدته . كانت جدته همدانية صحيحة النسب ، و بفروسية همدان اعترف ابن الكلبي فقال : وهمدان احلاس وفي همدان الخيل يقول الشاعر :

ناديت همدان والابواب مغلقة ومثل همدان سنّى فتحة الباب

كالهندواني لم تفلل مضاربه وجه جميل وقلب غير وجاب

وفيهم يقول علي :

فلو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

ومن همدان اعشى همدان وهو شاعر كوفي من شعراء الدولة الاموية وكان النعمان بن بشير عامل حمص يقول فيه : هذا شاعر اليمن ولسانها . —

فالفروسية والصلاح من جملة اخلاق القبائل التي ينتسب اليها المتنبي والبيان في هذه القبائل .

اذا أحطنا بهذا كله هان علينا ان نفهم كلام الذي يقول — و فؤادي من الملوك فان الذي ينتسب الى قبائل فيها شيء لا بل اشياء من الفروسية والصلاح وان الذي ينتسب الى جدة صالحة موصوفة بالحزم لا يستغرب فخره ان فخر .

نعم اذا احطنا بهذا كله هان علينا ان ندرك روح المتنبي واسرار خلقه في الآتي وليس من الضروري ان تكون جدة المتنبي صالحة او ان يكون جده او خاله او عمه من الفرسان ، حتى يتوارث المتنبي عنهم الصفات وانما يكفي ابا الطيب ان يكون احد أهل بيته في القديم قد جمع شيئاً من هذه الصفات حتى ينتقل اليه هذا الشيء على سبيل الميراث فالمرء يتوارث محاسن الصفات ومقابحها

عن أهله في قربهم منه وبعدهم عنه فقد يتوارث عن أبيه أو خاله أو عمه وما بينه وبين واحد منهم الا قليل من الزمن وقد يتوارث عن أحد أقاربه في قديم الدهر مهما كان مدى الايام بينه وبين هؤلاء الاقارب متراخياً ، فالعرق نزاع .

قرأت مقالا في مجلة باريز لعالم من العلماء خلاصتها اننا لو حوّطنا في هذه الايام بلاد الترك بعد ان تغيرت سحناتهم القديمة ومنعنا الامم عن مخالطتهم وحصر الترك في بلادهم فلم يصهروا الى أحد من غيرهم ولم يصهر غيرهم الى احد منهم ودام هذا الحصر الف سنة لرجعت هيآتهم بعد الف سنة الى هيآت الترك القدماء المعروفين بلونهم الخاص وبتركيبهم الخاص وبصفاتهم الخاصة .

من هذا يسهل عليكم ان تعتقدوا ان المتني انتقلت اليه صفاته التي سوف تنكشف لكم في كلامي على اخلاقه من احد اقاربه في الحديث او في القديم ولا عجب في هذا مادام ابوه جعفيا وما دامت جدته همدانية وفي جعفي وفي همدان صفات تشبه صفات ابي الطيب .

***

للدم تأثير في العبقريات واظن انكم لاتزالون تذكرون مذهب (تين) في النقد فقد اراد (تين) ان يجعل للجنس وللبيئة وللزمن تأثيراً في القرائح والامزجة فمن البشر على ما يقول من يجمع صفات الشجاعة والفطنة ومنهم من يعرف بالبلاهة وقصر المدارك ومنهم من يعلو في التصورات والمخترعات ومنهم من يسفّ ومنهم من يختص بطائفة من الاعمال وتقوى فيهم طائفة من الغرائز كما ان من الكلاب ما يصلح للعدو والركض ومنها مايصلح للصيد ومنها ما يصلح لحراسة الدور والمواشي .

وقد ذكرت لكم ان (تين) قد ادخل عناصر حديثة في دراسة الاثار الادبية الا ان مذهبه لايخلو من شيء من الافراط ، وقد اشار الاستاذ (برونتير) في اثناء كلامه على هذا المذهب الى ناحية الافراط ففي نظر (تين) ان بعض أجناس البشر يصلحون لشيء لا يصلح له اجناس غيرهم فقال (برونتير) لو صح هذا النظر على الاطلاق لامتنع علم ما وراء الطبيعة في الشعوب السامية مثلا لان هذا العلم

مشهور في الشعوب الآرية في الهند وعلى الرغم من هذه الشهرة فقد كان اكبر عالم في علم ما وراء الطبيعة في العالم كله رجلا سامياً من بلاد البرتغال وهو سبينوزا .

ولئن كان مذهب (تين) فيه شيء من الافراط فهو لا يخلو من شيء من الحقائق . فان للدم تاثيراً في العبقريات . فقد تشتهر أجناس من البشر بامور لا يشتهر بها غيرها . وقد تعرف قبائل باشياء لا يعرف بها غيرها . كانوا يقولون مثلا : جرأة بني الحرث . فتك مراد . بأس زبيد . كيد جعفي . مغار طيء الى غير ذلك . وقد يتوارث أواخر القبيلة المحاسن والمساوىء عن أوائلها . فالمتنبيء انتقلت اليه صفاته من احد أقاربه في جعفي او في همدان على سبيل الارث . ولا يمكن ان يجمع المتنبي صفاته المعروفة من دون ان تكون مجموعة في أحد أقاربه . من كل ما تقدم استخلص ان ابا الطيب وقد صح نسبه في جعفي وفي همدان ولد وفي طبعه اشياء متوارثة عن أهله في هاتين القبيلتين . فهو لم تحدثه نفسه بهذه الاماني البعيدة من دون ان يكون منتسباً الى اهل قد حدثتهم انفسهم بمثل هذه الاماني . واذا لم نشأ ان نفهم هذا كله فكأننا لا نشأ ان نفهم روح أبي الطيب .

فالشيخ ابو الطيب يماني الاصل من ناحية أبيه ، ومن ناحية أمه فهو عريق في يمانيته . وفي عروبيته . وسأتكلم في الاسبوع الاتي بكلام على تغنيه بعروبيته . ومن الغريب ان المتقدمين من المؤلفين وفي جملتهم ابن خلكان وصاحب طبقات الادباء والثعالبي وصاحب الصبح المنبيء اقتصروا في كلامهم على ابي الطيب على ان قالوا في أبيه انه جعفي ، وفي جدته انها همدانية من دون ان يبحثوا عن أسرار هذه الصفات التي اجتمعت فيه . ومنهم من لم يشر الى أصله ، وأغرب من هذا كله ان صاحب كتاب ابي الطيب المتنبيء الذي نشر كتابه في مصر من تسع سنين ، قد انبت ابا الطيب في اسوإ المنابت ، ورده الى ارذل الاصول ، ولم يكتف بهذا كله فذهب مذهباً ابعد ، فقد ذهب الى ان ابا الطيب نفسه كان يعترف في بعض شعره بوضاعة نسبه وانحطاط اصله ومن هذا الشعر قوله في رثاء جدته :

ولو لم تكوني بنت أكرم والد   لكان اباك الضخم كونك لي أما

فظن ان ابا الطيب ينفي عن جدته كرم والدها ، وعجيب طراز هذا الفهم ، فابو الطيب يقول لجدته في هذا البيت : لو لم يأتك الكرم من نواحي ابيك لاتاك من ناحيتي ، فكأنه يقول : انت بنت اكرم والد ، وانت أم اكرم ولد ، فقد جمعت اليك الكرم من ناحية ابيك ومن ناحية ابنك ، ولعمري كيف ينفي الكرم عن قومه من يقول في القصيدة نفسها :

واني لمن قوم كأن نفوسهم   بها أنف ان تسكن اللحم والعظما

فاذا كان القوم الذين تأنف نفوسهم ان تسكن اللحم والعظم لا يملكون من كرم الاعراق شيئاً فمن الذي يملك هذا الكرم ؟ أفيملكه اللاصقون بلحومهم اللازقون بعظامهم الذين لم يحلقوا في جوٍ اعلى من جو الحيوانية .

وكما انه أساء الى ابي الطيب في فهم هذا البيت فقد أساء اليه في فهم ابيات غيره من جملتها قوله :

ولست بقانع من كل فضل   بان أعزى الى جد همام

فظن انابا الطيب ينفي عن جده عظيم همته والمتنبي يقول ولايحتاج قوله الى دليل : لست اقنع من الفضل بان اكون منسوباً الى جد عظيم الهمة وانما أمنيتي ان اجمع شيئاً من الفضل بنفسي فابو الطيب يعتقد انه فاضل وابن فاضل .

من جملة هذه الابيات التي ساء فهمهم لها قوله :

فخر الفتى بالنفس والافعال   من قبله بالعم والاخوال

او قوله لباحث عنه :

انا ابن من بعضه يفوق ابا   الباحث والنجل بعض من نجله

انما يذكر الجدود لهم   من نفروه وانفدوا حيله

فلا يستنبط من هذا ان المتنبي لا يفخر بعمومته وخؤولته وانما المتنبيء يرجع في هذه الابيات الى شنشنته ، فهو يرى ان الفخر بالنفس وبالفعل أعظم من الفخر بالعم وبالخال وهذا لا ينفي عن ابي الطيب فخره بالعمومه والخؤولة وانما

المتنبىء يريد ان يجمع الى تالد الفخر طريفه وهذا أبعد مجالات الهمة .

ولما قال :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضاد وعوذ الجاني وغوث الطريد

لما قال هذا ظنوا انه يعتقد ان قومه لا شرف لهم وانما الذي عناه بقوله هذا ان قومه شرفاء وانهم فخر العرب كلها ولكنه اشرف من قومه .

ما رميت في كلامي هذا الى الدفاع عن منبت المتنبي وعن اخلاقه وانما اردت ان انبه على خطإ وقعوا فيه مما يتعلق بفهم شعر المتنبي وما اظن انهم انبتوا ابا الطيب هذا المنبت الا لان والده كان سقاء في الكوفة حتى قالوا :

اي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء وحيناً يبيع ماء المحيا

فلو كان الحسين الجعفي من اصحاب النعم أفكان الناس ينظرون الى المتنبي وابوه غني نظرهم اليه وابوه سقاء ، فالمال وحده هو الذي حرّف الانظار ، ومتى كان المال مقياس الاصول وكرم الاعراق ، أفلا نجد في أيامنا من ابناء سلاطين آل عثمان ومن حاشية قياصرة الروس الذين شتتت السياسات شملهم في البلاد من يشتغل باحقر الصناعات حتى لا يموت من الجوع ، افلا نجد من أصحاب النعم رجالا لايعلم الا الله مقادير أخلاقهم الفاسدة . انا لا أريد ان أقول إن المتني نشأ الملك في بيته قديماً ولكني لا اعتقد انه وضيع ولا أريد أن أعتقد انه كان يعترف بوضاعته .

أما وقد فرغت من الكلام على أبي الطيب . فلننظر الى أهله في عصره وايامه فقد أشار في شعره الى أمه والى جدته .

أما جدته فقد كان غائباً عنها في أقطار الشام ، وطالت غيبته هذه ، وقد أرسلت اليه كتاباً تشكو فيه شوقها اليه وطول غيبته عنها . فتوجه نحو العراق ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك ، فانحدر الى بغداد وكانت جدته قد يئست

منه ، فكتب اليها كتابا يسألها ان تسير اليه فقبّلت كتابه وحمّت لوقتها سروراً به وغلب الفرح على قلبها فقتلها فرثاها بقصيدة ملأها من رقة العاطفة وصدقها سأتكلم عليها في أثناء كلامي على شعره وفي هذه القصيدة أبيات تدل على شدة محبة جدته إياه . وعلى شدة محبتها إياها فمن قوله في حبها اياه :

لك الله من مفجوعة بحبيبها   قتيلة شوق غير ملحقها وصما

ومن قوله في حبه إياها :

أحن الى الكأس التي شربت بها   وأهوى لمثواها التراب وماضما

ولا يبعد ان جدته كانت تقرأ فكانت تتعجب من خط كتابه اليها ومن لفظه :

تعجب من خطي ولفظي كأنها   ترى بحروف السطر أغربة عصما

وتلثمه حتى أصار مداده   محاجر عينيها وانيابها سحما

وقد وصفها بالحزم فقال :

فوا أسفا الا اكب مقبلا   لرأسك والصدر اللذي ملئا حزما

واني اعتقد ان ابا الطيب قد توارث عن جدته هذه بعض صفاتها ومن جملتها هذا الحزم .

واما أمه فلما اعتقل وطال اعتقاله كتب الى الوالي أبياتاً أشار فيها اليها :

بيدي أيها الامير الاريب   لا لشيء الا لاني غريب

أو لأم لها اذا ذكرتني   دم قلب في دمع عين يذوب

وفي هذا البيت عاطفة الأمومة والبنوة ولما كان في ارجان عند ابن العميد عمل شعراً في ابن العميد قال له في جملته :

يا ليت باكية شجاني دمعها   نظرت اليك كما نظرت فتعذرا

ولكننا لانعرف هذه الباكية التي بكت على فراق ابي الطيب وأحزنه دمعها .

وكان له ولد اسمه محسد صحبه الى بلاد فارس ويظهر ان محسداً كان شاعراً نقل صاحب الصبح المنبيء عن ياقوت ان المتنبي كان جالساً بواسط فدخل عليه رجل وقال : نريد ان تجيز لنا قول الشاعر :

زارنا في الظلام يطلب سترا فافتضحنا بنوره في الظلام

فرفع ابو الطيب رأسه وكان محسد واقفاً بين يديه وقال :

يا محسد قد جاءك بالشمال فأته باليمين فقال محسد ارتجالا :

فالتجأنا الى حنادس شعر سترتنا عن أعين اللوام

وقد قرأ الشيخ اليازجي انه وجدت له في احدى نسخ الديوان ابيات بعد فراره من مصر يظهر فيها شوقه الى ابنه محمد والى شيخ يقال له الحسين، من هذه الابيات :

لو لا محمد بل لو لا الحسين لما رأيت رأيي بوهن العزم مختلطا

هذا هواي وذا ابني خط مسكن ذا بمصر والشام القى دائماً خططا

والابيات كلها ثمانية وفيها اشارة الى هرب ابي الطيب من مصر ولكنها لا تخلو من تحريف اذا صحت أما محمد الوارد اسمه فيها فقد يجوز ان يكون محرفا عن محسد واما الحسين فقد يجوز ان يكون شيخاً له وعلى كل الرواية غامضة .

هذا كل ما حققته من نسب المتنبي ومن اهله في عصره وايامه ، واما ما يتعلق بزوجته وبقية اهله فهو خاف علينا . وقد وردت في شعره أبيات تدل على اهتمامه بأهله وعطفه على عياله وقلقه اليهم اذا بعدت الدار وشط المزار ، من هذه الأبيات ما جاء في إحدى اماديحه في سيف الدولة :

ان الذي خلفت خلفي ضائع مالي على قلقي اليه خيار

واذا صحبتَ فكل ماء مشرب لو لا العيال وكل ارض دار

إذنُ الأمير بأن اعود اليهم صلة تسير بذكرها الاشعار

٢٥ كانون الثاني سنة ١٩٣٠

عروبة المتنبي

الفتى العربي

٤

حرص العرب على قوميتهم — اختلاط العرب بالاعاجم — تشتت العرب

« تغني الشعراء بالقومية العربية »

أرأيتم كيف كان اليمانيون وهم في أرض غير أرضهم ، وتحت سماء غير سمائهم يلهجون بذكر بطونهم و احيائهم ، وقد تقاذفت بهم وهاد وتلاع ، وشطت بهم غربة نازحة ، أرأيتم كيف كانوا يحنون الى قبيلهم وعشيرهم ، فما يسمون منازلهم في خد العذراء الا كندة والا السبيع ؛ أرأيتم كيف كان اهل البدو يعتصمون بالعروة الوثقى من قوميتهم وتطرب السنتهم بذكرياتهم ، وهل القومية الا الحرص على الذكريات ، هل القومية الا التغني باصحاب هذه الذكريات .

قال المؤرخ الايطالي (فوررو Ferrero) اصبح احتفال الامم بعد تعاقب مائة عام على وفاة الفضلاء من رجالها عقيدة قومية في كل الامصار ، وهذا مما جاء به القرن التاسع عشر .

و الى هذا رمى « اوغوست كونت » لما اراد ان يجعل عبادة عظماء الرجال بمنزلة عقيدة من عقائد البشر .

فالمعتقد الذي يذهب اليه الافرنجة في عصرنا هذا ذهب اليه العرب في قديم الدهر ولئن ملأ مذهب القوميات القرن التاسع عشر على ماقال الاستاذ « سورل » فان هذا المذهب قد ملأ تاريخ العرب من قبل ان يخلق القرن التاسع عشر .

لقد كان العرب يحرصون على قوميتهم وهل القومية الا اتصال رجال الأمة بعضهم ببعض ، امواتهم بأحيائهم ، وحاضرهم بغابرهم ولم لايحرصون هذا الحرص وقد كانوا أمة على معنى المصطلح الاجتماعي في عصرنا هذا ، ينتسبون الى اصل واحد وقد تقاربت اخلافهم وطبائعهم ، وتشابهت هيآتهم وسحناتهم ، وتماثل تاريخهم وسياستهم ، وجمعتهم ارض واحدة ، و اظلتهم سماء و احدة ، وهل الامة الا واحدة في جنسها وبيئتها و لغتها و دينها وحكومتها وارضها ، على اننا نرى في ايامنا امماً من اجناس مختلفين ، يتكلمون بلغات مختلفة ويدخلون في أديان مختلفة ؛ اننا نرى شعوبا يجمعهم نظام قومي محكم وهم مبعثرون في نواحي العالم كله . كاليهود مثلا ، اننا نرى شعوبا يتكلمون بلغة واحدة ولا ينتسبون الى امة واحدة كالانكليز واميركان الشمال ، وكسكان اسبانية وجمهوريات اميركة الجنوبية ، وكسكان البرتغال والبرازيل ، وكسكان فرانسة وبلجيكة الشرقية ، وكسكان المانية وسويسرة الشرقية ، اننا نرى امماً من اجناس مختلفين ؛ كالروس ، او كاهل الولايات المتحدة ، حيث نشاهد الابيض والاسود والاحمر . اننا نرى أمماً فيها مذاهب شتى واديان متباينة »(١)

عاملان من العوامل ينشئان الامة : اشتراك الامة في ميراث ملآن من الذكريات واجتماع كلمة هذه الامة على احياء ميراثها المشترك ، فالعرب في قديم الدهر قد تناولت ميراثاً خصيباً بذكرياته وتضافرت على احياء هذا الميراث فعاشت به زمناً رغداً يتغنى العربي بعروبيته . ويفخر بقوميته ، فهو صاحب الامر النافذ في دياره يتصرف في ملكه لا يشاركه رومي او تركي او فارسي او ديلمي في سلطانه ، العربية لسانه والعمائم تيجانه والمشرفية سيوفه والخطية رماحه ، نعم عاش العرب في صدر الاسلام بهذا الميراث الخصيب :

« يتبخترون على شباب الدهر في ظل السرير »

ولكن سرعان ما حالت احوال وحدثت حوادث وما هو الا كرد النفَس واذا

(١) دائرة المعارف الفرنسية : بحث القوميات .

القيسية واليمانية ، واذا الفتن والشغاب ، واذا الفرس والترك والديلم واذا التطاول لانتزاع الملك والسلطان ، واذا الفرقة بعد الالفة . واذ الطولونية والاخشيدية والحمدانية والفاطمية والسلجوقية ، ذهبت وحدة العرب أو كادت ، وطلعت الشعوبية في البلاد فلا عز ولا منعة ولا حكمة السن ولا شدة عقول :

فلست بتارك إيوان كسرى لتوضح او لحومل فالدخول
وضب في الفلا ساع وذئب بها يعوي وليث وسط غيل

هذه هي نغمات الشعوبية بعد ان كان السلطان عربياً واللسان مضرياً . والوشي يمانياً ، ازدحم الاعاجم في البلاد وأخذ عمال الخلافة العباسية ينفصلون عن بغداد وينفردون بامور الملك والسلطان ، قال غستاف لوبون :

« من جملة الاسباب في ضعف العرب اختلاف الامم الذين خضعوا لسلطانهم فقد أدى هذا الاختلاف الى تمازج شعوب لا يشبه بعضهم بعضاً والى تنازع هذه الشعوب ونشأ عن هذا كله تزاوج عناصر متباينة ، فافسد هذا التزاوج دم الفاتحين من العرب ، لقد كان تمازج الشعوب المتباينة في بلاد واحدة سبباً في انقراض هذه البلاد في كل عصر من العصور واثبت التاريخ ان لا سبيل الى ابقاء اجناس مختلفين في قبضة واحدة الا بامرين ، اما ان يشتد سلطان الفاتحين فلا تخرج الخوارج عليهم وأما ان لا يتزوج الغالب الى نساء المغلوب اي ان لا يندمج الغالب في المغلوب وهذا الامر الثاني لم يحذره العرب » —.

نعم لم يحذر العرب هذه الامور كلها حتى اختلطوا بالاعاجم فتفرقت كلمة العرب وضعف تغني القوم بعروبيتهم .

فلننظر في هذه الحالة الاليمة هل حافظ المتنبي على عروبيته ، أفكان يضطرب في هذه العروبية اضطرابه في حنينه الى وطنه ، أفكان يتغنى بها مرة ، ويعقها مرة ، كما كان يحن حيناً الى كندة ، وحيناً يرى ان كل مكان ينبت العز طيب ، فلننظر هل اشتدت ألفة المتنبي ليمانيته وعروبيته في جمع اطوار حياته .

لئن كان أبو الطيب قلقاً في تغنيه بتربته كريشة في مهب الريح ، لئن عطف

حيناً على وطنه وعقه حيناً آخر ، فما كان قلقاً في تغنيه بعروبيته ، لم يعقها في يوم من أيامه ولا حدثته نفسه بالانسلاخ عنها في حال من أحواله ، ولئن لم تشتد الفة ابي الطيب لتربته فقد اشتدت الفته ليمانيته وعروبيته فهذه العروبية ممزوجة بنفسه موصولة بروحه من أول حياته الى آخرها .

المتنبي عريق في يمانيته ، شديد الحرص عليها وهل هو الا من جعفي وهمدان وكأني به وهو يقول في صباه على لسان بعض التنوخيين :

ومجدي يدل بني خندف   على أن كل كريم يمان

كأني به يريد نفسه بهذه اليمانية ولكن أبا الطيب لم يقبع في عقر يمانيته فقد طار في فضاء أوسع وحلق في سماء امدّ ؛ فانسلخ عن اليمانية واندمج في العروبية يفاخر بكل شيء عربي يفاخر بلسان العرب وبتيجان العرب وبسيوف العرب وسواء أكان ابو الطيب رقيق الحال ام كان واسع النعمة وسواء اكان في بلاد العرب ام كان في بلاد العجم انه حافظ على هذا الدم العربي وتعلق باهداب هذه القومية العربية فلم يرض بغيرها ديناً ولم يبغ عنها حولا .

وما قولكم في شاعر يمر بشعب بوان بأرض فارس وهو احد متنزهات الدنيا مشهور بحسنه وكثرة شجره وتدفق أمواهه وكثرة انواع طيره .

اذا أشرف المحزون من رأس تلعة   على شعب بوان استراح من الكرب

تغنى به الكتاب والشعراء فوصفوا فيه جداول ماء أرق من دموع العشاق وأبرد من ثغور الاحباب ، ووصفوا ترقرق آذيها وتدفق تيارها وتكسر حبابها في خلال زهر ورياض ، ووصفوا ظلها الخضل الألمى ، ما قولكم في شاعر يصف هذا المتنزه ويقول فيه :

ملاعب جنة لو سار فيها   سليمان لسار بترجمان
طبت فرساننا والخيل حتى   خشيت وان كرُمنَ من الحران
غدونا تنفض الاغصان فيها   على اعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الحر عني   وجئن من الضياء بما كفاني

والقى الشرق منها في ثيابي   دنانيراً تفر من البنان
لها ثمر تشـــير اليه منه   باشربة وقفن بلا أوان
وأمواه تصلّ بها حصاها   صليل الحلي في ايدي الغواني

ما قولكم في شاعر يرى هذه العجائب والغرائب فلم تستول على قلبه ولم تأخذ من نفسه لانه تذكر وهو في شعب بوان انه عربي بين عجم فتأوه وقال :

ولكن الفتى العربي فيها   غريب الوجه واليد واللسان

وما هذا الفتى العربي الا أبو الطيب نفسه .

وحن الى منازل دمشق العربية وقال :

منازل لم يزل منها خيال   يشيعني الى النوبنذجان
اذا غنى الحمام الورق فيها   اجابته اغاني القيان
ومن بالشعب أحوج من حمام   اذا غنى وناح الى البيان

* * *

من هذا يتبين لكم مقدار احتفاظ المتنبيء بعروبيته وهو في آخر مدى حياته قد وقف على الخمسين أو جاوزها ولم يكتف بهذا المقدار فذهب في هذه النزعة القومية مذهباً أبعد ، فهو لا يريد أن يرى الا ملكاً عربياً ، ولا يعتقد ان العرب تنجح اذا كانت ملوكها من العجم لان العجم ينقضون العهود ولا يخفرون الذمم

وانما الناس بالملوك وما   تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب   ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم   ترعى بعبد كأنهـــا غنم
يستخشن الخز حين يلمسه   وكان يبرى بظفره القلم

وما هؤلاء العبيد الا عبيد الخلفاء من الاتراك الذين يأمرون على الناس . فالمتنبي يرى بين قومه وبين الاعاجم من ترامي المسافات مالا يمكن تقريبه فهم متباينون في اللغة والذكريات فليس لهم ماض مشترك يؤلف بين قلوبهم . ليس لهم ذكريات واحدة . وأدب واحد ، وأخلاق واحدة . وتربة واحدة . فالتنافر

مستحكم بينهم من كل النواحي . —

فالمتنبي عربي في سلطانه . وقد حملته عروبيته هذه في بعض الاحايين على إيلام الاعاجم فانه لما قدم من الرملة يريد انطاكية مر بابن كيغلغ وهو رجل رومي كان يحافظ على الطريق في طرابلس . فسأله هذا الرومي أن يمدحه فترفع أبو الطيب عن مدحه . فاعتاقه ابن كيغلغ عن سفره ثلاثة ايام . فلما فارقه المتنبيء قال فيه قصيدته المشهورة : لهوى النفوس سريرة لا تعلم . من جملتها هذا البيت :

أفعال من تلد الكرام كريمة   وفعال من تلد الاعاجم أعجم

أنظروا كيف كان ابو الطيب يتجرد للمراماة دون حياض العرب . فقد كان يباهر بكل شيء عربي . يباهر بلسان العرب وبتيجان العرب وبسيوف العرب . وصحبته هذه العاطفة الشريفة حتى آخر نفس من أنفاسه الذكية . لما مدح ابن العميد في أرض فارس وهناه بالنيروز مدح فيه عروبية اللسان قبل كل شيء فقال :

عربي لسانه فلسفي   رأيه فارسية اعياده

ولما انصرف سيف الدولة من الظفر بحصن برزويه وعاد الى انطاكية جلس في فازة من الديباج عليها صورة ملك الروم وصور وحش وحيوان . افتظنون أن أبا الطيب فضل تيجان الروم على عمائم العرب كلا ثم كلا . فقد قال لسيف الدولة

وفي صورة الرومي ذي التاج ذلة   لابلج لا تيجان الا عمائمه

تقبّل افواه الملوك بساطه   ويكبر عنها كمه وبراجمه

نعم كان يفاخر بكل شيء عربي (انظروا الى مفاخرته بسيوف العرب قال يمدح سيف الدولة ويذكر بناءه مرعش :

تهاب سيوف الهند وهي حدائد   فكيف اذا كانت نزارية عربا

* * *

وكأن هذه النزعة القومية كانت نزعة طائفة من شعراء تلك الايام على ان الحرب التي كانت تدور بين المسلمين والروم قد صبغت بصبغة دينية فكان ملك الروم اذا غزا بلاد المسلمين يجهز رجاله بالصليب الاحمر وقد كان شعراء العرب يومئذ

يذهبون في شعرهم بعض مذاهب اسلامية مجاراة لطبيعة الحرب بين الروم والمسلمين قال أبو الطيب لسيف الدولة

خضعت لمنصلك المناصل عنوة — وأذل دينك سائر الاديان

ولكنهم مع هذا كله قد خرجوا من أفق الدين الى أفق أوسع وأعم ، فلم يقتصر ابو الطيب في مدائحه في سيف الدولة على الاشارة الى نصرة الاسلام في حرب الروم ولكنه كان يرمي مرمى عربياً أبعد افقاً فمن قوله في سيف الدولة :

رفعت بك العرب العماد وصيرت — قمم الملوك مواقد النيران

أنساب فخرهم اليك وانما — انساب أصلهم الى عدنان

فقال: رفعت بك العرب ولم يقل رفع بك الدين .

نعم كانت هذه اللهجة لهجة كثير من شعراء تلك الايام ، لما بنى سيف الدولة قلعة الحدث وقد جمع ملك الروم أكابر مملكته وجهزهم بالصليب الاحمر هنأه كثير من الشعراء من جملتهم السري الذي قال في بناء الحدث:

رفعت بالحدث الحصن الذي خفضت — منه الحوادث حتى ذل صاحبه

أعدته عدويا في مناسبه — من بعدما كان رومياً مناسبه

وكتب ابو فراس الى سيف الدولة وهو في الاسر ابياتاً من جملتها :

وانك لي الجبل المشمخر — بل لقومك بل للعرب

ومن قول أبي نصر بن نباتة في سيف الدولة :

حاشاك ان يدعيك العرب واحدها — يا من ثرى قدميه طينة العرب

وما اكرم هذه الصرخة التي صرخها أبو فراس على لسان نساء بني كلاب وذلك ان سيف الدولة اصطنع بني كلاب وأدناهم وآمن سربهم فقهروا العرب وعلت كلمتهم الى ان بدت منهم هفوة احفظت سيف الدولة فاسرى اليهم وأوقع بهم وملك حرمهم واموالهم ثم صفح عنهم وكرم وجمع الحرم وو كل بهن الخدم وحملهن وافضل عليهن واحسن اليهن فكتب اليه أبو فراس في تلك الحال قصيدة يقول فيها :

ينادين بين خلال البيوت لا يقطع الله أصل العرب

وفي هذه الوقعة يقول ابو الطيب :

وان يك سيف دولة غير قيس فمنه جلود قيس والثياب
وتحت ربابه نبتوا واثوا وفي أيامه كثروا وطابوا
وتحت لوائه ضربوا الاعادي وذل لهم من العرب الصعاب

* * * *

هكذا كان تغني الشعراء بالقومية حتى أن ابا تمام لما قال قصيدته الخالدة في مدح المعتصم وذكر فتح عمورية نزع في شعره نزعة اسلامية ولكنه لم يسعه في آخر القصيدة الا التغني بالعروبية فقال :

ان كان بين صروف الدهر من رحم موصولة أو زمام غير منقضب
فبين ايامك اللاتي نصرت بها وبين ايام بدر أقرب النسب
أبقت بني الاصفر المصفر كاسمهم صفر الوجوه وجلّت أوجه العرب

فانتم تجدون في هذا كله ان كلمة العرب كانت تجري على ألسن الشعراء في ذاك العصر حتى في الحروب الدينية وفي هذا اشارة الى نزعة قومية لا يخفى أمرها .

* * * *

هذا ما عنّ لي من الكلام على عروبية المتنبيء ولِمَ لا يتغنى ابو الطيب بعروبيته ، وقد جاءته هذه العروبية من ناحية أبيه ومن ناحية أمه فاختمرت في صدره فلم تفارقه في طور من أطوار حياته ، واذا كان شاعر مثل المتنبيء لم ينزع في شعره نزعة قومية فمن الذي يذهب هذا المذهب ، فاللسان العربي الذي لهج أبو الطيب بمحبته عامل من اقوى عوامل القومية . ولئن وجدنا شعوباً يتكلمون بلغات واحدة ولا ينتسبون الى أمة واحدة فلا يستنبط من هذا ان اللغة الواحدة لا تكون عنصراً من عناصر القومية فاللغة انما هي أشد الاواصر بين حاضر الامة وماضيها ، وبين أحيائها وموتاها . فيها كل شيء يربطنا بالماضي ، فيها افراح العرب وآلامهم وفيها أفكارهم وعواطفهم ، انها تضمنت ميراثنا الادبي

الذي تعب آباؤنا وأجدادنا في صقل جوانبه وتهذيب حواشيه ولا تكون الامة أمة على مصطلح هذا العصر الا اذا تضافرت رجالها على الاعتناء بهذا الميراث هذا ما رمى اليه ابو الطيب في الماضي وهذا ما نرمي اليه في الحاضر والآتي ؟

١ شباط سنة ١٩٣٠

هل كان المتنبي شعوبيا

٥

نفيهم عنه التعصب لوطنه – نفيهم عنه التعصب لقومه

« نقد الشاعر من ناحية واحدة »

هيأت الكلام على ابتداء أمر المتنبي، وعلى أول تربيته وثقافته، وعلى رقة حاله جملة أخباره، ووصف طبائعه وأعددته لأحاضر به في هذا اليوم الا ان المقام اقتضى أن أعود على ما بدأت به من الكلام على تعصب المتنبي للعرب والعروبية، وعلى حنينه الى وطنه واضطرابه في هذا الحنين لاني وجدت بعض المؤلفين في هذا العصر ممن عملوا كتابا على حدة في أبي الطيب المتنبي، ينفون عن أبي الطيب تعصبه لقومه، وتعصبه لبلد، ملقين الكلام على عواهنه دون شيء من التمحيص. أما نفيهم عنه التعصب للوطن، فقد استندوا فيه الى طائفة من الابيات التي رويتها لكم وأشرت فيها الى اضطراب المتنبي في حنينه الى تربته منها:

وما بلد الانسان غير الموافق ولا أهله الادنون غير الاصادق

ومنها:

وكل امرىء يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

وأضافوا اليها ابياتاً غيرها من جملتها:

غني عن الاوطان لا يستحفني الى بلد سافرت عنه اياب

ومنها:

في سعة الخافقين مضطرب وفي بلاد من أختها بدل

على ان البيت الذي جاء قبل هذا البيت وهو:

اذا صديق نكرت جانبه لم تعيني في فراقه الحيل

يدل على أن أبا الطيب اذا حدثته نفسه بالاضطراب في سعة الخافقين فانما ذهب هذا المذهب لانكاره جانب الصديق ولم يذهبه لانكاره جانب الوطن نفسه .

ذكروا هذه الابيات كلها ، وقارنوا بينها وبين الابيات الآتية التي يقولها اصحابها في حنينهم الى بلادهم والى قومهم :

بلادي وان جارت عليّ عزيزة   وقومي وان ضنوا عليّ كرام

أو كقول المعري :

فلا هطلت علي ولا بارض   سحائب ليس تنتظم البلادا

فحكموا على المتنبي انه لا يتعصب لبلده ، ورموه بضعف الخلق ، وشبهوه بالطفل الذي يمد يده الى الخير ، لا يبالي أين وجده وكيف التقطه . —

وأما نفيهم عنه التعصب لقومه ، فانهم لم يذكروا الابيات التي استندوا اليها في هذا النفي ولكنهم أشاروا الى مدائح أبي الطيب في عضد الدولة وفي كافور وعجبوا من المتنبي كيف يمدح الاعاجم بعد قوله :

وانما الناس بالملوك وما   تفلح عرب ملوكها عجم

كيف يمدح ابو الطيب عضد الدولة ، وكيف يذكر في شعره اسمه ولقبه ويقول :

وقد رأيت الملوك قاطبة   وسرت حتى رأيت مولاها

أبا شجاع بفارس عضد الد   ولة فنا خسرو شهنشاها

نعم عجبوا من هذا كله ؛ فحكموا على المتنبي انه مجرد من التعصب للعرب ولبلاد العرب فكأنهم يقولون فيه انه شعوبي ، وان لم يصرحوا بهذه الصفة ، فلننظر في مبلغ هذا العجب ومقدار هذا الحكم ، أفكانوا مصيبين في هذا الحكم أم كانوا مخطئين فيه ، أفصدر حكمهم بعد ان نظروا الى ابي الطيب من جميع النواحي ، أم صدر الحكم وهم لم ينظروا الى المتنبي الا من ناحية واحدة ، فلا بأس بان يكون الدرس في هذا اليوم ضرباً من النقد .

الغريب انهم اذا نقدوا شعر شاعر ، وصوبوا النظر وصعدوه في بواطن هذا الشاعر وفي ظواهره ، نظروا اليه من طرف واحد . فمنهم من ينظر اليه من

الناحية التي يظنها ناحية المحاسن ، ومنهم من ينظر اليه من الناحية التي يحسبها ناحية المساوىء ، وفي هذين المذهبين اشتطاط في الرأي وذهاب مع الهوى وانقياد للعاطفة وضعف في النظر ، وما ينبغي للناقد ان يكون خاضعاً لسلطان الهوى ، ما ينبغي للعين ان يخفى عليها الضياء فلا ترى الا الظلام ، فانهم اذا ذهبوا في النقد هذه المذاهب ، وساروا هذه السيرة ضاعت الحسنات ، حتى أنهم ليعظمون العورات في بعض الاحيان و يتعقبونها فيمرون بالحسنات الرائعة والى جنبها سيئة خفية فيغضون على الروائع و يتهامسون بالعورات وما هذا من النقد في شيء ؛ واذا الناقد لم ينظر الى الشاعر من جميع الوجوه ، من وجه الحسنات ومن وجه السيئات على السواء لم يكن نقده نقداً ولا تمييزه تمييزاً ، اذا هو نظر اليه من طرف واحد وحكّم الهوى في نظره كان نقده مثلوم الجوانب .

جردوا أبا الطيب من كل عاطفة وطنية ومن كل نزعة قومية واعتمدوا في تجريدهم هذا على الابيات التي رويتها لكم فلننظر في حكمهم على أبي الطيب من الناحية الوطنية ، والمراد بالوطنية في هذا المقام الحنين الى الوطن ، لا ريب في ان أبا الطيب لم يثبت على حال في شوقه الى تربته ، وقد بينت اضطرابه في هذا الحنين فلا اجد حاجة الى الرجوع اليه ، وقد يكون لهذا الاضطراب اسباب شتى : منها أن ابا الطيب لم يستقر في وطنه منذ نشأ وترعرع حتى قتل ، فمن بادية العراق الى بادية الشام ، ومن اللاذقية الى انطاكية الى حلب ، ومن حمص الى دمشق ومن دمشق الى طبريا الى الرملة ومن فلسطين الى مصر ومن مصر الى العراق ومن العراق الى بلاد فارس ، فهو لم يقم بوطنه فلم تألف عينه هذا الوطن ، ومنها أن النفس تعرض لها في بعض الساعات عوارض فتذهل عن كل شيء في الدنيا حتى انها لتكاد تعاف الحياة والمتنبي عصبي المزاج فكان تعرض له هذه العوارض من ألم في النفس وضيق في الصدر كما تعرض لكل واحد منا وما قولكم في شاعر يترك بلاد الشام ويذهب الى مصر فيخلي له كافور داراً ويخلع عليه ويحمل اليه آلافاً من الدراهم فيستقبله المتنبي بهذا الشعر :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً   وحسب المنايا ان يكنَّ أمانيا

ما قولكم في شاعر يتمنى الموت وهو في بحبوحة من العيش وسعة من الأمل أفيكثر عليه ان يعاف بلده في بعض الساعات اذا كان يعاف حياته على أن ابا الطيب لم يجرد من العاطفة الوطنية كل التجريد، فانه اذا اضطرب وقال:

غني عن الاوطان لا يستخفني   الى بلد سافرت عنه اياب

هدأ بعد مضطربه وقال وهو في بلاد فارس بين يدي ملك عجمي:

أحب حمصاً الى خناصرة   وكل نفس تحب محياها

وصفت فيها مصيف بادية   شتوت بالصحصحان مشتاها

وان الذي يقول: وكل نفس تحب محياها، او يقول: أحن الى اهلي وأهوى لقاءهم، لا يرمى بمعقة الوطن فكان ابو الطيب يضطرب في بعض الاحوال ثم يهدأ فيصفو خاطره ويروق ذهنه فيذكر أهله ووطنه فكان يجب على الذين نفوا عنه التعصب لبلده ان ينظروا اليه من النواحي كلها، من ناحية حنينه الى تربته ومن ناحية اضطرابه في هذا الحنين حتى يكون حكمهم صادقا الا انهم لم ينظروا اليه الا من ناحية واحدة، فأشاروا الى الابيات التى دلت على اضطرابه في الحنين الى الوطن وسكتوا عن الابيات التي تضمنت حنينه اليه فإما ان يكونوا متحاملين على المتنبي، واما انهم لم يقرأوا ديوانه كله، والامر الثاني أغرب فكيف يؤلفون في هذا العصر كتابا في شاعر من الشعراء ولا يقرأون شعره كله!

على انهم لو أنصفوا فنظروا الى ابي الطيب في وطنيته أي في حنينه الى تربته من الناحيتين، وأحبوا ان ينقدوه من الناحية التي اشتملت على تغنيه بتربته لوجدوا مجال النقد ذا سعة فان ابا الطيب لم يخلف لنا في شعره صورة التربة التي ألفها فلم يحملنا على الحنو على هذه الارض الكريمة التي رويت من دماء آبائنا وأجدادنا فلو أحطنا مثلا في شعر ابي الطيب وهو في مصيفه في حمص بالعاصي من منعطفات شطوطه، لحمنا على هذا النهر المنبسط وصوبنا النظر وصعدناه في مروجه وفي جنانه وشممنا نسيم الشيح والقيصوم في البادية التي جال فيها كل مجال لشعرنا حينئذ

بفرط الحنو على هذه الارض الكريمة حيث نبتت لنا في كل بقعة من بقاعها أصول دقيقة قوية تذكّرنا قبيلنا وعشيرنا في الماضي .

لو نقدوا ابا الطيب من هذه الناحية ، وقالوا لم يخلف في شعره صورة تجمع أشكال التربة التي ألفها وألوان هذه التربة لاصابوا في نقدهم بعض الاصابة ولكنهم لم ينقدوه من هذا الوجه وانما جردوه من العاطفة الوطنية تجريداً ، وهذا موضع الاشتطاط ، على ان ابا الطيب لم يخل شعره من أثر التربة التي مرّ بها وألفها ، ولكن هذا الاثر إنما هو أثر اعرابي يوافق ذوق ابي الطيب وعاداته في مشابهته الاعراب وهل هو الا ابن البادية ، وربيب القبائل الف الاعراب في حداثة سنه واخذ عنهم اللغة ، صحبهم سنين ثم جاء الكوفة وهو بدوي قح ، نعم لم يخل شعره من اثر التربة التي ألفها ، لمّا قال :

أحب حمصاً الى خناصرة وكل نفس تحب محياها
وصفت فيها مصيف بادية شتوت بالصحصحان مشتاها

وصف في مصيفه في حمص ومشتاه بالصحصحان نمط عيشته وما هذه العيشة الا عيشة الاعراب :

ان أعشبت روضة رعيناها او ذكرت حلة غزوناها
أو عرضت عانة مقزعة صدنا باخرى الجياد اولاها
او عبرت هجمة بنا تركت تكوس بين الشروب عقراها
والخيل مطرودة وطاردة تجر طول القنا وقصراها
يعجبها قتلها الكماة ولا ينظرها الدهر بعد قتلاها

هذا الذي تركه لنا من مصيفه ومشتاه في حمص والصحصحان وانتم ترون ان هذه الآثار أعرابية ما فيها الا الصيد والا الغزو .

فلننظر الآن في حكمهم على المتنبي من الناحية القومية ، فقد عجبوا منه كيف سمحت له نفسه بمدح العجم والاعاجم ، بعد مدح أمراء العرب كسيف الدولة وأضرابه ، وبعد تصريحه بكراهية العجم ، لا شك في ان ابا الطيب مدح

ملوكاً وامراء لا ينتسبون الى اصل عربي من جملتهم عضد الدولة ومن جملتهم الاستاذ كافور ولكن هل يجوز ان يكون مجرد مدحه لامراء وملوك اعاجم دليلا على لينه في عروبيته وهوادته في قوميته وعلى الخصوص فانه لم يجر على شعره في مدائحه فيهم شيء يستخلص منه انه فضّل الاعاجم على العرب او انه طعن على العرب ورفع من مقادير العجم كما كانت تفعل الشعوبية فهو لم يمدح الروم والصقالب والبلغار ولا مدح الدمستق وقسطنطين . وانما مدح ملوكا مسلمين يتكلمون بلغة العرب ويفاخرون بها فان ملوك آل بويه شعروا ورويت لهم اشعار وكان في خدمتهم من الكتاب والوزراء امثال ابي اسحق الصابي وابي القاسم عبد العزيز بن يوسف وابي احمد بن عبد الرحمن بن الفضل الشيرازي وابي القاسم علي بن القاسم القاشاني وابن العميد عماد ملك آل بويه والصاحب ابي القاسم وغيرهم ممن كانوا أمراء البيان والانشاء وكانت اللغة الفارسية قد غرقت في خضم العربية وكان عضد الدولة نفسه على ما ذكره الثعالبي في يتيمته يتفرغ للادب ويتشاغل بالكتب ويؤثر مجالسة الادباء على منادمة الامراء ويقول شعراً كثيراً قال ابو بكر الخوارزمي :

كان ينادم عضد الدولة بعض الادباء والظرفاء ويحاضر بالاوصاف والتشبيهات ولا يحضر شيء من الطعام والشراب وآلتهما وغيرهما الا وأنشد فيه لنفسه أو لغيره شعراً حسناً ، فبينا هو ذات يوم معه على المائدة ينشده كعادته اذ قدمت بهطّة فنظر عضد الدولة كالآمر إياه بان يصفها فارتج عليه وغلبه سكوت معه خجل فارتجل عضد الدولة وقال :

بهطة تعجز عن وصفها يا مدعي الاوصاف بالزور
كانها في الجام مجلوة لآليء في ماء كافور

وقد رويت أشعار لابنه تاج الدولة ابي الحسين ولعز الدولة ابي منصور بختيار ولأبي العباس خسرو بن فيروز بن ركن الدولة فالمتنبيء لم يمدح ملوكاً طعنوا على العربية وانما مدح ملوكاً كانوا يتكلمون بها ويفاخرون وفي

اتصاله بهم لم ينس عروبيته ولم يتجرد منها وأظن أنكم لا تزالون تذكرون قوله في مغاني شعب بوان :

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

والنزعة العربية في هذا البيت واضحة فالذي لا تهمه العصبية لقومه لا يستوحش في بلاد العجم وقد كان يستطيع أن يرضي العجم فيقول لهم مثلا اذا نزل العربي بأرضكم فلا يكون غريباً ولكن نفسه العربية أبت الا الوحشة وإلا الحنين الى منازل دمشق .

وكذلك الاستاذ كافور فقد كانت مجالسه عامرة بالشعراء منهم الانصاري وكانوا يتفاوضون في اللغة والادب حتى ان المتنبي عارض الانصاري بحضرة كافور في قصيدته الميمية التي يقول فيها : (نظر المحب الى الحبيب غرام) ، وقال له : العرب لا تقول اليه غرام وانما تقول له ، فقال له الانصاري العرب تقول اليه ولديه وله وحروف الخفض ينوب بعضها عن بعض .

فالملوك الذين تعمر مجالسهم بأمثال هذه المجادلات انما هم ملوك لا يكرهون العربية على ما أظن فما في مدح المتنبي لهم طعن عليه من الناحية القومية فما كان بحضرتهم يغض من العرب وينتقصهم .

فالمتنبي عربي في أصله . عربي في عيشته ، عربي في نزعته ، وقد صحب الاعراب وخالطهم ولهذه المخالطة آثار في شعره ، فيجب على الذين ينفون عنه التعصب لوطنه ولقومه ان ينظروا اليه من كل النواحي حتى يكون نقدهم صحيحاً .

٨ شباط سنة ١٩٣٠

أين تعلم المتنبي

٦

عرفنا أين ولد المتنبي ، وعلمنا ما تيسر لنا علمه من نسبه وعروبيته ، فأين تعلم القراءة والكتابة ، وأين طلب أدبه ولغته ، وهل كان لمدرسته آثار في عبقريته ، هذا ما ابحث عنه واياكم في مجلسنا هذا .

قال ابو الحسن محمد بن يحي العلوي : كان ابو الطيب محباً للعلم والادب فصحب الاعراب في البادية وجاءنا بعد سنين بدوياً قحاً وكان تعلم القراءة والكتابة فلزم اهل العلم والادب واكثر من ملازمة الوراقين فكان علمه من دفاترهم .

وقال الثعالبي : ذكرت الرواة ان اباه سافر به الى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها الى حضرها ، ومن مدرها الى وبرها ويسلمه من المكاتب ويردده في القبائل ومخايله نواطق الحسنى عنه وضوامن النجح فيه ، حتى توفي ابوه وقد ترعرع ابو الطيب وشعر وبرع .

وقال صاحب الطبقات : واقام بالبادية وطلب الادب وعلم العربية ونظر في ايام الناس .

وقال ابن خلكان : واشتغل بفنون الادب ومهر فيها وكان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها ولا يسأل عن شيء الا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر حتى قيل ان الشيخ اباعلي الفارسي صاحب الايضاح والتكملة قال يوماً : كم لنا من الجموع على وزن فعلى ، فقال المتنبي في الحال : حجلى وظربى ، قال الشيخ ابو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على ان أجد لهذين الجمعين ثالثا فلم أجده » .

من هذا يتبين لكم ان ابا الطيب قد جهد نفسه في طلب الادب واللغة فكانت له دفاتر يدرسها في الليل وربما مضى من الليل أكثره وهو يدرس وكان كثير الاشفاق على هذه الدفاتر اذا سافر أخذها معه لانه كان قد انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحاً، ولسنا نعرف هذه الدفاتر ولا ندري بما كانت تشتمل عليه، وانما نقل عنه انه كان يروي شعر أبي تمام ويقول «او يجوز للاديب أن لا يعرف شعر أبي تمام، وهو أستاذ كل من قال الشعر بعده» فالمتنبي درس كثيراً وقرأ كثيراً فمن الشعراء الذين نظر في شعرهم البحتري وابن الرومي وابو تمام ومسلم ابن الوليد وبشار وأبو نواس وابن المعتز والفرزدق وعمرو بن كلثوم وامرؤ القيس والاعشى وبعض رجّاز العرب وغيرهم من الذين لا يخلو شعره من رسومهم واني لاجاوز في هذا المقام الاشارة الى ثقافته العامة فأتخطى الكلام على تجاريبه في الحياة وعلى ما فتقت له هذه التجاريب من ضروب الحكم :

اذا ما الناس جربهم لبيب فاني قد أكلتهم وذاقا

واتخطى الكلام على نظراته الفلسفية مرجئاً هذا كله الى حين البحث عن هذه النظرات فلا أتعرض فى هذا المجلس الا لآثار مدرسته الاولى في شعره .

للبادية فى ثقافة المتنبي آثار ظاهرة على شعره في كل طور من أطوار هذا الشعر فهو ابن البيد والفيافي، من أفق البادية درج خياله، وفي جو البادية نما هذا الخيال فلا عجب اذا علقت بذهنه صور هذه البادية، الف المتنبي ابل البادية وخيلها ومهامهها ومفاوزها وغزوها وصيدها وسيوفها وقناها، فلا تجدون في كثير من شعره فرقاً بينه وبين الاعراب الذين صحبهم في التغني بكل امر من أمور البادية ولا يكاد شعره يخلو من آثار صهيل الخيل وقعقعة اللجم وصرير العوالي فالبادية اول مدرسة درس فيها المتنبي وكما ان للبيئة وللزمن وللدم تأثيراً في العبقرية فكذلك التربية فانها لا تخلو من التأثير فى الاذهان، الف المتنبي البادية فلم يخف عليه أمر من أمورها ولم تشكل عليه اللغة التي يحتاج اليها ابن البادية في وصف ابله وخيله وسلاحه وضروب ذلك، وقد رسخت في ذهنه صور البادية

من حداثة سنه الى آخر يوم من ايامه ، حتى انه اذا فارق الاعراب وجالس الملوك والامراء والوزراء ، كانت صور البادية ترجع الى ذهنه من حين الى آخر فلست أعرف شاعراً أعند من المتنبي في الحرص على آثار تربيته الاولى ، جالس الملوك والامراء والوزراء فلم يقلع عن اعرابيته ، وعرضت عليه الحضارة مشاهد رائعة فلم تنزع به عن بدويته ، فقد غلبت عليه صور البادية فلنبين هذا الامر على قدر ما يتسع له مجلسنا .

للمتنبي أربعة أطوار في شعره ، طور وهو يجول في أقطار الشام قبل اتصاله بسيف الدولة ، وطور وهو في ظلال سيف الدولة وطور وهو في حضرة كافور الاخشيدي وطور وهو في بلاد فارس ، فلننظر في آثار البادية على شعره في كل طور من هذه الاطوار الاربعة .

لما كان المتنبي يجوب آفاق الشام ويمدح رجالها وذلك في اول نشأته وترعرعه كانت آثار الثقافة البدوية ظاهرة على شعره كل الظهور فان خياله الذي نما في البادية كان خيالا على فطرته الاولى فكأنه اعرابي لم يألف الحضر .

برتني السرى بري المدى فرددنني   اخف على المركوب من نفسي جرمي
وابصر من زرقاء جو لانني   متى نظرت عيناي سوّاهما علمي
كأني دحوت الارض من خبرتي بها   كأني بنى الاسكندر السد من عزمي

فالاشارة الى السري والى حدة البصر والى الخبرة بالارض كل هذا من مذاهب أهل البدو الذين لا يقيمون ببقعة من الارض دون بقعة .

اوانا في بيوت البدو رحلي   وآونة على قتد البعير

فتارة كان يتغنى ببنات الجديل و بالفته المجاهل والفلوات .

نحن ركب ملجن في زي ناس   فوق طير لها شخوص الجمال
من بنات الجديل تمشي بنا في البيد   مشي الايام في الآجال
كل هوجاء للديامیم فيها   أثر النار في سليط الذبال

وتارة كان يتغنى بسيفه :

كفرندي فرند سيفي الجراز لذة العـــين عدة للبراز
تحسب الماء خط في لهب النار ادق الخطوط في الاحراز
كلما رمت لونه منع الناظر موج كأنه منك هازي .....
ودقيق قذى الهباء أنيق متوال في مستوى هزهاز

الى آخر ما وصف به هذا السيف .

هكذا كان دأبه في الشدو بامور البادية ولقد تجلت شنشنته هذه في اراجيزه التي كان يتشبه فيها بالاعراب منها ارجوزته :

ما للمروج الخضر والحدائق يشكو خلاها كثرة العوائق

فكان له حجر تسمى « الجهامة » ولها مهر يسمى « الطخرور » فاقام الثلج على الارض بانطاكية و تعذر المرعى على المهر فقال المتنبيء ارجوزته هذه ومن قرأها حسب بدوياً يصف الخيل .

كل هذا من آثار مدرسته الاولى ولقد أثرت فيه هذه المدرسة من الناحيتين المادية والمعنوية حتى انه اذا تغزل كان يتغزل بالاعرابيات :

هام الفؤاد باعرابية سكنت بيتاً من القلب لم تمدد له طنبا

واذا شبه في غزله جرت على خاطره في الحال تشبيهات اهل البادية ، فالرماح والسيوف أدوات يلجأ اليها في هذا الغزل :

من طاعني ثغر الرجال جآذر ومن الرماح دمالج وخلاخل
ولذا أسم اغطية العيون جفونها من انها عمل السيوف عوامل

على أنكم تجدون في بعض الاحوال اثاراً حضرية الى جنب هذه الآثار البدوية خالية من السيوف والرماح وما شابه ذلك :

لبسن الوشي لا متجملات ولكن كي يصن به الجمالا
وضفرن الغدائر لا لحسن ولكن خفن في الشعر الضلالا

نعم انكم لتجدون في بعض غزله وشي الحضارة ونعومتها :

حسان التثني ينقش الوشي مثله اذا مسن في أجسامهن النواعم

ويبسمن عن در تقلدن مثله كأن التراقي وشحت بالمباسم

ليس معنى هذا ان المتنبي لم يصف مشاهد الحضر ولكن البادية شغلت القسم الاعظم من خياله فاذا وصف مشهداً من مشاهد الحضر عادت الى ذهنه في الحال صور البادية ، لنضرب مثلا لذلك :

من قوله في قصيدة يمدح بها علي بن ابراهيم التنوخي وقد تصدى لوصف بحيرة طبرية :

لولاك لم أترك البحيرة والغور دفيء وماؤها شبم
والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها فرسان بلق تخونها اللجم
كأنها والرياح تضربها جيشا وغى : هازم ومنهزم
كأنها في نهارها قمر حف به من جنانها ظلم

فأنتم ترون انه لما أراد أن يشبه الموج شبهه بهدير الفحول ، ولما أراد أن يشبه الطير وهي فوق الحباب شبهها بفرسان خيل بلق ، ولما أراد أن يشبه الرياح وهي تضرب الطير شبهها بجيشي وغى ، فالفحول وفرسان الخيل والجيوش والماء الشبم والقطم كل هذا لايخلو من اثر بدوي ، واذا أردتم ان تعرفوا الفرق بين هذا الخيال البدوي وبين الخيال الحضري فارجعوا الى وصف ماء لشاعر من شعراء العرب ، ارجعوا الى وصف البحتري للبركة ، ومن شروط المقايسة والموازنة ان تأخذوا قصيدتين في موضوع واحد ، اذ أنه لا تصح الموازنة بين قصيدتين مختلفتين في الموضوع ، فالمتنبي وصف بحيرة طبرية والبحتري وصف البركة ، وقد سمعتم وصف ابي الطيب فاسمعوا شيئاً من وصف البحتري ، ولا يتسع المقام لذكر الابيات كلها وانما اذكر طائفة منها :

كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجاريها
اذا علتها الصبا أبدت لها حبكاً مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها وريّق الغيث احياناً يباكيها

اذا النجوم تراءت في جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها

الى غير ذلك من وصف السمك وعومه والرياض وبشاشتها ؛ وانا اترك لكم الحكم على الفرق بين الوصفين فانكم ولا شك تعترفون معي بأن الفضة البيضاء ومضاحكة الشمس وما شابه ذلك انما هو كلام حضري لا اثر للبداوة عليه .

هذا هو الطور الاول في شعره فلننظر الى ابي الطيب وهو في ظلال سيف الدولة فقد وجد في هذه الظلال الوارفة أفقاً مديداً يسرح فيه خياله البدوي فانه لما اتصل بسيف الدولة سلمه الى الرواض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة ، وصحب سيف الدولة في عدة غزوات الى بلاد الروم فتصرف المتنبيء في وصف هذه الحروب والغزوات أبلغ التصرف أعانته على ذلك أمور شتى منها تربيته الاولى ومصاحبته للاعراب وما أثرت فيه هذه المصاحبة من الاثار التى شهدتم منها شيئاً في شعره في طوره الاول وهي كلها سبيل ممهدة الى وصف الحروب ، ومنها مصاحبته لسيف الدولة في هذه الغزوات فاذا وصف انما كان يصف بعد العيان فاكثر شعره في سيف الدولة وصف فيه هذه الحروب فلا نتعرض في هذا المقام لشيء من هذا الوصف لان هذا يأتي في الكلام على شعره ، وانما غرضي في هذا المجلس ان أبين ان المتنبي كانت تغلب على شعره آثار البداوة وان هذه الآثار جاءته من مدرسته الاولى وما هذه المدرسة الاولى الا البادية ولئن كان أبوه يسافر به من البدو الى الحضر فان صور البدو شغلت الناحية الكبرى من خياله ، فهل تبدل خياله البدوي وهو في ظل سيف الدولة ، هل أقل من التغني بالابل وبقوته على السير وما شابه ذلك فلننظر في هذا كله .

لما اتصل بسيف الدولة اتصل بملك قد روي من نعيم الحضارة وترفها فأخلق بابي الطيب ان تظهر على شعره آثار هذه الحضارة فأول قصيدة قالها فيه وصف فيها فازة من الديباج عليها صورة ملك الروم وصورة وحش وحيوان وقد جلس سيف الدولة على هذه الفازة فقال أبو الطيب :

وأحسن من ماء الشبيبة كله حيا بارق في فازة انا شائمه

عليها رياض لم تحكها سحابة ‏ ‏ واغصان دوح لم تغن حمائمه
وفوق حواشي كل ثوب موجّه ‏ ‏ من الدر سمط لم يثقبه ناظمه
ترى حيوان البر مصطلحاً به ‏ ‏ يحارب ضد ضده ويسالمه
اذا ضربته الريح ماج كأنه ‏ ‏ تجول مذاكيه وتدأى ضراغمه
وفي صورة الرومي ذي التاج ذلة ‏ ‏ لا بلج لا تيجان الا عمائمه

فانتم تجدون في هذا الشعر صوراً حضرية حتى ان غزل المتنبي ظهرت عليه آثار رقة الحضر فقد عدل في غزله عن السيوف والرماح الى الأزاهير والرياحين:

سقاك وحيانا بك الله انما ‏ ‏ على العيس نور والخدور كمائمه

ومنه قوله:

وغضبى من الادلال سكرى من الصبى ‏ ‏ شفعت اليها من شبابي بريق
وأشنب معسول الثنيات واضح ‏ ‏ سترت فمي عنه فقبّل مفرقي
وأجياد غزلان كجيدك زرنني ‏ ‏ فلم أتبين عاطلا من مطوق

ومنه قوله:

واني لأعشق من أجلكم ‏ ‏ نحولي وكل امريء ناحل
ولو زلتم ثم لم أبككم ‏ ‏ بكيت على حبي الزائل

ولكنه مع هذا كله لم تفارق صور البادية ذهنه فكان يرجع اليها في بعض غزله فيرجع الى السيوف وأشكالها:

وقد طرقت فتاة الحي مرتدياً ‏ ‏ بصاحب غير عزهاة ولا غزل
فبات بين تراقينا ندفّعه ‏ ‏ وليس يعلم بالشكوى ولا القبل
ثم اغتدى وبه من درعها أثر ‏ ‏ على ذؤابته والجفن والخلل

ويرجع الى هذه الصور في المراثي نفسها:

نعد المشرفية والعوالي ‏ ‏ وتقتلنا المنون بلا قتال
ونرتبط السوابق مقدمات ‏ ‏ وما ينجين من خبب الليالي

ومنه قوله في هذه القصيدة:

لساحيه على الاجداث حفش كأيدي الخيل أبصرت المخالي

والحفش والمخالي والخبب وارتباط السوابق كل هذا من آثار البدو ولا ريب في ذلك .

فابو الطيب في التبدل اليسير الذي تبدله وهو في أفياء سيف الدولة اي في افياء النعيم والترف كان يعود الى شنشنته في التغني بالابل و بالقوة على السير الى غير ذلك من مذاهب الاعراب واهل البدو ، فمن وصفه للابل :

وحكمت في البلد العراء بناعج معتاده مجتابه مغتاله
يمشي كما عدت المطي وراءه ويزيد وقت جمامها وكلاله
وتراع غير معقلات حوله فيفوتها متجفلا بعقاله
فغدا النجاح وراح في اخفافه وغدا المراح وراح في ارقاله

نعم انه لايكاد ينسى فرسه ورمحه وسيفه وناقته حتى في مواطن الغزل :

سلي عن سيرتي فرسي ورمحي وسيفي والهملعة الدفاقا

ولا يكاد يذهل عن الخيل والبيداء :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت في الفلوات الوحش منفرداً حتى تعجب مني الكور والاكم

* * *

هذه هي شنشنة المتنبي وهو في ظلال سيف الدولة المديدة فلننظر اليه لما غضب على سيف الدولة وترامت به البيد والفيافي الى كافور الاخشيدي ، فلننظر اليه هل اقلع عن هذه الشنشنة أم لازمته في مصر ، أظن انه لم يقلع وهو في مصر عن شيء من هذه العادات البدوية فقد عاد الى دأبه من ذكر الخيل والقنا والعوالي وما ماثل ذلك حتى في اول قصيدته في كافور .

وجردا مددنا بين اذانها القنا فبتن خفافاً يتبعن العواليا
تماشى بأيد كلما وافت الصفا نقشن به صدر البزات حوافيا
وتنظر من سود صوادق في الدجى يرين بعيدات الشخوص كما هيا

وتنصت للجرس الخفي سوامعاً　　يخلن مناجاة الضمير تناديا

ولما طالبه كافور بذكر الدار التي بناها على البركة بازاء الجامع الاعلى لم يقل شيئاً في وصفها يسمى وصفاً فكأنه يحتقر الدور .

مستقل لك الديار ولو　　كان نجوماً آجر هذا البناء
ولو أن الذي يخر من الام　　واه فيها من فضة بيضاء

فكان يحاول التخلص من الوصف الى المديح والوصول الى ذكر الجياد والسمهرية السمراء والصوارم البيض والهيجاء

وبساتينك الجياد وماتحم　　ل من سمهرية سمراء
انما يفخر الكريم ابو المسك　　بما يبتني من العلياء
وبايامه التي انسلخت عنه　　وما داره سوى الهيجاء
وبما اثرت صوارمه البيض له　　في جماجم الاعداء
لا بما يبتني الحواضر في الري　　ف وما يطبي قلوب النساء

فاين هذا الخيال من خيال البحتري في وصفه لقصور بني العباس في بغداد .

نعم لم يقلع عن هذه الشنشنة حتى ولا في غزله فهو لا يحب الا البدويات

ما أوجه الحضر المستحسنات به　　كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية　　وفي البداوة حسن غير مجلوب
اين المعيز من الارام ناظرة　　وغير ناظرة في الحسن والطيب
أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها　　مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام ماثلة　　أوراكهن صقيلات العراقيب

ولما أصابته الحمى وهو بمصر ووصفها لم يغفل في وصفه عن التغني بما يتغنى به الاعراب عادةً :

ذراني والفلاة بلا دليل　　ووجهي والهجير بلا لثام
فاني أستريح بذي وهذا　　وأتعب بالاناخة والمقام
عيون رواحلي ان حرت عيني　　وكل بغام راحلة بغامي

فقد أرد المياه بغير هاد　　سوى عدي لها برق الغمام

فأنتم ترون في هذا كله آثار ما يتغنى به الاعراب عادة فسلوك الفلاة بلا دليل . واعتياد السير في الهجير بغير لثام . والمعرفه بدلالات النجوم بالليل وعد برق الغمام كل هذا مما يفخر به أهل البدو .

ولما فارق مصر وورد الى الكوفة وصف منازل طريقه فكأن المتنبي متلفع بثوب بدوي في هذا الوصف :

ألا كل ماشية الخيزلى　　فدى كل ماشية الهيذبى

وكل نجاة بجاوية　　خنوف وما بي حسن المشى

ولكنهن حبال الحياة　　وكيد العداة وميط الاذى

ضربت بها التيه ضرب الـ　　قمار إما لهذا وإما لذا

وكذلك لما رثى اباشجاع فاتكا وهو في الكوفة بعد خروجه من مصر أشار الى العيس :

لا أبغض العيس لكني وقيت بها　　قلبي من الحزن أو جسمي من السقم

طردت من مصر أيديها بارجلها　　حتى مرقن بنا من جوش والعلم

تبرى لهن نعام الدو مسرجة　　تعارض الجدل المرخاة باللجم

* * *

هل رغب المتنبيء عن مذاهب أهل البدو في آخر طور من أطوار شعره فانه لما خرج من مصر و قدم العراق ثم شخص من العراق الى بلاد فارس اتصل بابن العميد وبعضد الدولة وعرف ان الذين يجالسهم في فارس هم غير الاعراب وأشار الى ذلك في أماديحه في ابن العميد :

من مبلغ الاعراب اني بعدها　　جالست رسطاليس والاسكندرا

ومللت نحر عشارها فاضافني　　من ينحر البدر النضار لمن قرى

وسمعت بطليموس دارس كتبه　　متملكاً متبدئاً متحضرا

نعم جالس المتنبيء في بلاد فارس أمثال رسطاليس وبطليموس وجارى الفرس في عاداتهم في النيروز في اتخاذ أكاليل من النبات والزهر ولبس هذه الاكاليل :

مالبسنا فيه الاكاليل حتى　　لبستها تلاعه ووهاده

وشهد مشاهد تاخذ بمجامع القلوب مثل شعب بوان :

مغاني الشعب طيباً في المغاني | بمنزلة الربيع من الزمان

ومع هذا كله فقد بقي بدوياً قحاً كما كان في صباه ، شهد هذه المشاهد كلهافلم يزهد في أعرابيته ولئن رق غزله بعض الشيء وخرج من التغزل بالبدويات الى التغزل بالشاميات :

شامية طالما خلوت بها | تبصر في ناظري محياها
فقبّلت ناظري تغالطني | وانما قبّلت به فاها
فليتها لا تزال آوية | وليته لا يزال مأواها
تبل خدي كلما ابتسمت | من مطر برقه ثناياها
ما نفضت في يدي غدائرها | جعلته في المدام أفواها

لئن رق هذا الغزل بعض الشيء ولئن تبدل خياله بعض التبدل فما تبدلت أعرابيته حتى انه عاد في القصيدة نفسها التي تغزل فيها بالشاميات الى ذكر الغزو والصيد وقد كنت تلوت عليكم ابيات هذا الغزو وهذا الصيد :

ان أعشبت روضة رعيناها | او ذكرت حلة غزوناها

وعاد الى التغني بالقنا والطعان :

فاما تريني لا أقيم ببلدة | فآفة غمدي في دلوقي وفي حدي
يحل القنا يوم الطعان بعقوتي | فأحرمه عرضي وأطعمه جلدي
تبدل أيامي وعيشي ومنزلي | نجائب لا يفكرن في النحس والسعد

لئن بدلت هذه النجائب ايامه وعيشه ومنزله فما بدلت أعرابيته ؛ وارجوزته في عضد الدولة وقد خرج للصيد دليل على تعلقه باهداب هذه الاعرابية وهي من آخر شعره :

ما أجدر الأيام والليالي | بان تقول ماله ومالي

فآثار مدرسته الاولى ظاهرة على شعره من ابتداء أمره الى منتهاه .

١٥ آذار سنة ١٩٣٠

المحاضرة الخامسة عشرة

نبوة المتنبي

٧

مر بكم ان أبا الطيب لما ترعرع وشعر وبرع توفي ابوه، فالحسين فارق الدنيا وابنه احمد في عنفوان صبوته، فلنراقب ابا الطيب في أول حركة من حركاته بعد ان تم له ماتم من طلب الادب واللغة في البادية والحضر، فلنقتصّ أخبار ذلك الامر العظيم الذي ذهب بحقيقة اسمه وجعل له اسماً آخر خالداً على وجه الدهر وهو المتنبيء، لماذا لقبوه بالمتنبيء هل تنبأ ابو الطيب وكم كان عمره في دعوى النبوة؛ ما هي أقوال رجال التاريخ في هذه النبوة، هل نسبوا اليه اموراً غير دعوى النبوة، هل نسبوا اليه انه همّ بالخروج او انه ادعى انه علوي، او انه ادعى غير ذلك، ما هي معجزاته، ما هو قرآنه، ما هي اقواله في نبوته وقرآنه، هل تهيأ له شيء من أسباب التأثير في عقول الأعراب، هل صرح في شعره بدعواه، هل وطن نفسه للموت وهو في السجن على نحو أكابر الرجال الذين لا يبالون بما يصيبهم في سبيل مذاهبهم أم أوهن رجليه ثقل الحديد، فاستغاث واستصرخ.

لماذا لقبوه بالمتنبيء؟

حكى ابو الفتح عثمان بن جني وابن جني هذا صحب ابا الطيب دهراً طويلا قال: سمعت ابا الطيب يقول انما لقبت بالمتنبيء لقولي:

انا في امة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

وفي هذه القصيدة يقول:

مامقامي بأرض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود

فتشبيه بصالح وبالمسيح مدعاة الى تلقيبه بالمتنبيء.

هل تنبأ المتنبيء ، وكم كان عمره لما تنبأ ، وما هي اقوال رجال التاريخ في هذه النبوة ؟

Summary

قال ابو عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقي :

قدم ابو الطيب المتنبيء اللاذقية في سنة عشرين وثلاثمائة ، (كان عمره يومئذ سبع عشرة سنة) وهو لا عذار له ، وله ، فرة الى شحمتي اذنيه ، فاكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته فلما تمكن الانس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته واقتباساً من ادبه قلت له : والله انك لشاب خطير ، تصلح لمنادمة ملك كبير فقال : ويحك أتدري ماتقول؟ انا نبي مرسل ، فظننت انه يهزل ثم تذكرت اني لم اسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته فقلت له : ماتقول : فقال انا نبي مرسل فقلت ، له : مرسل الى من ، قال : الى هذه الامة الضالة قلت : تفعل ماذا ، قال : املأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً ، قلت : بماذا ؟ قال : بادرار الارزاق والثواب العاجل والآجل لمن أطاع وأتى ، وضرب الاعناق لمن عصى وابى فقلت له : ان هذا امر عظيم اخاف منه عليك ان يظهر وعذلته على ذلك فقال بديهاً :

ابا عبد الآله معاذ اني خفي عنك في الهيجا مقامي
ذكرت جسيم ما طلبي وانا نخاطر فيه بالمهج الجسام
أمثلي تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان اليّ شخصاً لخضب شعر مفرقه حسامي
وما بلغت مشيتها الليالي ولا سارت وفي يدها زمامي
اذا امتلأت عيون الخيل مني فويل في التيقظ والمنام

هذا قول ابي عبد الله معاذ اللاذقي في نبوة المتنبيء فلنسمع قول كافور الاخشيدي وانتم تعلمون ان ابا الطيب لما غضب على سيف الدولة قصد كافوراً فوعده كافور بولاية بعض اعماله فلما رأى تعاليه في شعره وسموه بنفسه خافه وعوتب فيه فقال : يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، اما يدعي المملكة مع كافور فحسبكم .

اما ابو العلاء المعري ، فقد ذكر عنه الاستاذ عباس محمود العقاد في مقال له في « البلاغ » عنوانه هل تنبأ المتنبي ، انه قد شك في دعوى النبوة وبنى مقاله على هذا الشك ، فهو يعتقد ان قصة النبوة رواها عن ابي الطيب جماعة من اهل عصره اكثرهم من خصومه وحساده او من ملفقي الأحاديث .

وقد رجعت الى كلام ابي العلاء فلم أجد فيه ما يدل على انه كان يشك في دعوى النبوة فهو قد صدّق الدعوى وروى احاديث حدثه بها الثقة عن معجزات المتنبي ، وهذا كلام المعري : "١"

« وحدثت انه (اي المتنبي) كان اذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال : هو من النبوة اي المرتفع من الارض وكان قد طمع في شيء طمع فيه من هو دونه ، وانما هي مقادير يديرها في العلو مدير يظفر بها من وفق ، ولا يراع بالمجتهد ان يخفق ، وقد دلت اشياء في ديوانه انه كان متألهاً ، ومثل غيره من الناس متدلهاً ، فمن ذلك قوله :

ولا قابلا الا لخالقه حكماً

وقوله :

ما أقدر الله ان يخزي بريته ولا يصدق قوماً في الذي زعموا

واذا رجع الى الحقائق فنطق اللسان لا ينبيء عن اعتقاد الانسان ، لان العالم مجبول على الكذب والنفاق ويحتمل ان يظهر الرجل بالقول تديناً ، وانما يجعل ذلك تزيناً ، يريد ان يصل به الى ثناء او غرض من اغراض الخالبة ام الفناء ، ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون وفيما بطن ملحدون » .

فمن هذا يتبين لكم ان ابا العلاء لم يلحقه الشك في الدعوى التي ادعاها المتنبي حتى انه بيّن علة هذه الدعوى فأشار الى طمع ابي الطيب في شيء قد طمع فيه من هو دونه ، وستسمعون احاديث معجزات ابي الطيب التي حدث بها ابو العلاء ، واذا شك المعري في شيء فانه قد شك في صدق النبوة لا في صدق دعوى هذه النبوة والفرق بين الشكين ظاهر .

(١) رسالة الغفران . الصفحة ١٣٣

ومن الذين تكلموا على دعوى النبوة ابو منصور الثعالبي فقد قال :

ويحكى انه تنبأ في صباه وفتن شرذمة بقوة ادبه وحسن كلامه .

ومنهم الانباري صاحب الطبقات فقد قال :

قال علي بن حامد : سمعت قوماً بحلب يحكون ان ابا الطيب المتنبي، تنبأ ببادية السماوة ونواحيها الى ان خرج اليه لؤلؤ امير حمص من قبل الاخشيدية فقاتله وأسره، وشرّد كل من كان اجتمع عليه من بني كلب وكلاب وغيرهم من قبائل العرب وحبسه في السجن دهراً طويلا حتى كاد يتلف فسئل في أمره فاستتابه وكتب وثيقة، وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام وأطلقه .

* * *

هذه أقوال من تكلموا على دعوى نبوة المتنبي، على ان بعضهم نسبوا الى المتنبي، أموراً غير ذلك مثل طمعه في الملك وادعائه العلوية وغير ذلك مما لم يذكروه، فالثعالبي قبل ان يتكلم على دعوى النبوة وقد سمعتم كلامه، تكلم على طلب الملك فقال :

وبلغ من كبر نفسه، وبُعد همته، ان دعا الى بيعته قوماً من رائشي نبله على الحداثة من سنه، والغضاضة من عوده، وحين كاد يتم له أمر دعوته، تأدى خبره الى والي البلد ورُفع اليه ما هم به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده .

وابن خلكان روى دعوى نبوته وقال :

وانما قيل له المتنبي، لانه ادعى النبوة وهو في بادية السماوة وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم، فخرج اليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيدية فأسره وتفرق أصحابه وحبسه طويلا ثم استتابه وأطلقه ثم قال بعد هذا :

وقيل غير ذلك، وهذا أصح، فما الذي قيل غير ذلك ؟ فلم يبينه ابن خلكان الى ان قال :

وقيل أنه قال : انا أول من تنبأ بالشعر .

وابن الانباري تكلم على دعوى النبوة وقد ذكرت لكم كلامه وأضاف اليه ما يلي :

وقال القاضي ابو الحسن بن أم شيبان الهاشمي الكوفي . وكان ابو الطيب لما خرج الى كلب وأقام فيهم ، وادعى انه علوي ، ثم ادعى النبوة ، ثم عاد يدعي انه علوي الى ان اشهد عليه في الشام واطلق .

* * *

فالذي يستخلص من كل ما تقدمت الاشارة اليه ان الاقوال في أمر المتنبيء متباينة فمنهم من قال انه ادعى النبوة ، ومنهم من قال انه هم بالخروج ، ومنهم من قال انه ادعى انه علوي ومنهم من قال غير ذلك .

ولا بأس بان المح الى طائفة من معجزاته وقرآنه ما دام بعض رجال التاريخ قد تكلموا على نبوته .

أما المعجزات فقد ذكر منها ابو عبد الله معاذ بن اسمعيل اللاذقي حبس المطر ، فمن شاء فليقرأ خبرها في الصبح المتنبيء . وذكر ابو العلاء المعري غير حبس المطر فقال :(١)

« وحدثني الثقة عنه حديثاً معناه انه لما حصل في بني عدي وحاول ان يخرج فيهم قالوا له وقد تبينوا دعواه : ها هنا ناقة صعبة فان قدرت على ركوبها اقررنا انك مرسل . وانه مضى الى تلك الناقة وهي رائحة في الابل فتحيل حتى وثب على ظهرها فنفرت ساعة وتنكرت برهة ثم سكن نفارها ومشت مشي المسمحة وانه ورد بها الحلة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم .

وحدثت ايضاً انه كان في ديوان اللاذقية وان بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الاقلام فجرحته جرحاً مفرطاً وان أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته وقال للمجروح لا تحلها في يومك وعد له اياماً وليالي .

---

(١) رسالة الغفران . الصفحة ١٣٥

وان ذلك الكاتب قبل منه فبرىء الجرح فصاروا يعتقدون في ابي الطيب اعظم اعتقاد ويقولون هو كمحي الاموات »

وحدث رجل كان ابو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية او في غيرها من السواحل انه أراد الانتقال من موضع الى موضع فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ولقيهما كلب الح عليهما في النباح ثم انصرف فقال ابو الطيب لذلك الرجل وهو عائد: انك ستجد ذلك الكلب قد مات فلما عاد الرجل الفى الامر على ما ذكر ولا يمتنع ان يكون اعد له شيئاً من المطاعم مسموماً والقاه له وهو يخفي عن صاحبه ما فعل؛ والخربق سم الكلاب . »

واما القرآن فها انا اتلو عليكم منه ما دونه صاحب الطبقات نقلا عن ابي علي بن حامد ، قال ابو علي :

« وكان قد تلا على البوادي كلاماً زعم انه قرآن انزل عليه فكانوا يحكون له سوراً كثيرة نسخت منها سورة ثم ضاعت وبقي أولها في حفظي وهو: والنجم السيار، والفلك الدوار والليل والنهار ان الكافر لفي أخطار . امض على سننك . واقف على اثر من قبلك من المرسلين فان الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضل عن سبيله ، قال: وهي طويلة لم يبق في حفظي منها غير هذا . »

سمعنا هذا كله فلنسمع ما نقل لنا عن المتنبي في هذا القرآن وفي هذه النبوة فهل اثبت على نفسه قرآنه ونبوته .

قال ابو علي بن حامد : وكان المتنبيء في مجلس سيف الدولة اذا ذكر له قرآنه هذا وامثاله مما كان يحكى عنه أنكره وجحده؛ وقال له ابن خالويه النحوي يوماً في مجلس سيف الدولة : لولا ان اخي جاهل لما رضي ان يدعى بالمتنبي، لان معنى المتنبيء كاذب ومن رضي ان يدعى بالكذب فهو جاهل . فقال لست ارضى ان أدعى بذلك وانما يدعوني به من يريد الغض مني ولست اقدر على المنع .

قال التنوخي : قال لي ابي : فاما انا فسألته بالاهواز عن معنى المتنبيء لأني اردت ان أسمع منه هل تنبأ اولا فجاوبني بجواب مغالط وقال: ان هذا شيء

كان في الحداثة فاستحييت أن استقصي عليه فامسكت .

وقال له بعض الاكابر في مدينة السلام : خبرني من اثق به انك قلت انك نبي فقال : الذي قلته : انا احمد النبي .

هذه جملة ما يتعلق من الأخبار بدعوى نبوة المتنبي ودعوى علويته ودعوى همه بالخروج وغير ذلك فيكاد يحار الانسان في الدعوى التي ثبتت عليه . وانا لنرى ابن جني وهو من اصحاب ابي الطيب يبين لنا سبب تلقيب احمد بالمتنبي . ونرى أبا عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقي يروي لنا قدوم المتنبي اللاذقية وادعاءه النبوة . ونرى كافوراً يصدق دعوى نبوة المتنبي . وهؤلاء كلهم من أهل عصر المتنبي . وانا لنرى ابا العلاء المعري يحدثنا عن ثقة باحاديث معجزات المتنبي وما بينه وبين ابي الطيب الا القليل من السنين . ونرى الانباري يتكلم في طبقاته على دعوى النبوة وكذلك الثعالبي وكذلك ابن خلكان اذ نرى الثعالبي نفسه يتكلم على هم المتنبيء بالخروج على السلطان . ونرى الانباري نفسه يتكلم على ادعاء المتنبيء العلوية . ونرى ابن خلكان يتكلم على امر آخر غير النبوة . وغير العلوية ويرجحه عليها ولا يذكره . ونرى المتنبيء نفسه اذا ذكرت له النبوة و القرآن ينكرهما مرة ويغالط مرة أخرى ويقول : ان هذا شيء كان في الحداثة فالانسان كما قلت لكم يحار في هذه الامور كلها وعلى الخصوص فان المتنبيء لم يصرح في شعره بالسبب الذي من أجله حبس وانما طلب الى الوالي ان لا يقبل زور الكلام وان لا يسمع من الكاشحين وان يفرق بين دعوى الارادة ودعوى الفعل :

فمالك تقبل زور الكلام ... وقدر الشهادة قدر الشهود
فلا تسمعن من الكاشحين ... ولا تعبأن بعجل اليهود
وكن فارقاً بين دعوى أردت ... ودعوى فعلت بشأو بعيد

فقد يجوز ان ابا الطيب أراد أمراً من الامور ولما همّ بهذا الامر أخفق ، فما هو هذا الامر ، فالذي يقع في خلدي ان الرجل قد شغله حب الملك قبل اعتقاله اي قبل ان تشيع دعوى من الدعاوى المذكورة وقصيدته التي قالها في صباه والتي اولها :

ضيف ألم برأسي غير محتشم

قد امتلأت من امانيه البعيدة في الملك

أيملك الملك والاسياف ظامئة … والطير جائعة لحم على وضم

من لو رآني ماء مات من ظمأ … ولو مثلت له في النوم لم ينم

ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا … ومن عصى من ملوك العرب والعجم

فان أجابوا فما قصدي بها لهم … وان تولوا فما أرضى لها بهم

وقد شغلته هذه الاماني كل عمره، فلا يبالي بالطرق التي من نحوها يأتيه هذا الملك سواء عليه أجاءه من طريق النبوة، ام من طريق العلوية، ام من طريق آخر فقد يجوز أن نفسه وسوست له ان تجعل النبوة سبيلا الى الملك، وعلى الخصوص بعد ان اجتمع له الشيء الكثير من أسباب التأثير في عقول الاعراب من جملتها خبرته بالارض وفصاحته حتى حكوا عنه انه مما كان يمخرق به على اهل البادية أنه كان مشاء، قوياً على السير يسير سيراً لا غاية بعده، وكان عارفاً بالفلوات ومواقع المياه ومحال العرب بها وكان يسير من حلة الى حلة بالبادية وبينهما مسيرة أربعة ايام فيأتي ماء فيغسل يديه ورجليه ووجهه ثم يأتي اهل تلك الحلة فيخبرهم عما حدث في تلك الحلة التي فارقها ويوهم ان الارض تطوى له، أفلا يجوز ان نفسه حدثته بطلب الملك بعد أن تهيأ له هذا كله وتهيأ له شيء أعظم من هذا وهو حسن البيان، وقد شهدوا له بفصاحته وأشار اليها في شعره فقال:

وكلمة في طريق خفت أعربها … فيهتدى لي فلم اقدر على اللحن

فالرجل مطبوع على الفصاحة والاعراب، كل هذا من الامور التي توطيء له السبيل الى الاستيلاء على عقول الاعراب، ولكنه ينقصه قوة العقيدة فلم يؤثر عنه انه كان متيناً في عقيدته، شديداً في دينه، وقد أوضح عن ضعف العقيدة، ورقة الدين في كثير من شعره، منه قوله:

تتقاصر الافهام عن إدراكه … مثل الذي الافلاك فيه والدنى

وقوله: لو كان علمك بالاله مقسما … في الناس ما بعث الاله رسولا

وقوله : او كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى

وقوله : يا من نلوذ من الزمان بظله ابدا ونطرد باسمه ابليسا

الى كثير من اشباه هذه الابيات ، فلما همّ بما اراد لم يتم له شيء من مراده ولعل الاعراب انفسهم الذين صحبهم في البادية هم الذين وشوا به

ومدقعين بسبروت صحبتهم عارين من حلل كاسين من درن

خرّاب بادية غرثى بطونهم مكن الضباب لهم زاد بلا ثمن

يستخبرون فلا اعطيهم خبري وما يطيش لهم سهم من الظنن

وكيف كان السبب الذي من اجله حبس فان المتنبيء متن بعض المتانة في حبسه فقال :

كن ايها السجن كيف شئت فقد وطنت للموت نفس معترف

لو كان سكناي فيك منقصة لم يكن الدر ساكن الصدف

ولكنه بعد ان قال هذين البيتين وهما هما في متانة الاخلاق والصبر على المكاره في سبيل مذهب من المذاهب او معتقد من المعتقدات خانه الصبر فضعف عزمه فقال للوالي :

أمالك رقي ومن شأنه هبات اللجين وعتق العبيد

دعوتك عند انقطاع الرجاء والموت مني كحبل الوريد

دعوتك لما براني البلاء واوهن رجلي ثقل الحديد

فاين توطين النفس للموت من هذه الاستغاثة ؟

٢٢ آذار سنة ١٩٣٠

حياة المتنبي

٨

أرى ان افضي اليكم بعد ان تكلمت على وطن ابي الطيب وعلى نسبه وعلى تحصيله وعلى روايات نبوته بجملة اخباره وهو في ديار الشام وفي ظلال سيف الدولة وفي مصر وفي العراق وفي بلاد فارس ، على ان تكون اخباره هذه متسلسلة ليس فيها شيء من الاقتضاب ، وكنت احب ان اختصر الكلام على هذه الاخبار حتى اصل الى الكلام على اخلاقه وروحه ولغته وشعره وبعض نظراته الفلسفية قبل انقضاء سنتنا . ولكني لا اجد لي مندوحة عن ان اروي لكم المهم من هذه الاخبار مما له تأثير في شعره ، فستجدون في الآتي ان ابا الطيب قد شكا الحسد في كثير من قصائده ، وستجدون ان الاخبار التي سأرويها لا تخلو من ارتباط بهذا الحسد الذي اكثر من الاشارة اليه في شعره . فالرجل كان محسوداً في جميع حالاته ، في فقره وفي غناه .

* * *

فلننظر الى حالة ابي الطيب قبل اتصاله بسيف الدولة ، فقد علمتم انه لما نسبوا اليه انه ادعى النبوة كان عمره سبع عشرة سنة . فكان في اول امره في خشونة من عيشه ورقة من حاله ، يعوزه كل شيء . يعوزه الناعم من الملابس والكريم من المطايا / توفي ابوه فقيراً فضرب المتنبيء في مناكب الشام التماساً للرزق وجال في البوادي والحواضر ومدح رجالا من منبج وطرابلس الشام وطرسوس وانطاكية وطبريا ودمشق وبعلبك ومر بحمص وبعقاب لبنان وغير ذلك من بادية الشام وحضرها :

(١) الفت ترحلي وجعلت ارضي قتودي والغريري الجـــلالا

فما حاولت في أرض مقاماً ولا ازمعت عن ارض زوالا
على قلق كأن الريح تحتي أوجهها جنوبا او شمالا

جال ابو الطيب في هذه الآفاق كلها ، ومدح فيها من أمّل نداه وكرمه فقد كان فقيراً شكا فقره وتنوعت شكاياته . فمرة كانت اعصابه تهيج في شكوى الفقر :

الى أي حين انت في زي محرم وحتى متى في شقوة والى كم

ومرة كانت هذه الأعصاب تهدأ بعض الهدوء :

لله حال أرجيها وتخلفني واقتضي كونها دهري ويمطلني

لم يكن للمتنبي في اول امره شيء من المطايا فلا مطية له الا النعل والخف ولا لباس له الا القطن الخشن :

لا ناقتي تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان أجهدها
شراكها كورها ومشفرها زمامها والشسوع مقودها

وقد أكثر من التنغم بقلة المطايا :

وحبيت من خوص الركاب باسود من دارش فغدوت امشي راكبا
حال متى علم ابن منصور بها جاء الزمان اليّ منها تائبا

نعم كان ابو الطيب يشكو الفقر على انه لم يقصر في طلب الرزق :

ضاق صدري وطال في طلب الرزق قيامي وقلّ عنه قعودي
ابداً أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في صعود
ولعلي مؤمل بعض ما أبلغ باللطف من عزيز حميد
لسريّ لباسه خشن القطن ومروي مروٍ لبس القرود

ولكن شعره كان يباع في سوق الكساد :

الى كم ذا التخلف والتواني وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد

فيحكى ان علي بن منصور الحاجب الذي امله ورجاه لم يعطه على

قصيدته التي فيه واولها :

بابي الشموس الجانحات غواربا

الا دينارا واحدا فسميت الدينارية

لم يقصر ابو الطيب في السعي ولكن آماله خابت عند من كان يمدحهم .

مدحت قوما و ان عشنا نظمت لهم قصائدا من أناث الخيل والحصن

فكم سعى الى حاجة ولم ينل منها شيئاً .

فقل في حاجة لم اقض منها على شغفي بها شروى نقير

وكم طلب الرزق لجدته ففاته هذا الرزق :

طلبت لها حظـــا ففاتت وفاتني وقدرضيت بي لو رضيت بها قسما

فلا ذنب له في هذا كله ، وانما الذنب يرجع الى الذين يذكرون له الجود فلا يحصل من جودهم الا على الكلام :

أرى أناساً ومحصولي على غنم و ذكرجود و محصولي على الكلم

على انه اذا ذم بعض ممدوحيه فقد حمد طائفة منهم لم يبخلوا عليه ، في جملتهم ابو العشائر .

هذه حاله وهو في ديار الشام ، شكا فيها كل شيء ، شكا فقره و اخفاقه في السعي ، و كساد شعره في اسواق بعض الممدوحين ، ومع هذا كله ما كان يخلو من حسد الحساد وشماتة الشامتين و كيد الكائدين ، نعم لم يخل من حسد الحساد :

فلو اني حُسدت على نفيس لجدت به لذي الجد العثور

ولكني حسدت على حياتي وماخير الحياة بلا سرور

ولم يخل من شماتة الشامتين ، حتى في المواطن التي لا تكون فيها الشماتة الا الأم اللؤم ، فقد شمتوا بموت جدته .

لئن لذّ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لأنفهم رغما

ولا خلا من كيد الكائدين :

ان الكذاب الذي أكاد به   أهون عندي من الذي نقله

* * *

فلنبحث عن اخبار المتنبيء وهو في ظلال سيف الدولة ، فهل استمر أبو الطيب في شكوى الفقر ، هل استمر في شكوى الحسد ؟

كان المتنبيء قبل اتصاله بسيف الدولة يمدح القريب والغريب و يصطاد ما بين الكركي والعندليب ، هكذا قال فيه الثعالبي وقد تحقق عندنا ذلك وبقيت هذه حالته الى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وهي السنة التي مدح فيها سيف الدولة وكان عمره حينئذ اربعاً و ثلاثين سنة .

كيف اتصل بسيف الدولة وكيف كانت منزلته عنده وكيف كان رأي بعض الشعراء ورجال الادب فيه وكم مكث في أفياء سيف الدولة وما هي الاسباب التي من أجلها فارق ابو الطيب سيف الدولة .

قال أبو عبد الله ياقوت الرومي :

ولم يزل المتنبيء بعد خروجه من الاعتقال في خمول وضعف حال حتى اتصل بأبي العشائر ومدحه بعدة قصائد ، فأكرمه ابو العشائر وعرف منزلته وكان ابو العشائر والي انطاكية من قبل سيف الدولة ولما قدم سيف الدولة انطاكية قدم المتنبيء اليه ، واثنى عنده عليه وعرّفه منزلته من الشعر والادب . واشترط المتنبيء على سيف الدولة اول اتصاله به انه اذا أنشده مديحه لا ينشده الا وهو قاعد ، وانه لا يكلف تقبيل الارض بين يديه ، فنسب الى الجنون ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط ، وتطلع الى ما يرد منه وذلك في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وحسن موقعه عنده فقربه واجازه الجوائز السنية ومالت نفسه اليه وأحبه فسلمه الى الرواض ، فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة . وحكي انه صحب سيف الدولة في عدة غزوات الى بلاد الروم ، منها غزوة العثاء التي لم ينج منها الا سيف الدولة بنفسه وستة أنفار أحدهم المتنبيء ، وأخذت الطرق عليهم الروم فجرد سيف الدولة سيفه وحمل على العسكر وفرّق الصفوف وبدّد الالوف .

هذا هو اول اتصاله بسيف الدولة ، فبعد ان كان يشكو شقوته وقلة مطاياه واخفاقه في السعي وكساد شعره ، انقلبت حاله لخار في كثرة خيله وخوله .

بالشرق والغرب أقوام نحبهم   فطالعاهم وكونا أبلغ الرسل
وعرفاهم باني في مكارمه   اقلّب الطرف بين الخيل والخول

لقد غرق ابو الطيب في مكارم سيف الدولة الباهرات حتى ترك السرى لمن لا مال له وانعل خيله ذهبا .

تركت السرى خلفي لمن قلّ ماله   وانعلت أفراسي بنعماك عسجدا

فكان سيف الدولة يعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار ما عدا الخيل والجواري والخلع والجوائز والاقطاعات .

أسير الى إقطاعه في ثيابه   على طرفه من داره بحسامه

من هذه الاقطاعات سبعين وهي قرية بباب حلب ؛ وصف وهي قرية بالمعرة وكان له وكيل يتوكل له في داره بحلب اسمه ابو سعيد ، فأين حاله هذه من شقوته التي كان فيها ولا مطية له الا قدماه ، ولا لباس له الا القطن الخشن ، ولئن تكلم ابو الطيب وهو عند سيف الدولة بلسان المياسير الاغنياء ، فستجدون انه سيتكلم بعد تركه سيف الدولة بلسان الملوك أصحاب العبيد . —

here

* * *

ولكن نعمة مثل هذه النعمة لا تنجي صاحبها من حسد الحساد وكيد الكائدين وعلى الخصوص اذا كان صاحب هذه النعمة قد زاحم غيره من الشعراء عليها ، وما أكثر الشعراء الواقفين بباب سيف الدولة ، وما أعظم الفرق بين منزلتهم ومنزلة ابي الطيب ، فكان من المنتظر ان يكثر حساد ابي الطيب . وان يموت بعضهم حسداً ، وما خلا عصر من العصور من حسد الحساد وكيد الكائدين .

فلنتقصّ أنباء الذين آلمهم ان يكون أبو الطيب في ظلال سيف الدولة .

منهم السري الرفاء فقد ذكروا انه لما سمع بيت المتنبي .

وخصر تثبت الابصار فيه   كأن عليه من حدق نطاقا

قال : هذا والله معنى ماقدر عليه المتقدمون ، ثم انه حم في الحال حسداً وتحامل الى منزله ومات بعد ثلاثة ايام (١)

ومنهم ابو العباس النامي ، فقد ذكروا ان سيف الدولة كان يميل اليه ميلا شديداً الى ان جاءه المتنبيء فمال عنه اليه فغاظ ذلك أبا العباس . فلما كان ذات يوم خلا بسيف الدولة وعاتبه وقال : الامير لِمَ يفضل علي ابن عيدان السقاء ؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه ، فلج وألح عليه وطالبه بالجواب ، فقال : لانك لا تحسن ان تقول كقوله :

يعود من كل فتح غير مفتخر ... وقد اغذ اليه غير محتفل

فنهض من بين يديه مغضباً واعتقد ان لا يمدحه ابداً ، وابو العباس هذا هو القائل كان قد بقي في الشعر زاوية دخلها المتنبيء .

ومنهم أبو فراس الحمداني فقد ذكروا انه قال لسيف الدولة : ان هذا المتشدق يعني المتنبيء كثير الادلال عليك وانت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد ويمكن ان تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره فأثر هذا الكلام في سيف الدولة وعمل فيه وكان المتنبيء غائباً فبلغته القصة ولما حضر دخل على سيف الدولة وانشده هذه الابيات :

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتباً ... فداه الورى أمضى السيوف مضاربا

ومالي اذا اشتقت ابصرت دونه ... تنائف لا اشتاقها وسباسبا

---

(١) هذه رواية الصبح المنبي والذي ذكره الثعالبي في يتيمته في كلامه على السري الرفاء ان السري لما توفي سيف الدولة ورد بغداد ومدح المهلبي الوزير وغيره من الصدور ، فالمعروف ان سيف الدولة كانت وفاته سنة ٣٥٦ اي بعد مقتل المتنبي بسنتين فهل كان حسد السري للمتنبي بعد وفاة المتنبيء ، ما أظن شيئاً من ذلك والبيت الذي حكوا عنه انه قتل السري قد أخذه السري نفسه وتصرف فيه فقال :

أحاطت عيون العاشقين بخصره ... فهنّ له دون النطاق نطاق

فرواية الصبح المنبي غير قاطعة .

وقد كان يدني مجلسي من سمائه   أحادث فيها بدرها والكواكبا
حنانيك مسؤولا ولبيك داعياً   وحسبي موهوباً وحسبك واهبا
أهذا جزاء الصدق ان كنت صادقاً   أهذا جزاء الكذب ان كنت كاذبا
فان كان ذنبي كل ذنب فانه   محا الذنب كل المحو من جاء تائبا

فأطرق سيف الدولة ولم ينظر اليه كعادته فخرج المتنبيء متغيراً وحضر ابو فراس وجماعة من الشعراء فبالغوا في الوقيعة في حق المتنبيء وانقطع ابو الطيب بعد ذلك ونظم القصيدة التي اولها :

واحرّ قلباه ممن قلبه شبم

ثم جاء وانشدها وجعل يتظلم فيها من التقصير في حقه بقوله :

مالي اكتم حباً قد برى جسدي   وتدعي حب سيف الدولة الامم
ان كان يجمعنا حب لغرته   فليت انا بقدر الحب نقتسم
قد زرته وسيوف الهند مغمدة   وقد نظرت اليه والسيوف دم

فهمّ جماعة بقتله في حضرة سيف الدولة لشدة ادلاله واعراض سيف الدولة عنه فلما وصل في انشاده الى قوله :

يا اعدل الناس الا في معاملتي   فيك الخصام وانت الخصم والحكم

قال ابو فراس قد مسخت قول دعبل :

ولست ارجو انتصافاً منك ماذرفت   عيني دموعاً وانت الخصم والحكم

قال ابو الطيب :

اعيذها نظرات منك صادقة   ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

فعلم ابو فراس انه يعنيه فقال : ومن انت يا دعي كندة حتى تأخذ اعراض الامير فاستمر في انشاده ولم يرد عليه الى ان قال :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا   بانني خير من تسعى به قدم
انا الذي نظر الاعمى الى ادبي   واسمعت كلماتي من به صمم

فزاد ذلك ابا فراس غيظاً وقال : قد سرقت هذا من عمرو بن عروة بن

العبد حيث يقول :

أوضحت من طرق الاداب ما اشتكلت دهراً واظهرت اعراباً وابداعا

حتى فتحت باعجاز خصصت به للعمي والصم ابصاراً واسماعا

ولما انتهى ابو الطيب الى قوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قال ابو فراس : وماذا ابقيت للامير اذا وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة والرياسة والسماحة ، تمدح نفسك بما سرقته من كلام غيرك وتأخذ جوائز الامير اما سرقت هذا من الهيثم بن الاسود النخعي الكوفي المعروف بابن العريان العثماني .

انا ابن الفلا والطعن والضرب والسرى وجرد المذاكي والقنا والقواضب

فقال ابو الطيب :

وما انتفاع اخي الدنيا بناظره اذا استوت عنده الانوار والظلم

وقال ابو فراس :

وهذا سرقته من قول معقل العجلي :

اذا لم أميز بين نور وظلمة بعيني فالعينان زور وباطل

ومنه قول محمد بن احمد بن أبي مرة المكي :

اذا المرء لم يدرك بعينه ما يرى فما الفرق بين العمي والبصراء

حتى غضب سيف الدولة من كثرة مناقشته في قصيدته هذه ودعاويه فيها فضربه بالدواة التي بين يديه فقال ابو الطيب :

ان كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا أرضاكم ألم

فقال ابو فراس : هذا أخذته من قول بشار :

اذا رضيتم بان نجفى وسركم قول الوشاة فلا شكوى ولا ضجرا

ومثله قول ابن الرومي :

اذا ما الفجائع اكسبنني رضاك فما الدهر بالفاجع

فلم يلتفت سيف الدولة الى ما قاله ابو فراس واعجبه بيت المتنبيء ورضي عنه في

الحال وأدناه وقبّل رأسه وأجازه بالف دينار ثم اردفها بالف اخرى ..

لم يقتصر ايلام ابي الطيب على الشعراء انفسهم وانما تعدى الشعراء الى بعض رجال اللغة ممن كان يضعّف اقوالهم في حضرة سيف الدولة .

من هؤلاء اللغويين ابو عبد الله بن خالويه النحوي فقد حكوا انه جرت مسألة في اللغة في حضرة سيف الدولة تكلم فيها ابن خالويه النحوي مع ابي الطيب اللغوي وكان المتنبي حاضراً فضعّف المتنبي قول ابن خالويه فاخرج ابن خالويه من كمه مفتاحاً حديداً ليلكم به المتنبيء ، فقال له المتنبيء اسكت ويحك فانك اعجمي وأصلك خوزي فمالك وللعربية فضرب المتنبيء بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه فغضب المتنبيء من ذلك اذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولا ولا فعلا .

فتصوروا مقدار إيلام المتنبيء لهؤلاء الرجال حتى ان واحداً منهم لم يستطع ان يملك نفسه ، ويضبط حركته في ساعة الغضب فيعمد الى اللكم والضرب وهذا منتهى الغيظ .

وقد كان لهذه الامور كلها أثر في شعر ابي الطيب ولئن شكا الحسد وهو في خشونة من العيش ، فاخلق به ان يضجر من حسد الحساد وهو يتقلب في ظلال النعيم فما غفل الحساد عن المتنبيء وهو في حضرة سيف الدولة ، ولا غفل المتنبيء عن شكوى الحسد فمن قوله لسيف الدولة :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم فانت الذي صيرتهم لي حسدا

ومن قوله له :

فابلغ حاسدي عليك اني كبا برق يحاول بي لحاقا

ومن قوله :

أعادى على ما يوجب الحب للفتى وأهدأ والافكار فيّ تجول
سوى وجع الحساد داو فانه اذا حلّ في قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسد في مودة وان كنت تبديها له وتنيل

من هذا يتبين لكم ان أبا الطيب قد استمر في شكوى الحسد ، ولقد اشتد حسد

الناس اياه وهو في ظلال سيف الدولة واشتدت الوقيعة فيه وأخذ سيف الدولة يعبث به بعد ذلك الاكرام، من ذلك ماحكاه ابو الفرج البيغا قال :

أذكر ليلة وقد استدعى سيف الدولة بدرة فشقها بسكين الدواة ، فمد ابو عبد الله بن خالويه طيلسانه فحثى فيه سيف الدولة صالحاً ومددت ذيل دراعتي فحثى لي جانباً والمتنبيء حاضر وسيف الدولة ينتظر منه ان يفعل مثل فعلنا فما فعل فغاظه ذلك فنثرها كلها على الغلمان فلما رأى المتنبيء أنه قد فاتته زاحم الغلمان يلتقط معهم فغمزهم عليه سيف الدولة فداسوه وركبوه وصارت عمامته في رقبته فاستحى ومضت به ليلة عظيمة فخاطب عبد الله بن خالويه سيف الدولة في ذلك فقال : يتعاظم تلك العظمة و ينزل تلك المنزلة لولا حماقته .

فصعب على ابي الطيب بعد هذه الامور كلها أن يستمر في حاشية سيف الدولة الشعراء يحسدونه و يوقعون فيه ، و يضربونه ، وسيف الدولة يهزأ به و يعبث ، وكان المتنبيء يشكو سيف الدولة وكان سيف الدولة يغتاظ من تعاظم المتنبي، و يجفو عليه اذا كلمه والمتنبيء يجبيه في اكثر الاوقات و يتغاضى في بعضها .

نعم كان يصعب على ابي الطيب ان يواظب على مجاس سيف الدولة بعد ان وقع بينه و بين الشعراء ما وقع فما وسع أبا الطيب الا مفارقة سيف الدولة وذلك في سنة ست وأربعين وثلثمائة فتكون مدة ملازمته له تسع سنين .

ولما عوتب المتنبيء في ترك سيف الدولة ومدح كافور قال :

حذرناه و أنذرناه فما نفع فيه الحذر ، ألست القائل فيه :

أبا الجود أعط الناس ماانت مالك ولا تعطين الناس ما انا قائل

فهو الذي أعطاني الى كافور بسوء تدبيره وقلة تمييزه ؟

٢٩ آذار سنة ١٩٣٠

حياة المتنبي

٩

لو سألنا أبا الطيب عن الاسباب التي من أجلها ترك سيف الدولة وقصد كافوراً لبيّنها لنا دون شيء من جمجمة الكلام، فانه لما أقام بمصر بعد الرحيل من حلب وستعلمون كيف كان ذلك؛ اتصل به ان قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة وبهذا تستدلون على انه لم ينج من حسد الحساد في قربه منهم وفي بعده عنهم حتى كانوا يتمنون موته فقال قصيدته التي اولها:

بم التعلل لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن

وفي هذه القصيدة عرّض بسيف الدولة فقال:

رأيتكم لا يصون العرض جاركم ... ولا يدر على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل ... وحظ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفدكم ... حتى يعاقبه التنغيص والمنن

هذا ما حمله على الانزعاج عن سيف الدولة وفي هذا الشعر من القوارص ما فيه فلم يصن سيف الدولة عرض المتنبي ولم تسلم نعمته عليه من المنة والاذى

ولكن هذه النعمة قد سلمت في بعض الاوقات من الكدر والمن فليت أبا الطيب تذكر قوله لسيف الدولة وهو في أفيائه:

أنت الجواد بلا منٍّ ولا كدر ... ولا مطال ولا وعد ولا مذل

غير ان هذا القول قاله المتنبي سنة احدى وأربعين وثلاث مائة اي قبل ان يفارق سيف الدولة بخمس سنين أفكانت نعم سيف الدولة في ذاك التاريخ سالمة من التنغيص والمن ام لم تسلم من شيء من ذلك وكان ابو الطيب يضمرها في قلبه ؟

وهو يعلم في باطنه ان سيف الدولة احفى الناس به :

ولله سيري ما أقل تئيّة عشية شرقيّ الحدالى وغرّب
عشية احفى الناس بي من جفوته واهدى الطريقين التي أتجنب

ومع هذا جفاه . وفارقه لما شكا من أمره ما شكاه .

الى أين صار المتنبي بعد ان ترك سيف الدولة وكيف اتصل بكافور ، وفي اي شيء كان يطمع وهو في مصر ، وهل خشي كافور جانبه فأضمر له الشر ، هل سلم المتنبيء من عداوة بعض الناس في مصر ، هل استمر في شكوى الحسد ، كيف هرب ابو الطيب من مصر ، هل استماله سيف الدولة اليه بعد رجوعه الى الكوفة ، ماذا لقي المتنبيء في بغداد من عداوة الادباء والوزراء ، كيف هرب من بغداد ، اين قصد بعد تركه دار السلام ، هل استطاب المتنبيء اقامته بظل عضد الدولة في بلاد العجم ، كيف قتل ابو الطيب ، كيف همدت هذه الروح المضطربة التي ما ذاقت لذة الهدوء في يوم من الايام ، ولا عرفت نعمة السكون في ساعة من الساعات ؟

الى أين صار المتنبيء بعد مفارقته سيف الدولة وكيف وصل الى كافور ؟ جاء في الصبح المنبيء ما يلي :

« ولما عزم ابو الطيب على الرحيل من حلب وذلك في سنة ست واربعين وثلاثمائة لم يجد بلداً أقرب اليه من دمشق لان حمص كانت من بلاد سيف الدولة فسار الى دمشق ، والقى بها عصا التسيار وكان بدمشق يهودي يعرف بابن ملك من قبل كافور ملك مصر فالتمس من المتنبيء ان يمدحه فثقل عليه ، فغضب ابن ملك وجعل كافور الاخشيدي يكتب في طلب المتنبيء من ابن ملك فكتب اليه ابن ملك ان ابا الطيب قال : لا أقصد العبد ، وان دخلت مصر فما قصدي الا ابن سيده ثم نبت دمشق بابي الطيب ، فسار الى الرملة فحمل اليه اميرها الحسن بن طغج هدايا نفيسة وخلع عليه وحمله على فرس بموكب ثقيل وقلده سيفاً محلى . وكان كافور الاخشيدي يقول لاصحابه أترونه يبلغ الرملة ولا يأتينا وأخبر المتنبيء انه واجد عليه ، ثم كتب كافور في طلبه من امير الرملة فسار اليه » .

فقبل ان يتصل المتنبي بكافور اتصل بامير الرملة الحسن بن طغج فمدحه، وفي هذه القصيدة يقول :

وفارقت شر الارض اهلا وتربة بها علوي جده غير هاشم

فمن هو هذا العلوي الذي غضب عليه المتنبيء، والظاهر ان جماعة هددوه، وهم علويون فأشار اليهم في قصيدة ثانية يقولها في ابي القاسم طاهر العلوي :

أتاني وعيد الادعياء وانهم أعدوا لي السودان في كفر عاقب

ولو صدقوا في جدهم لحذرتهم فهل فيَّ وحدي قولهم غير كاذب

اليَّ لعمري قصد كل عجيبة كأني عجيب في عيون العجائب

فما كاد يسلم المتنبيء من حاشية سيف الدولة، حتى أتاه وعيد آخر، فكأن بينه وبين المصائب صلة رحم، فلننظر اليه وهو في حضرة كافور فهل نجا من هذه المصائب ؟

لما قدم ابو الطيب على كافور الاخشيدي أمر له بمنزل، ووكل به جماعة واظهر التهمة له وطالبه بمدحه فلم يمدحه فخلع عليه فقال يمدحه بقصيدته التي اولها :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكن أمانيا

وأنشده اياها في جمادى الآخرة سنة ست واربعين وثلاثمائة ولئن كان المتنبيء لا ينشد مديحه في سيف الدولة الا وهو قاعد، فانه كان يقف بين يدي كافور وفي رجله خفان وفي وسطه سيف ومنطقة ويركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق وكان لا يجلس في مجلس كافور .

هكذا اتصل المتنبيء بكافور الاخشيدي، ولكنه في هذه المرة سمت به نفسه الى أفق أبعد من أفق المال، فلم يقتصر على الرغبة في عسجد يستفيده وانما امتدت هذه الرغبة الى المفاخر .

وما رغبتي في عسجد استفيده ولكنها في مفخر استجده

واعرب عن طمعه هذا في اول قصيدة قالها في كافور :

وغير كثير ان يزورك راجل فيرجع ملكاً للعراقين واليا

نعم لم يكن لقلبه في هذه المرة مدى ينتهي به في مراد من المرادات :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ... ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبيّ ماله ... مدى ينتهي بي في مراد احده

وقد أكثر من المصارحة بما في نفسه :

فان نلت ما أملت منك فربما ... شربت بماء يعجز الطير ورده
ووعدك فعل قبل وعد لانه ... نظير فعال الصادق الوعد فعله

وألح على كافور في قضاء هذه الحاجة التي شغلت باله :

اذا لم تنط بي ضيعة او ولاية ... فجودك يكسوني وشغلك يسلب

واستنجزه وعده :

ارى لي بقربي منك عيناً قريرة ... وان كان قرباً بالبعاد يشاب
وهل نافعي ان ترفع الحجب بيننا ... ودون الذي املت منك حجاب
وفي النفس حاجات وفيك فطانة ... سكوتي بيان عندها وخطاب

طمع المتنبي في الولاية فسأل كافوراً ان يوليه صيداء من بلاد الشام او غيرها من بلاد الصعيد وكان كافور قد وعده بان يبلغه جميع ما في نفسه ولكنه خاف جانبه وتهيب امره فقال له : انت في حالة الفقر وسوء الحال، وعدم المعين، سمت بك نفسك الى النبوة فان اصبت الولاية وصار لك اتباع فمن يطيقك ؟ ثم وقعت الوحشة بينهما ووضع عليه العيون والارصاد خوفاً من ان يهرب واحسّ المتنبيء بالشر .

ولم يخل ابو الطيب وهو في ظلال كافور من جماعة كانوا يبغضونه ويوغرون صدر كافور، وفي جملتهم ابن حرابة وزير كافور والمقرب منه، وقد كان المتنبيء ترك مدحه ؛ فكان ابن حرابة يشيع استهزاء المتنبي بكافور في مدائحه . والحقيقة ان ابا الطيب قد سخر من كافور في كثير من باطن مدحه وظاهره . فمن قوله :

وما طربي لما رأيتك بدعة ... لقد كنت ارجو ان اراك فأطرب

فجعل كافوراً بدعة من البدع حتى قال ابن جني : لما قرأت على ابي الطيب

هذا البيت قلت له ما زدت على ان جعلت الرجل أبازنة وهي كنية القرد فضحك .
ومن قوله :

ويغنيك عما ينسب الناس انه　　اليك تناهى المكرمات وتنسب

وهذا البيت ظاهره أبلغ المديح ولكن باطنه لا يخلو من غمزة اليمة .

وقد أشار المتنبيء الى سواد كافور في كثير من شعره وهو يعلم ان ذكر لون السواد على مسامع كافور امرّ من الموت فمن قوله :

ان في ثوبك الذي المجد فيه　　لضياء يزري بكل ضياء
انما الجلد ملبس وابيضاض　　النفس خير من ابيضاض القباء

وهذان البيتان فيهما تعريض بسواد كافور واصرح منهما :

من لبيض الملوك ان تبدل اللون　　بلون الاستاذ والسحناء

فلا يبعد ان ابن حرابة كان يذيع مهزأة المتنبي بكافور حتى يكيد له ، فما اشبه ما كان يقع لابي الطيب وهو عند كافور بما كان يقع له وهو عند سيف الدولة من ابتغاء الغوائل به وكان ابو الطيب وهو في مجالس كافور يتعرض للادباء والشعراء فيجلب عداوتهم لنفسه ، في جملة هؤلاء الشعراء ابو القاسم بن ابي العقير الانصاري فقد عارضه المتنبيء بحضرة كافور في قصيدته الميمية التي اولها :

نظر المحب الى الحبيب غرام

فقال له : العرب لا تقول اليه غرام وانما تقول : له ، فقال له الانصاري العرب تقول اليه ولديه وله وحروف الخفض ينوب بعضها عن بعض ؛ والوزير ابو بكر بن صالح الروزباذي حاضر والوزير ابو الفضل جعفر بن الفرات حاضر ، فقال الانصاري قصيدة منها هذان البيتان يعرض فيهما بالمتنبيء :

لما تعرض لي بمقت حاسد　　ابدى الملام وكيف يرضى الحاسد
ما زال ينشد قائماً حتى اذا　　انشدت عارضني لاني قاعد

* * *

لم يستطع المتنبي بعد هذا كله ان يطيل الاقامة بمصر ، ولعل مدحه لابي شجاع

فاتك المعروف بالمجنون قد زاد في حنق كافور وان كان كافور قد أذن له في مدحه، فان في القصيدة التي مدحه بها بيتاً يحمل كافوراً على الشك في امر المتنبي :

وان تكن محكمات الشكل تمنعني   ظهور جري فلي فيهن تصهال

وقد قال الواحدي في تفسير هذا البيت : ان لم اقدر على المكاشفة بنصرتك على كافور فاني امدحك الى اوان ذلك كما ان الجواد اذا شكل عن الحركة صهل شوقاً اليها :

من اجل هذا كله فكر المتنبي في الخروج من مصر وقد حثه احد معارفه على الهرب فآخر قصيدة قالها في كافور :

منى كن لي ان البياض خضاب   فيخفى بتبييض القرون شباب

وانقطع ابو الطيب بعد انشاده هذه القصيدة لا يلقى الاسود الا ان يركب فيسير معه في الطريق ثم عجل الرحيل وقد اعد كل ما يحتاج اليه على مر الايام بلطف ورفق ولا يعلم به احد من غلمانه وهو يظهر الرغبة في المقام وطال عليه التحفظ فخرج ودفن الرماح في الرمال وحمل الماء على الابل لعشر ليال وتزود لعشرين فكان خروجه من مصر سنة خمسين وثلاثمائة فاقام بمصر اربع سنين بوجه التقريب وفي يوم عرفة أي قبل مسيره بيوم واحد قال قصيدته :

عيد باية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لامر فيك تجديد

وفي هذه القصيدة بيت يدل على استمرار الناس في حسده وعلى ايلام هذا الحسد اياه :

ما ذا لقيت من الدنيا واعجبه   اني بما انا شاك منه محسود

هرب ابو الطيب من مصر في يوم العيد من سنة خمسين وثلاثمائة، واخفى طريقه فلم يظهر له اثر وبذل كافور في طلبه ذخائر الرغائب وكتب الى عماله وسائر اعماله فأخفق .

ضرب المتنبي في البوادي في طريقه الى الكوفة ومر باماكن ومياه كثيرة ذكرها في قصيدته التي اولها :

الا كل ماشية الخيزلى فدى كل ماشية الهيذبى

ولكن عبيده تنكروا له في الطريق وفسدت نياتهم واخذوا يسرقون له الشيء بعد الشيء من رحله وذلك ان ابا الطيب لما نزل في طريقه الى الكوفة في حسمى برجل يقال له وردان الطائي استغوى وردان عبيد ابي الطيب فلما شعر المتنبي بذلك ضرب احد عبيده بالسيف فأصاب وجهه وامر الغلمان فأجهزوا عليه، والى ذلك أشار في هجاء وردان :

أشذ بعرسه عني عبيدي فأتلفهم ومالي أتلفوه
فإن شقيت بأيديهم جيادي لقد شقيت بمنصلي الوجوه

تنكر عبيده له وربما أضمروا تسليمه فتركهم في ذات ليلة نياماً وشد على الجمال وسار والقوم لا يعلمون برحيله حتى توسط بسيطة وهي أرض تقرب من الكوفة فرأى بعض عبيده نوراً يلوح فقال : هذه منارة . ونظر آخر الى نعامة فقال : هذه نخلة فضحك ابو الطيب وقال :

بسيطة مهلاً سقيت القطارا تركت عيون عبيدي حيارى
فظنوا النعام عليك النخيل وظنوا الصوار عليك المنارا

ومن هذا يتبين لكم ما كنت قلته من ان ابا الطيب أخذ يتكلم بكلام الملوك، فقد صار له عبيد وغرق في المكارم .

ومازال يضرب في البوادي حتى وصل الى الكوفة فأناخ وركز رماحه بين المكارم والعلى :

فلما أنخنا ركزنا الرما ـ ح بين مكارمنا والعلى
وبتنا نقبّل أسيافنا ونمسحها من دماء العدى

هل طمع سيف الدولة في عودة المتنبيء اليه بعد رجوعه الى الكوفة ؟

لما عاد ابو الطيب الى الكوفة وأقام فيها تحركت نفس سيف الدولة فشاقتها قلائد المتنبيء فانفذ سيف الدولة ابنه من حلب الى الكوفة ومعه هدية الى المتنبيء وهذا ما يدلنا على تعلق سيف الدولة بابي الطيب فكأن أمير حلب ندم على مافات

فأحب ان يصلح ما أفسده، فمدحه ابو الطيب وكتب بقصيدته التي أولها :

مالنا كلنا جو يارسول　　انا أهوى وقلبك المتبول

اليه من الكوفة سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة اي بعد ان انقطعت مدائحه فيه مدة ست سنين، وفي هذه القصيدة ما يدل على ان في قلب ابي الطيب بقية محبة لسيف الدولة وان وقع بينهما ما وقع :

من عبيدي ان عشت لي الف　　كافور ولي من نداك ريف ونيل

ولما توفيت اخت سيف الدولة بميافارقين وورد خبرها الى الكوفة عزاه بها المتنبي وكتب بقصيدته اليه سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة، وفي هذه القصيدة أحب المتنبيء ان ينفي عن نفسه الظن بفتور محبته لسيف الدولة فقال :

يظن ان فؤادي غير ملتهب　　وان دمع جفوني غير منسكب

بلى وحرمة من كانت مراعية　　لحرمة المجد والقصاد والادب

والقصيدة فياضة بشعور ابي الطيب .

ولكن سيف الدولة لم تكفه مدائح المتنبيء عن بعد فانه طمع في رجوعه الى ظلاله فأنفذ اليه كتابا بخطه الى الكوفة يسأله المسير اليه فأجابه بقصيدة أرسلها اليه في ميافارقين وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة واعتذر المتنبيء عن الالتحاق بسيف الدولة وقال :

وما عاقني غير خوف الوشاة　　وان الوشايات طرق الكذب

وتكثير قوم وتقليلهم　　وتقريبهم بيننا والخبب

وقد كان ينصرهم سمعه　　وينصرني قلبه والحسب

وعاتب سيف الدولة على شدة محبته إياه وعلى قلة حظه منه في هذه المحبة والابيات كلها تعريض بالماضي :

وليت شكاتك في جسمه　　وليتك تجزي ببغض وحب

فلو كنت تجزي به نلت منك　　أضعف حظ باقوى سبب

اقام المتنبيء بالكوفة بعد رجوعه من مصر مدة سنتين بوجه التقريب أي من

سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة الى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ثم توجه نحو بغداد فوقع بينه وبين ابي علي الحاتمي ما وقع «١» فالظاهر ان ابا الطيب لما قدم دار السلام عظم احتقاره لغيره من الناس فثقلت وطأته على أهل الادب وكان ابو علي الحاتمي قد قصده في مجلسه فلم يبال به المتنبيء واعرض عنه استصغاراً لشأنه فكاد ابو علي يتميز غيظاً؛ حتى انبرى له وبالغ في تعنيفه فاعتذر المتنبيء عن ذنبه وأقبل كل منهما على صاحبه ثم أخذ ابو علي ينقد بعض شعر المتنبيء واشتد جدالهما ثم تصافيا في آخر المجلس وتأكدت بينهما الصحبة، وصار ابو علي يتردد الى ابي الطيب أحياناً.

ولما نجا المتنبيء من شر ابي علي وقع في شر الوزير المهلبي في بغداد وفي شر معز الدولة نفسه لان معز الدولة ساءه ان يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوه ولان الوزير المهلبي ساءه ترفع ابي الطيب عن مدحه ذهاباً بنفسه عن مدح غير الملوك فشق ذلك على المهلبي فأغرى به شعراء بغداد على ما قال الثعالبي حتى نالوا من عرضه وتباروا في هجائه واسمعوه ما يكره وتماجنوا به وتنادروا عليه فلم يجبهم ولم يفكر فيهم وقيل له في ذلك فقال اني فرغت من اجابتهم بقولي لمن هم ارفع طبقة منهم في الشعر:

أرى المتشاعرين غروا بذمي — ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض — يجد مراً به الماء الزلالا

وقولي:

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر — ضعيف يقاويني قصير يطاول
لساني بنطقي صامت عنه عادل — وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
وأتعب من ناداك من لا تجيبه — واغيظ من عاداك من لا تشاكل

وقولي:

واذا أتتك مذمتي من ناقص — فهي الشهادة لي باني كامل

---

(١) تفصيل الخبر في الصبح المنبي

هكذا كانت معاملة الشعراء لابي الطيب في بغداد على ما وصفها الثعالبي فلم يسع المتنبيء الا الهرب من بغداد .

فاتخذ الليل جملا وفارق دار السلام متوجهاً الى حضرة ابي الفضل بن العميد وزير ركن الدولة وقد كان ابن العميد راسله من ارّجان فسار اليها مراغماً للمهلبي الوزير فورد ارّجان واحمد مورده وذلك في صفر سنة اربع وخمسين وثلاثمائة .

وقد كان ابو الطيب في مدحه لابن العميد يتهيبه لمنزلة ابن العميد في الادب فمن قوله فيه :

ما كفاني تقصير ما قلت فيه عن علاه حتى ثناه انتقاده
انني أصيد البزاة ولكن اجلّ النجوم لا اصطاده
رب ما لا يعبر اللفظ عنه والذي يضمر الفؤاد اعتقاده
ما تعودت ان أرى كأبي الفضل وهذا الذي أتاه اعتياده

وحكي ان ابا الطيب دخل مجلس ابن العميد وكان يستعرض سيوفاً فنهض ابن العميد من مجلسه وأجلسه في دسته ثم قال له اختر سيفاً من هذه السيوف فاختار منها واحداً ثقيل الحلى ، واختار ابن العميد غيره ، فقال كل واحد منهما سيفي الذي اخترته أجود ثم اصطلحا على تجربتهما فقال ابن العميد : فبماذا تجربهما ؟ فقال ابو الطيب في الدنانير يؤتى بها فينضد بعضها على بعض ثم تضرب به فان قدها فهو قاطع فطلب ابن العميد عشرين ديناراً فنضدت ثم ضربها ابو الطيب فقدها وتفرقت في المجلس فقام من مجلسه المفخم يلتقط الدنانير المتبددة فقال ابن العميد ليلزم الشيخ مجلسه فان احد الخدم يلتقطها ويأتي بها اليك فقال ابو الطيب : بل صاحب الحاجة اولى .

ثم ورد عليه كتاب عضد الدولة يستزيره فودع ابو الطيب ابن العميد سنة اربع وخمسين وثلاثمائة وقصد ابا شجاع عضد الدولة وقد كان الصاحب طمع في زيارة المتنبيء اياه باصبهان على ما ذكره الثعالبي واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان وهو اذ ذاك شاب وحاله حويلة ولم يكن استوزر بعد ، وكتب

اليه يلاطفه في استدعائه وضمن له مشاطرته جميع ماله فلم يقم له المتنبي وزناً ولم يجبه عن كتابه ولا الى مراده فاتخذه الصاحب غرضاً يرشقه بسهام الوقيعة ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته وينعى عليه سيئاته وهو اعرف الناس بحسناته وأحفظهم لها واكثرهم استعمالاً لها وتمثلاً بها في محاضراته ومكاتباته .

لم يعرج ابو الطيب على حضرة الصاحب وانما قصد عضد الدولة بشيراز وكان ابو علي الفارسي اذ ذاك بشيراز وكان ممر المتنبيء الى دار عضد الدولة على دار ابي علي الفارسي فكان اذا مر به ابو الطيب يستثقله على قبح زيه وما يأخذ به نفسه من الكبرياء ، وكان لابن جني هوى في ابي الطيب فهو كثير الاعجاب بشعره لا يبالي باحد يذمه او يحط منه ، وكان يسوءه اطناب ابي علي في ذمه حتى ذكر ابن جني ابياتاً من شعر ابي الطيب فاستحسنها ابو علي واستعادها وكثر اعجابه بها واستغرابه لمعناها ولما علم ابو علي الفارسي ان المتنبيء هو قائل هذه الابيات نهض ودخل على عضد الدولة فأثنى على ابي الطيب ولما جاز به استنزله واستنشده وكتب عنه ابياتاً .

وكأن ابا الطيب قد استطاب الاقامة بظل عضد الدولة فقد انجحت سفرته على ما ذكره الثعالبي وربحت تجارته بحضرته ووصل اليه من صلاته اكثر من مائتي الف درهم ثم استأذنه في المسير عنه ليقضي حوائج نفسه ثم يعود .

لعل الله يجعله رحيلا   يعين على الاقامة في ذراكا

فأذن له وأمر بان تخلع الخلع الخاصة ويقاد اليه الحملان الخاص وتعاد صلته بالمال الكثير فامتثل ذلك وانشده ابو الطيب في اول شعبان سنة اربع وخمسين وثلاثمائة الكافية التي هي آخر شعره وفي اضعافها كلام جرى على لسانه كأنه ينعى فيه نفسه منه قوله :

واني شئت يا طرقي فكوني   أذاة او نجاة او هلاكا

جعل قافية الهلاك فهلك وذلك انه سار من واسط يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة اربع وخمسين وثلاثمائة ومعه ابنه محسد وغلامه

ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والفضة والطيب والتجملات النفيسة والكتب الثمينة والآلات لانه كان اذا سافر لم يخلف في منزله درهماً ولا شيئاً يساويه فتعرض له فاتك خال ضبة الذي هجاه المتنبيء بقصيدته المشهورة (١)

ما انصف القوم ضبة

وقد كان داخلته الحمية لما سمع ذكر اخته بالقبح في شعره، واتصل به انصراف المتنبيء من بلاد فارس وتوجهه الى بلاد العراق وعلم ان اجتيازه بجبل دير العاقول فجمع عشرين رجلا من بني عمه فقتله بضيعة تقرب من دير العاقول في يوم الاربعاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان وقتل ابنه محسد وغلامه فوجه احد معارف المتنبيء واسمه ابو النصر من دفنه ودفن ابنه وغلامه وذهبت دماؤهم هدراً.

وقد كان ابو النصر هذا نصح للمتنبيء أن يكون معه في الطريق جماعة يمشون بين يديه الى بغداد وذكر ماعزم عليه فاتك من التعرض له والعزم على قتله ووافق غلام المتنبيء على رأي ابي النصر فقطب أبو الطيب وجهه واغتاظ من غلامه غيظاً شديداً وشتمه شتماً قبيحاً، فقال له ابو النصر: انا أوجه من قبلي قوماً في حاجة يسيرون بمسيرك وهم في خفارتك فابى ابو الطيب فكان من أمره ما كان.

وقيل سبب قتله انه لما ورد على عضد الدولة ومدحه وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراس مسرجة محلاة دس عليه عضد الدولة من يسأله: أين هذا من عطاء سيف الدولة فقال: ان سيف الدولة كان يعطي طبعاً وعطاء عضد الدولة تطبعاً فغضب عضد الدولة فلما انصرف جهز اليه قوماً من بني ضبه فقتلوه بعد ان قاتل قتالا شديداً ثم انهزم فقال له غلامه: اين قولك:

الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال: قتلتني قتلك الله ثم قاتل حتى قتل.

وقيل ان الخفراء جاؤه وطلبوا منه خمسين درهماً ليسيروا معه فمنعه الشح فتقدموه ووقع به ما وقع.

(١) تفصيل الخبر في الصبح المنبي.

ولما قتل رثاه ابو القاسم مظفر بن المظفر بن الطبسي ، ورثاه ثابت بن هارون الرقي النصراني ، وابو الفتح عثمان بن جني .

هكذا كانت خاتمة إحدى وخمسين سنة انقضت في قلق واضطراب ، هكذا كانت خاتمة قلب ماله مدى ينتهي بصاحبه في مراد من المرادات لقد همدت هذه الروح التي جالت فيها أفكار الناس مدة الف سنة ونيف ؟

١٢ نيسان سنة ١٩٣٠

المحاضرة الثامنة عشرة

اخلاق المتنبي

١٠

ليس من المستسهل ان أخوض في شيء من الكلام على أخلاق المتنبي وعلى طبائعه وعلى الخصوص فان ابا الطيب لم يكتب ترجمته بقلمه وان اهل عصره لم يمض لهم قول واف في هذا الباب فلا نعرف هيئته ولا نعرف تركيب خلقته ولو كنا نحيط بطائفة من هذا الامر لاستطعنا ان نستدل بذلك بعض الاستدلال على معرفة اخلاق المتنبي وطبائعه؛ فما وصل الينا من أقوال أهل زمانه في هذا الموضوع لا ينقع غليلا .

ان أبا عبد الله معاذ بن اسمعيل اللاذقي لما قدم عليه المتنبي في سنة عشرين وثلاث مائة أي لما كان عمره سبع عشرة سنة وصفه فقال : قدم اللاذقية وهو لا عذار له، وله وفرة الى شحمتي أذنيه، فاكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته وأضاف الى هذا كله انه لم يسمع منه كلمة هزل قط .(١)

والذي أعلمنا به ابو الفرج وقد كان ابو الطيب يأنس به ويأمنه على غيبته ان سيف الدولة كان يغتاظ من تعاظم المتنبي

وقد عاتب ابو عبد الله بن خالويه سيف الدولة لما غمز غلمانه على المتنبي فقال له سيف الدولة : يتعاظم تلك العظمة وينزل تلك المنزلة لو لا حماقته

وحكي عن أبي حمزة البصروي انه بلا من ابي الطيب خلالا محمودة منها عفة المذهب والصدق وبلا منه ثلاث خلال ذميمة وذلك انه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن .

(١) جاء في رسالة الغفران في الصفحة ١٣٥ ما يلي : وحدثت ان ابا الطيب

ووصفه ابن فورجه فقال فيه: كان داهية مرّ اللسان شجاعاً حافظاً للآداب عارفاً باخلاق الملوك ولم يكن فيه ما يشينه و يسقطه الا بخله و شرهه على المال.

والذي دلنا عليه الوحيدي أن المتنبي كان سيء الرأي وسوء رأيه اخرجه من حضرة سيف الدولة وعرّضه لعداوة الناس.

وقد ذكر ابو علي الحاتمي ان ابا الطيب المتنبي عند وروده مدينة السلام قد التحف برداء الكبر والعظمة فلا يرى احداً الا و يرى لنفسه مزية عليه حتى ثقلت وطأته على أهل الادب بمدينة السلام وبلغ من شذوذه انه لبس مرة سبعة اقبية ملونة وكان الوقت أحر ما يكون من الصيف وأحق بتخفيف اللبس وشهد له ابو علي هذا بالفضيلة وصفاء الذهن وجودة القدح

وكان ابو علي الفارسي قبل معرفته بالمتنبي يستثقله على قبح زيه وعلى ما كان يأخذ به نفسه من الكبرياء.

***

هذا ما تناهى الينا من وصف بعض ظواهر المتنبي وبواطنه بوجه التقريب ولم يكن في مختلف هذا الوصف شيء من الخروج من المقدار، فمن المحقق ان الرجل كان قليل الميل الى الهزل فان روحاً مثل روحه نزاعة الى العظمة والعلو لا شأن لها في الهزل فقد كانت حياته جداً كل الجد ليس فيها متسع للهزل وان رجلا يضرب في مناكب الارض، بواديها وحواضرها ابتغاء لامر جلّ ان يسمى:

يقولون لي ما انت في كل بلدة   وما تبتغي، ما ابتغي جلّ ان يسمى

ان رجلا هذا هو مطمعه في الحياة لا يجد لغير الجد معنى، ولئن عبث في قوله وقد مر برجلين قد قتلا جرذاً وابرزاه يعجبان الناس من كبره:

وايكما كان من خلفه   فان به عضة في الذنب

- ايام كان اقطاعه بصف روي يصلي بموضع بمعرة النعمان يقال له كنيسة الاعراب وانه صلى ركعتين وذلك في وقت العصر فيجوز ان يكون رأى انه على سفر وأن القصر له جائز.

أو في قوله الآخر :

اذا شاء ان يلهو بلحية احمق   اراه غباري ثم قال له : الحق

فما كان العبث من مذهبه

ومن المحقق ان ابا الطيب كان صادقاً عفيف المذهب :

ومن هوى الصدق في قولي وعادته   رغبت عن شعر في الرأس مكذوب

فلسنا نجد في اضعاف شعره نزعة الى اللهو والطرب فقد كان ينظر الى الحياة من ناحيتها السوداء وقلما نظر اليها من الناحية البيضاء اللامعة ، فما تغنى في شعره بشيء من نضارة الحياة ولذتها وانما اعرب في شعره عن الالم ، وقلما يجتمع اللهو وألم النفس ، وللهو نفوس لا سبيل للالم اليها ، اما الابيات التي تدل على ألم روحه فهي كثيرة فمنها :

فؤاد ما تسليه المدام   وعمر مثل ما تهب اللئام

ومنها :

رماني الدهر بالارزاء حتى   فؤادي في غشاء من نبال

فصرت اذا اصابتني سهام   تكسرت النصال على النصال

ولقد اكثر من الاشارة الى تضافر المصائب ، فمن قوله في مصر وقد اصابته حمى :

أبنت الدهر عندي كل بنت   فكيف وصلت انت من الزحام

وفي هذه القصيدة يقول :

وان اسلم فما أبقى ولكن   سلمت من الحِمام الى الحِمام

فحياته في نظره موت له فما اقل سروره !

وقت يضيع وعمر ليت مدته   في غير امته من سالف الامم

أتى الزمان بنوه في شبيبته   فسرّهم واتيناه على الهرم

على انه قد جاء في شعره ما يدل على ذوقه شيئاً من اللذات فمنه قوله :

درّ درّ الصباء ايام تجريـ   ـر ذيولي بدار أثلة عودي

ومنه قوله :

انعم ولذة فللامور اواخر ابداً اذا كانت لهن اوائل
ما دمت من أرب الحسان فانما روق الشباب عليك ظل زائل
للهو آونة تمر كأنها قبل يزودها حبيب راحل

ولكن مذهبه في اللذات العفة التامة

اني على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سراويلاتها
وترى المروة والفتوة والابوة فيّ كل مليحة ضراتها
هن الثلاث المانعاتي لذتي في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

نعم هذا هو مذهبه: المروة والفتوة والابوة، وان بيتاً مثل هذا البيت .

اذا كان الشباب السكر والشيـ ـب هماً فالحياة هي الحِمام

لا يصدر عن قلب قضى صاحبه شرخ الشباب في شيء من اللهو وفي شيء من توابع اللهو. فما أصدقه في هذا الكلام :

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه

****

أما شجاعته فلا ريب فيها وان رجالا يقولون له: كنت لك جماعة تريد بك الشر فخذ معك من يسير بين يديك فيغتاظ من هذا القول غيظاً شديداً ويقول: والله لا أرضى ان يتحدث الناس باني سرت في خفارة أحد غير سيفي ان رجلا مثل هذا يحذرونه من الموت فلا يبالي بتحذيرهم ، استصغاراً لشأن الموت واحتقاراً لمن كمن له ، فيقع في الذي حذروه منه ، لا يدخل الخوف قلبه ولقد اعانه على هذه الشجاعة صحبته للاعراب وألفته لغزوهم وسيره في البوادي ومصاحبته لسيف الدولة في كثير من غزواته فالرجل كان شجاعاً لا شك في شجاعته والذي يرى حياته موتاً يستوي عنده الموت والحياة

وغاية المفرط في سلمه كغاية المفرط في حربه
فلا قضى حاجته طالب فؤاده يخفق من رعبه

وأما شرهه على المال فهذا أمر طبيعي فقد ذاق المتنبي في حداثة سنه ألم الفقر

فمازال يسعى في طلب المال حتى اجتمع له شيء منه فحرص على ثروته ولم يبذر ولا يعرف قيمة المال الا" الذي يتعب في جمعه والمتنبي لم يغن من غيران يساوره كثير من الالم واي ألم أعظم من ألم الحساد فهل يلام على حرصه ولا سيما ان الرجل كان محسّد الشأن حتى كان حساده يتمنون موته . فكانوا يبغضونه ويتربصون به الدوائر، هل يلام على اتخاذه المال جنة يدفع بها عن نفسه اذا اعرضت الدنيا عنه في يوم من الايام فماذا كان يلاقي منهم غير الشماتة، على اني اعتقد ان الرجل كان مقتصداً ولم يكن بخيلا والفرق بين البخل وبين الاقتصاد ظاهر فما أظن أن ابا الطيب كان من البخلاء الذين ينشأ بخلهم عن مرض من امراض العقل فلا يجدون لانفسهم سلطاناً عليه وانما كان مقتصداً يحسب للامور حسابا ويعد لها عدتها حتى لا يفاجئه الزمان بمكارهه .

واما ضعف عقيدته ورقة دينه فهذا أمر صحيح وكثيراً ما قرع المتنبي هذا الباب كما قال الثعالبي وقد رويت لكم الابيات التي دلت على أخلاله بالدين واستهانته بامره والظاهر ان الرجل كان على مذهب المشككين .

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم   الا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة   وقيل تشرك جسم المرء في العطب

* * *

ولكن اظهر اخلاق المتنبي التعظم وقلة المداراة وقد اثبت هذه الاخلاق ما كان يقع له في مجالس سيف الدولة وكافور وفي بغداد . فابو الطيب كان قليل المداراة للناس وقد شهدتم كيف كان يتعرض لاكابر الادباء ، ويستأنس بتجهيلهم وليس معنى هذا ان ابا الطيب كان يجهل بعواقب تعرضه للناس وبخواتيم قلة المداراة ولكن الرجل كان شاذ الخلق ، يصعب عليه ان يداجي ويداري ولو فعل شيئاً من ذلك لملك القلوب ونحن نشاهد في عصرنا من لا يداجي ولا يداري فتنقبض القلوب عنه ويبسطون السنتهم فيه والناس ينقادون عادة من نواحي العاطفة والهوى ، فرب ابتسام نبتسمه ينزع ما وقر في الصدور من غل أو حقد

ورب تقطيب نقطبه بغرس لنا البغضاء في القلوب ؛ هذه هي طبيعة البشر ولكن ابا الطيب اكبر من أن يحتاج الى شيء من المداراة والمداجاة فكان يجري على طبيعته لا يعبأ بشيء من غضب الناس عليه او طعنهم فيه فان له من الثقة بخلود عبقريته ما يجعله يحتقر اولئك الغاضبين الطاعنين .

ليت ثنائي الذي اصوغ فدى   من صيغ فيه فانه خالد

فالطعن على اهل العبقرية يذهب جفاء وتمكث عبقريتهم في الأرض فلا الافراط في الثناء على اهل البلاهة يمهد لهم سبيلا الى الخلود ، ولا الافراط في تنقص اهل العبقرية يغلق الابواب في وجه خلودهم ، نعم كان ابو الطيب يعرف هذا كله ولكنه ارفع من ان يسفّ الى المداجاة والمداراة وما داجى ولا دارى الا كل من لا يثق بقوة نفسه وكل من يحتاج الى قوة غيره ويستعين بها على حياته .

على ان ابا الطيب كان يجاري الناس في بعض الاحايين في الخداع وما مجاراته هذه الا هزء بالناس .

ولما صار ود الناس خباً   جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه   لعلمي انه بعض الانام

فالرجل كان قليل المداراة وقلة مداراته اوغرت الصدور وهاجت الضغائن ولكن أبا الطيب كان يسخر من حسد الحساد واغتياظ المغتاظين فلم يفكر فيهم ولا شغل ذهنه بهم فقد سلّح الادب بابيات سلاحاً يهزأ بثرثرة الثرثار ، وهذر المهذار ، أفأجد حاجة الى ان أعيد هذه الابيات وقد سمعتموها في المجلس الماضي ويكفيني أن أشير منها الى بيت واحد :

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مراً به الماء الزلالا

او الى بيت آخر :

وأتعب من ناداك من لا تجيبه   وأغيظ من عاداك من لا تشاكل

بهذه الابيات وأشباهها كان المتنبي يسحق المتطاولين للوقيعة فيه فما أصدق الذي وصفه بمرارة اللسان واي مرارة امرّ من هذه المرارة ولو جمعوا كل ما

قالوه فيه من طعن لما وازن حرفاً من هذه الابيات :

بذي الغباوة من انشادها ضرر   كما تضر رياح الورد بالجعل .

نعم كان ابو الطيب مر اللسان فاذا غضب على احد أذاقه مرارة هذا اللسان فانه لما فارق سيف الدولة لم ينج سيف الدولة من قوارصه وفي اول قصيدة قالها في كافور أثر من هذه القوارص :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى   وقد كان غداراً فكن انت وافيا
واعلم ان البين يشكيك بعده   فلست فؤادي ان رايتك شاكيا
فان دموع العين غدر بربها   اذا كن اثر الغادرين جواريا
اذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى   فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا
وللنفس اخلاق تدل على الفتى   اكان سخاء ما اتى ام تساخيا

فهذا الشعر كله تعريض بملك حلب والظاهر أن سيف الدولة كان يؤلم المتنبي في عطاياه فكان ينعم عليه ولكنه كان يبطل نعمته بالمن والأذى فاذا تأخر مدح ابي الطيب عنه تنكر له في الحال (١)

ارى ذلك القرب صار ازورارا   وصار طويل السلام اختصارا
تركتني اليوم في خجلة   اموت مراراً واحيا مرارا
اسارقك اللحظ مستحيياً   وازجر في الخيل مهري سرارا

فكان المتنبي يضطر الى الاعتذار

كفرت مكارمك الباهرات   ان كان ذلك مني اختيارا
ولكن حمى الشعر الا القليل   هم حمى النوم الا غرارا

ولا يخفى ما في الاعتذار من اعنات النفس والتشديد عليها ، واذا علمنا أن الشاعر قد تعرض له في بعض الحالات عوارض يعاف فيها حياته فيستعصي عليه

---

(١) كان سيف الدولة اذا تأخر عنه مدح المتنبي شق عليه وأكثر أذاه وأحضر من لا خير فيه وتقدم اليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب فلا يجيب ابو الطيب أحداً عن شيء .

الكلام ادركنا الالم الذي كان يساور ابا الطيب في ازورار سيف الدولة عنه اذا أبطأ عليه مدحه . فكأن سيف الدولة يقول له انا اشتريت شعرك بالمال وقد اخذت مالي فاعطني شعرك ، وكل هذا لا يخلو من منّة واذى وكل هذا لا يخلو من ايلام وايجاع ، وعلى الخصوص اذا كانت الروح الاثيمة مثل روح أبي الطيب يحركها أقل شيء ومن الذي يحق له ان يلجا الى المنة أسيف الدولة ام المتنبي ؛ أفكان سيف الدولة لو لا المتنبي الا ملكاً من اولئك الملوك الذين ذهبوا بين سمع الارض وبصرها ولم يبق لهم الا القليل من الذكر ، افكان سيف الدولة لو لا ابو الطيب يخلد هذا الخلود على شبيبة الزمان وعلى هرمه ، فالمتني لم يسيء الى سيف الدولة وانما سيف الدولة هو الذي بدأ بالاساءة ومع هذا كله فقد كان في قلب ابي الطيب بقية محبة لسيف الدولة بعد الانصراف عنه

رمى واتقى رميي ومن دون مااتقى هوى كاسر كفي وقوسي واسهمي

نعم ترك المتنبي مجالا للصحبة فلم يغضب على سيف الدولة كل الغضب :

فراق ومن فارقت غير مذمم وام ومن يممت خير ميمم

ولما خرج ابو الطيب من مصر الى العراق كتب اليه سيف الدولة بالعودة اليه وألح عليه فلم يرض بذلك ابو الطيب وهذا يدل على ان اثر الجرح في نفسه بليغ .

نعم غادر المتني سيف الدولة ولم ينفض كل ما في قلبه من محبة سيف الدولة وانما اقتصر على الاشارة الى التنغيص والمنن فلم تظهر مرارة لسانه الظهور كله ولكنه لما ترك كافوراً عرض علينا هذه المرارة في اوضح معارضها ، فان كافوراً اساء الى ابي الطيب من اول اتصاله به فقد اظهر له التهمة اول يوم ولم يسمح له بان ينشده وهو قاعد ، ولم يسمح له بان يجاس في مجاسه ووعده ان يوليه فاخلف الميعاد وفي خاتمة الامر نوى ان يقتله أفيلام ابو الطيب اذا تشفى من غيظه ، وعلى الخصوص بعد ان اطمعه كافور في الولاية ولم يذقه حلاوتها وانتم تعلمون كم كانت الولاية تشغل باله ، أفيلام ابو الطيب اذا آذاه كافور فرد اليه شيئاً من الاذى :

امَيناً وإخلافاً وغدراً وخسة وجبناً اشخصاً لحت لي ام مخازيا

لم يتزيد المتنبي في هذا الهجو، رمى كافوراً بالكذب وقد كذب عليه، ورماه بالاخلاف وقد أخلف وعده ، ورماه بالغدر وقد غدر به فاراد قتله ، ورماه بالجبن وقد كان يخافه اذا ولاه .

ليس من العجب بعد هذا كله ان تظهر مرارة لسان المتنبي في اهاجيه في كافور ولست انبهكم على موطن من مواطن هذه المرارة فارجعوا الى كل اهاجيه فانها آلم ما يكون من الشعر

من علم الاسود المخصيّ مكرمة — اقومه البيض ام آباؤه الصيد
أمْ اذنه في يد النخّاس دامية — ام قدره وهو بالفلسين مردود
اولى اللئام كويفير بمعذرة — في كل لؤم وبعض العذر تفنيد
وذاك ان الفحول البيض عاجزة — عن الجميل فكيف الخصية السود

وما هي عطايا كافور الى جنب ما قاله المتنبي فيه وما هو حظ كافور من الخلود لولا شعر ابي الطيب الذي خلّده .

على ان ابا الطيب لم يكن قليل الوفاء فما عرّض بسيف الدولة الا لان سيف الدولة كان يؤلمه في عطاياه ، وما افحش في هجاء كافور الا لان كافوراً أراد قتله ولقد وفى ببعض العهود وفاء دل على أن الرجل كان صادق الود فقد توفي ابو شجاع فاتك بمصر سنة خمسين وثلاث مائة فرثاه المتنبي بعد خروجه منها ، اي بعد انقطاع رغبته في كل عطية من عطايا فاتك ، وتوفيت اخت سيف الدولة بميافارقين وورد خبرها الى الكوفة فرثاها ابو الطيب وعزى اخاها بها سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة ، اي بعد مفارقته سيف الدولة وبعد عزمه على ان لا يعود الى مجالس سيف الدولة ، وجاء في هذه القصيدة أبيات دلت على حسن وفائه :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر — فزعت فيه بآمالي الى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه املا — شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

(٦) شعور الكبرياء والعزة (٢١)

***

تبين لكم ان ابا الطيب كان لا يداري والغالب على الذين تقل مداراتهم التعظم

والكبرياء وقد يكون تعظمهم في بعض الاحيان خلقاً ظاهراً يظنه الناس خلقاً باطناً فقد تغش الظواهر فلا تنم عن حقائق البواطن ، ولسنا ندري أكان ابو الطيب من أصحاب العنجهية الظاهرة ام تمكنت الكبرياء من باطنه فكان متعظم الظاهر والباطن فالذي دل عليه شعره انه أكثر من الفخر بنفسه في كل حال من أحواله فلا يجب ان نشبهه باحد لانه لا شبيه له :

أمط عنك تشبيهي بما وكأنه   فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

وقد كان يشعر بعجبه ويوضح سبب هذا العجب :

ان أكن معجباً فعجب عجيب   لم يجد فوق نفسه من مزيد

ولكن الذي يزعج في بعض الاحوال ان لفظة (انا) لا يكاد يخلو منها شعره فلقد حار في الشيء الذي يشبه به نفسه فمرة هو صخرة الوادي والجوزاء :

انا صخرة الوادي اذا ما زوحمت   واذا نطقتُ فانني الجوزاء

ومرة هو الاديب الذي لا أديب غيره :

انا الذي نظر الاعمى الى أدبي   واسمعت كلماتي من به صمم

وحيناً هو المبدع لكل شيء :

انا السابق الهادي الى ما أقوله   اذ القول قبل القائلين مقول

وحيناً هو السمهري :

وما انا الا سمهري حملته   فزين معروضاً وراع مسددا
وما الدهر الا من رواة قصائدي   اذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

لقد امتلأ ابو الطيب عجباً وأظن انه كان يقلق اهل عصره في بعض الاحايين بهذا العجب ، فلو حدثنا محدث وأخذ في كل فرصة يحدثنا عن نفسه ويردد لفظة (انا) (انا) لما فرغ من أحاديثه دون ان يغادر في قلوبنا شيئاً من الملل لقد نحتمل المرء اذا فخر بنفسه مرة او مرتين ، ولكنه اذا جعل هجيراه هذا الفخر فقد تثقل وطأته علينا ، ولا شك في ان ابا الطيب قد ثقلت وطأته على اهل عصره في بعض الاحيان .

ان تعظمه ظاهر في شعره لا يكاد يخفيه فهو كثير التكلم على نفسه لا يبالي بما ينشيء هذا التكلم من الآثار في النفوس ولم يقتصر على التغني بجمال عبقريته ولكنه جاوز هذا التغني الى شيء من العجب والفخر ، وقد يكون هذا المذهب مدعاة الى الاضجار ؛ اننا نحب ان يذوق الناس محاسننا من تلقاء انفسهم أي من دون أن نذيقهم اياها ، اننا نحب ان يشعروا بهذه المحاسن من غير ان نشعرهم بها ، فاذا توخينا اظهارها و التنبيه عليها والاشارة اليها فقد يذهب شيء من آثارها في النفوس وربما عادت هذه المحاسن مساوىء فابو الطيب كان يحب ان يذيق الناس محاسنه بنفسه فهو لا يريد ان يدع لهم مجالا الى ذوقها بانفسهم ولعل هذا هو السر في ثقل وطأته على الناس وقد يكون السبب في لجوئه الى هذا المذهب ان الناس كانوا يبخسونه حقه ويطمسون من آثار حسناته فكان يضطر الى التنويه بحسناته

واذا خفيت على الغبي فعاذر ان لا تراني مقلة عمياء

نعم كان ابو الطيب متعظما في الظاهر وفي الباطن وكثيراً ما كان يجعل نفسه في أماديحه بمنزلة الملوك الذين كان يمدحهم :

انما التهنئات للاكفاء ولمن يدّني من البعداء
وانا منك لا يهنيء عضو بالمسرات سائر الاعضاء

وربما كان حظه من مدح نفسه في بعض شعره اوفى من حظ الممدوحين وقد حمله تعظمه هذا على احتقار الناس وما ذهب عنكم أمر هذا الاحتقار ولقد هزأ بكافور نفسه في أماديحه فيه ، فاخلق به ان يهزأ بغير كافور ، فكان كثيراً ما يلجأ الى التصغير حتى قال فيه ابو العلاء : ان الرجل كان مولعاً بالتصغير لا يقنع من ذلك بخلسة المغير ؛ والصحيح انه اولع بالتصغير فلم يكتف بتصغير الاحمق :

مقالي للاحيمق يا حليم

او بتصغير الشاعر :

افي كل يوم تحت ضبني شويعر

ولكنه صغّر اهل زمانه كلهم :

أذمّ الى هذا الزمان اهيله !

١٩ نيسان ١٩٣٠

احساس المتنبي

١١

عرفنا ناحية من اخلاق المتنبي فلنجتهد في معرفه ناحية من نواحي احساسه وعواطفه والاحساس «١» انما هو القوة التي تميزنا من بين غيرنا من الناس وتطبعنا بطابعنا الخاص فهو الذي تحدد خصائصه طبيعة دخيلتنا اي طبيعة شخصيتنا ودرجة هذه الشخصية ، فالمدارك العقلية لا يختلف بعضها عن بعض الا قليلا ، واختلافها هذا لا يكون الا من حيث الدرجة فقط ، أي من حيث قوة نفوذها وضعف هذا النفوذ ، او من حيث سرعة تغلغلها في بواطن الامور وابطاؤها في هذا التغلغل ، ولـكن هذه المدارك كلها قادرة من حيث تركيب جواهرها على فهم الحقائق ، من أجل هذا اننا لا نجد الا علماً واحداً في الهندسة او في الطبيعيات مثلا وكذلك ارادتنا فانها لا يختلف بعضها عن بعض الا من حيث قوتها او ضعفها ، أما حواسنا وعواطفنا فانها على خلاف مداركنا وعلى خلاف ارادتنا فهي يختلف بعضها عن بعض من حيث طبائعها فلا لذاتنا ولا آلامنا واحدة في كل رجل منا فالامور التي نلاقي فيها لذتنا قد لايلاقي فيها غيرنا الا الالم ، وما أصدق ماقاله المتنبي في هذا المعنى:

سبحان خالق نفسي كيف لذتها　　فيما النفوس تراه غاية الالم

وما أصدقه في هذا البيت :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه　　اني بما أنا شاك منه محسود

فقد يحسدنا الناس على امور يظنونها برداً وسلاماً ونحن لانجدها الا عنتاً وتعباً ، فالاذواق تختلف باختلاف الناس ، هذا الامر يبكينا وهو نفسه يضحك

(١) رأي الاستاذ برونتير

غيرنا ، وذاك ينفعنا وهو ذاته يضر سوانا وقد يكون لون من الالوان زاهياً في نظرنا وكامداً في نظر غيرنا ، وقد يستطيب الانف رائحة من الروائح ويستنكرها أنف آخر.

فالذي يستنبط من هذا الكلام ان مايميز بعضنا عن بعض انما هو الاحساس فالاحساس في الشعر هو القوة المميزة فلا بد للشاعر من ان تهيجه الهوائج ، ولا بد له من ان يجد لهذه الهوائج صوراً مناسبة لها فالشاعر يختلف عن الشاعر من حيث طبيعة الحس والخيال . فقد تأخذ العيون مشاهد شتى فيها كثير من الالوان والاصوات والروائح مما يهيج الحواس ويثير العواطف فيعجز أحدنا عن تصوير شيء من هذه المشاهد كلها لان حواسه لا تنبسط الى لون من ألوانها او الى صوت من أصواتها او الى رائحة من روائحها ولان نفسه لايستفزها مشهد منها ، فاذا الشاعر لم يكن له روح يعمل فيها مختلف المشاهد ويترك في باطنها آثاراً ورسوماً ولم يكن له خيال يخلع على هذه الرسوم والآثار مايناسبها من ضروب الخلع فعبثاً يتطاول للشعر وعبثاً يجهد قريحته ولذلك قالوا : يولد المرء شاعراً ، اي يولد قوي الحس او ضعيفه . غليظه او رقيقه ، وعلى حسب طبيعة هذا الحس يكون تبريزه في ميدان الشعر وتحليقه في سمائه التي لا تطاولها سماء .

هل كان المتنبي قوي الاحساس ، هل كانت المشاهد تفعل فيه فعلتها ، هل كان عصبي المزاج يحركه أقل شيء ، وماهي طبيعة إحساسه وعاطفته ؟

لنبحث عن احساس المتنبي في بعض مواطن من المواطن التي تظهر فيها آثار الاحساس والعاطفة ، لنبحث عن شيء من هذا في مقامات النسيب والغضب والحزن

هل عشق المتنبي في حياته او هل كان صادق العشق في نسيبه ؟ انا نجد في شعره كثيراً من الغزل فلا تكاد قصيدة من قصائده تخلو من هذا الغزل ولكن الذي أراه ان النسيب كان مذهباً من مذاهب الشعراء يصدّرون به مطالع قصائدهم وصولا الى مدح الممدوح فلست أرى في اضعاف هـذا النسيب آثار نفس ذللها الهوى :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم　　أكل فصيح قال شعراً متيم

ولست أرى في هذه الاضعاف هائجة من هوائج النفس وانما هذا النسيب عبارة عن تشبيهات واوصفات ضاع رونقها لكثرة تكرارها فاذا لم يعشق الشاعر حقيقة كان نسيبه ضجراً مقلقاً ، وما مثله في ذلك الا كمثل النوّاحات اللواتي ينحن على ميت لشيء من المال يأخذنه على نواحهن فان اغماءة الام التي تفقد طفلها لا يكاد يوازنها كل الدموع الكاذبة التي تذرفها النواحات ، وكذلك العشق فان صفرة لون العاشق أبلغ من التشبيهات والصفات الرائعة التي يلجأ اليها غير العاشق في شعره

فالمتنبي عمد الى النسيب في شعره ولكني لا أبالغ اذا قلت ان في هذا النسيب اثر صنعة لا تدل على شيء من حقيقة الهوى ولكنه لا يعترف بهذا فهو يقول :

وما انا الا عاشق كل عاشق　　اعق خليليه الصفيين لائمه

ثم يرجع فيقول :

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه　　ولكن من يبصر جفونك يعشق

فلننظر في هذا كله في احدى قصائده في سيف الدولة واولها :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي　　وللحب ما لم يبق مني وما بقي

وصف ابو الطيب بكاءه فقال :

وبين الرضى والسخط والقرب والنوى　　مجـال لدمع المقلة المترقرق

وأكّد هذا البكاء :

عشية يعدونا عن النظر البكا　　وعن لذة التوديع خوف التفرق

ثم انصرف بعد البكاء الى التوديع فقال :

نودعهم والبين فينا كأنه　　قنا ابن ابي الهيجاء في قلب فيلق

وانا لنجده يبكي خوف التفرق وانا لنجده يودع اذ ينصرف فجاة الى قنا ابن أبي الهيجاء اي الى الممدوح نفسه وهو سيف الدولة فتى مسح دموعه ومتى نسي حبيبه فلم يخطر بباله الا سيف الدولة ، قد يكون في هذا كله براعة في الذي يسمونه حسن التخلص وقد يكون شيء من البلاغة في هذا التخلص الحسن ،

ولكني لا أجد في هذا النسيب شيئاً من الحقيقة فلست أرى خيال روح يذللها الهوى وانما أرى فناً يستخدمه صاحبه في تمهيد السبيل الى المدح ، والهوى الصحيح لا كلفة فيه فاذا ظهرت الكلفة عليه ذهب أثره .

والامثلة من هذا الشكل كثيرة في شعره واليكم مثلا آخر في قصيدته في سيف الدولة التي يقول في اولها :

ليالي بَعد الظاعنين شكول   طوال وليل العاشقين طويل

وصف احتماله للنائبات من بُعدِ احبته وطلب الى النسيم ان يحمل اليه روائح هؤلاء الاحبة .

اذا كان شم الروح أدنى اليكم   فلا برحتني روضة وقبول

وخاطب الحبيب فقال :

لقيت بدرب القلة الفجر لقية   شفت كبدي والليل فيه قتيل

ويوماً كأن الحسن فيه علامة   بعثت بها الشمس منك رسول

وانه ليسترسل الى هذا كله اذ يذكر في الحال ان سيف الدولة ينتظر مدحه فيفتش عن البيت الذي يصل به الى سيف الدولة

وما قبل سيف الدولة إثّار عاشق   ولا طلبت عند الظلام ذحول

نعم ، الامثلة من هذا القبيل كثيرة فلست اعتقد ان نسيب المتنبي في مطالع قصائده يفصح عن عشق حقيقي وما هذا الغزل الا ضرب من التقليد فقد كان هذا هو أسلوب الشعراء في اماديحهم يتغزلون ثم يتخلصون من التغزل الى المديح والنفس العاشقة تنصرف عن كل شيء في جوانبها ولا تفكر الا في الذي تحبه ، فلا سيف الدولة يصرفها عنه ولا غير سيف الدولة ، فالعاطفة في هذا النسيب بعيدة عن ان تكون صادقة فضلا عن انه قد يميل في تصوير بعض نحوله الى شيء من المبالغة التي لا يحمد أثرها .

ولو قلم القيت في شق رأسه   من السقم ما غيرت من خط كاتب

هذا هو نسيب المتنبي فالتقليد ظاهرة آثاره عليه .

وقد يخرج في هذا النسيب من المقدار :

كأن الجفون على مقلتي ثياب شققن على ثاكل

كل هذا لا يخلو من شيء من المبالغة ، والعاطفة لا يحسن تأثيرها الا اذا كانت طبيعية على انه لا يخلو في بعض الاحيان من الاعتدال المقبول :

واني لاعشق من أجلكم نحولي و كل امرىء ناحل

ولو زلتم ثم لم أبككم بكيت على حبي الزائل

هذا هو شيء من طبيعة حسه وعاطفته في النسيب ولكن المواطن التي تظهر فيها شدة هذا الحس انما هي مواطن الغضب سواء أكان غضبه على الاقدار ام كان غضبه على الذين يشمتون بموت جدته وسواء اغضب على الذين مدحهم ولم يعطوه ما تستحقه اماديحه ام غضب على الذين اسأوا اليه وكذبوا عليه .

اذا غضب المتنبي على احد من الناس اهتزت اعصابه كل الاهتزاز فلا يكاد يستطيع ان يسكنها ولا يجد اشباهاً للرجال الذين يحنق عليهم الا الحيوانات .

وانما نحن في جيل سواسية شر على الحر من سقم على بدن

حولي بكل مكان منهم خلق تخطي اذا جئت في استفهامها بمن

ولا يبالي بعد هذا التعميم بان يخصص الحيوانات التي يشبههم بها

فقر الجهول بلا قلب الى ادب فقر الحمار بلا رأس الى رسن

على ان هذا الهياج الذي هاجه في هذا المقام قد لا يكون شيئاً قياساً الى الثورة التي ثارها في هجاء كافور فقد كان مضطرباً كل الاضطراب مغتاظاً كل الاغتياظ فتارة كان غضبه ممزوجاً بشيء من الهزء :

فان كنت لاخيراً افدت فانني افدت بلحظي مشفريك الملاهيا

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحداد البواكيا

ومرة كان مختلطاً بشيء من الشتم :

لاتشتر العبد الا والعصا معه ان العبيد لانجاس مناكيد

وحيناً كان يلجأ في غضبه الى شيء من الايلام :

جوعان ياكل من زادي ويمسكني　　لكي يقال عظيم القدر مقصود

ومنه قوله :

من أية الطرق يأتي نحوك الكرم　　أين المحاجم يا كافور والجلم

واذا قابلنا بين أهاجيه في كافور وبين تعريضه بسيف الدولة وجدنا ان ابا الطيب على شدة اهتزاز أعصابه في ساعات الغيظ يستطيع في بعض الاحوال ان يضبط نفسه فلم يغضب على سيف الدولة غضبه على كافور ، وانما ملك حركته وضبط نفسه فجعل لكل مقام من الغضب مقالا ؛ فهو لا يشبه هؤلاء الشتّامين الطعانين الذين اذا نقموا على احد من خاصة الناس نقموا عليه نقمتهم على أحد من عامة القوم ؛ واذا شتموا كبير قوم شتموه كما يشتمون صغير القوم ، حتى يضيع أثر كلامهم فلا تبقى له قيمة .

فالمتنبي كان في غضبه يشتم ولكنه كان يجعل لكل مقام من مقامات الغضب مقالا فما رمى سيف الدولة بمثل ما رمى به كافوراً ، لقد كان في تعريضه به شيء من الايلام ولم يكن فيه شيء من الهزء او الشتم او الفحش .

فلننظر الى طبيعة عاطفته في مراثيه فان المراثي تظهر فيها عاطفة الشاعر أكثر من غيرها من الشعر ، لان الشاعر يقولها وعينه تدمع وقلبه يحزن ، قال الاصمعي لاعرابي : ما بال المراثي أشرف أشعاركم فقال : لانا نقولها و قلوبنا محترقة ، لقد صدق الاعرابي في كلامه فالمراثي هي الشعر الذي تظهر عليه آثار حرقة القلوب وما أبرد هذه المراثي التي يقولها أصحابها فلا نجد فيها أثراً لهذه الحرقة وانما نرى فيها صوراً اذا انتزعناها من أماكنها والصقناها بمرثي اخر فلا نكاد نجد فرقاً بين الرجلين المرثيين . فما أشبه هذه الطبقة من الشعراء بالنواحات اللواتي يبكين ولا جرح في قلوبهن ، اننا لا نرى في أمثال هذه المراثي الا استفظاع الخطب والنقمة على الاقدار وما شابه هذه الاساليب المتكررة ، فالرجل المرثي ينبغي ان تكون له صورة في المرثية تليق به ولا تليق بغيره من الموتى ، واما اذا كانت هذه الصورة تصلح لكل واحد يموت ولكل واحد يبكى عليه فلا قيمة لها ولا قيمة لقائلها ، فلننظر الى المتنبي في مراثيه ، هل نجد فيها عاطفة تختلف عن عاطفته في النسيب .

أقرب الذين رثاهم اليه جدته فقد كان شعره في مرثيته في جدته شعر الالم الحقيقي الذي يشتمل على الحزن من كل وجوهه ، لقد بكى على جدته بكاء شديداً فقد كانت من النساء الصالحات فلا نكاد نقرأ بيتاً من هذه القصيدة الا ونجد فيه أثراً لعاطفة المتنبي الصادقة في محبة جدته التي كانت تحبه حباً جماً .

لك الله من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقها وصما

فكان من الطبيعي ان يبادلها المتنبي في هذا الحب الشريف :

أحن الى الكأس التي شربت بها وأهوى لمثواها التراب وما ضما

فليس في عاطفته هذه شيء من الصنعة والكلفة . انه احب جدته حباً شديداً فظهرت حرقة قلبه ولوعة كبده ومهما حاول ان يتجلد :

ألا لا أري الاحداث مدحاً ولا ذما فما بطشها جهلا ولا كفها حلما

ومهما حاول ان يتعزى بشيء من الفلسفة :

الى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى يعود كما أبدي ويكري كما أرمى

فقد أبى قلبه الا ان يفيض حزناً بعد هذا التجلد وهذا العزاء

حرام على قلبي السرور فانني اعد الذي ماتت به بعدها سما

وان جدة تموت سروراً بكتاب اتاها من حفيدها :

أتاها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سروراً بي فمت بها غما

لا يكثر على المتنبي ان يكون بعد موتها كالاعمى لانه لا يراها :

وما انسدّت الدنيا علي لضيقها ولكن طرفاً لا اراك به اعمى

ولا يكثر عليه ان يأسف على غيبته عند وفاتها :

فوا اسفاً الا أكب مقبلا لرأسك والصدر اللذي ملئا حزما

ولا يكثر عليه ان يغضب على الذين شمتوا بيومها :

لئن لذّ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لانفهم رغما

نعم كل هذا غير كثير فالعاطفة في هذا الشعر صادقة شريفة كريمة ولا عجب اذا غضب المتنبي على الذين شمتوا بيوم جدته او اذا ابرق وارعد في هذا

الغضب :

كأن بنيهم عالمون بانني جلوب اليهم من معادنه اليتما

ولو قابلنا بين عاطفته في هذه المرثية وبين عاطفته في غيرها من المراثي كالمرثية التي قالها في محمد بن اسحق التنوخي :

خرجوا به ولكل باك خلفه صعقات موسى يوم دك الطور

والشمس في كبد السماء مريضة والارض واجفة تكاد تمور

لتبين لنا الصدق من الكذب في العواطف فلا الشمس تمرض من موت رجل من الرجال ولا الارض تمور فيكاد ابو الطيب في هذه المرثية يكون في زمرة هذه الطبقة من الشعراء التي تشبه النواحات في البكاء .

على اننا نجد في مراثيه في ام سيف الدولة :

مشى الامراء حوليها حفاة كأن المرو من زف الرئال

وأبرزت الخدور مخبآت يضعن النقس امكنة الغوالي

اتتهن المصيبة غافلات فدمع الحزن في دمع الدلال

وفي اخته :

يظن ان فؤادي غير ملتهب وان دمع جفوني غير منسكب

بلى؛ وحرمة من كانت مراعية لحرمة المجد والقصاد والادب

وفي عبده يماك :

لابقى يماك في حشاي صبابة الى كل تركي النجار جليب

وفي مراثيه في ابي شجاع فاتك :

برّد حشاي ان استطعت بلفظة فلقد تضر اذا تشاء وتنفع

شيئاً من العواطف الصادقة ولكنها لا تشبه عاطفته في بكائه على جدته فان قلبه في مرثيته في جدته هو الذي يملي عليه فيكتب

هذا هو اليسير من الكلام على طبائع احساس المتنبي وعاطفته فالمتنبي صاحب احساس شديد ولا يخلو هذا الاحساس في بعض المواطن من شيء من القسوة

وأي قلب اقسى من القلب الذي يأنس بالدم ومشاهده ، فلقد ذكر أبو الطيب الدم في كثير من شعره ولا يبعد ان يكون الرجل ميالا الى الفتك ، ماذا اذكر من أبياته التي فاضت دماً أأذكر قوله :

فقد بردت فوق اللقان دماؤهم ونحن أناس نتبع البارد السخنا

ام اذكر قوله :

ما زال طرفك يجري في دمائهم حتى مشى بك مشي الشارب الثمل

ام اذكر هذا البيت :

القت اليك دماء الروم طاعتها فلو دعوت بلا ضربٍ اجاب دم

والابيات من هذا النوع مستفيضة في ديوانه .

ان حواسه لتنبسط الى رؤية الدم فلا يختلف عن صناديد القواد الذين ألفوا الدم في حروبهم فلا يستفظعونه ، فما اصدق ما قاله فيه الشريف الرضي : واما ابو الطيب المتنبي فقائد عسكر ؟

٢٦ نيسان ١٩٣٠

روح المتنبي

١٢

لكل شاعر روح تفيض على جنبات شعره ، ومهما حاول ان يخفي هذه الروح فلا بد لها من الظهور ، لكل شاعر روح ، هذا تعبس الدنيا في نظره ، فنرى في أضعاف شعره ظلمة الدنيا وعبوسها ، وهذا تبتسم الايام في وجهه ، فنجد في أثناء شعره ضياء الايام وابتسامها ، هذا يسترسل الى جد الحياة فلا نقع في شعره على شيء من هزلها ؛ وهذا ينبسط الى هزل العيش فلا نشعر في فيض قريحته بشيء من جده ، شاعر ضياء الامل مستفيض في شعره ، وشاعر ظلمة اليأس شائعة في قريضه ، لكل شاعر روح ، ما هي روح المتنبي ، ما هي هذه الوثبات التي وثبها في كل مذهب من مذاهب شعره ، في نسيبه ورثائه ، وفي أماديحه واهاجيه ؛ ما هي هذه النزعات التي نزعها في فقره وغناه وفي صبوته القلقة واكتهاله المضطرب . —

نشعر ونحن نقرأ شعر أبي الطيب بان الحياة مظلمة الجوانب في عينيه ، كامدة الالوان في نظره ؛ فلسنا نجد في هذا الشعر أثراً من آثار بشاشة الدنيا وابتسام الزمان ان في روح المتنبي شيئاً من الانقباض ، ليس معنى هذا ان ابا الطيب لم يعرف قيمة الحياة ولم يقدرها حق قدرها فان الذي يقول :

انعم ولذّ فللامور أواخر ... أبداً اذا كانت لهنّ أوائل
مادمت من أرب الحسان فانما ... روق الشباب عليك ظل زائل
للهو آونة تمر كأنها ... قبل يزودها حبيب راحل

لعارف بموارد الحياة ومصادرها وبمداخلها ومخارجها

وان الذي يقول :

ولذيذ الحياة أنفس في النفس ... وأشهى من ان يملّ وأحلى

واذا الشيخ قال أفّ فما ملّ حياة وانما الضعف ملا

آلة العيش صحة وشباب   فاذا وليّا عن المرء ولّى

لا يغفل عن اسرار انبساط النفس وانشراح الصدر وربما أحاط من هذه الاسرار بما لم يحط به اعرف الناس بمقدار الحياة ، وما هذه الاسرار الا الصحة والا الشباب واذا المرء لم يرفل من الصحة في برد قشيب ولم يتفيأ من الشباب وارف الظلال ، لم يجد للحياة لذة نعم لم يجهل ابو الطيب قيمة الحياة وهو حريص عليها لانها شهية

المرء يأمل والحياة شهية :   والشيب اوقر والشبيبة انزق

ولقد بكى على شبابه :

ولقد بكيت على الشباب ولمتي   مسودة ولماء وجهي رونق

حذراً عليه قبل يوم فراقه   حتى لكدت بماء جفني اشرق

وفي هذه الدموع دليل على حبه الحياة وحرصه عليها وربما اشتد هذا الحرص حتى أخرجه في صباه من شيء من الشجاعة واقحمه في شيء من ذل الجبن في بعض الحالات فمن قوله في مدح الحسين بن اسحق التنوخي وكان قوم قد هجوه ونحلوا الهجاء الى أبي الطيب :

وما أربت على العشرين سني   فكيف مللت من طول البقاء

ومنه قوله للوالي وهو في الاعتقال :

دعوتك عند انقطاع الرجاء   والموت مني كحبل الوريد

دعوتك لما براني البلاء   وأوهن رجليّ ثقل الحديد

كل هذا حجة على رغبة المتنبي في الحياة وتمسكه بها ، ومع هذا فاننا لا نجد في شعره أثر آلضياء الحياة وبشاشتها ، فكأن الرجل قد حرم حظه من لذتها او كأنه لم يكن له من نضارة شبابه وكمال صحته آلة يستعين بها على ذوق هذه اللذة أفكان المتنبي يشتكي صحته ، فكثيراً ما أشار في شعره الى نحوله ومن هذه الاشارات .

روح تردد في مثل الخيال اذا   اطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمي نحولا انني رجل   لو لا مخاطبتي اياك لم ترني

ومنها :

جمعت بين جسم احمد والسقـ   ـم وبين الجفون والتسهيد

ومنها :

ولا وقفت بجسم مسيَ ثالثة   ذي أرسم دُرُس في الارسم الدرس

أفكان مصابا بشيء من الماليخوليا التي نجد آثارها في شعره فقد اسودت الدنيا في عينيه وقلّ سروره منها وضاع عمره :

وقت يضيع وعمر ليت مدته   في غير امتنا من سالف الامم
أتى الزمان بنوه في شبيبته   فسرهم واتيناه على الهرم

واستخف بامر الحياة فلم يبال أطال العمر أم قصر

كثير حياة المرء مثل قليلها   يزول و باقي عيشه مثل ذاهب

وافضى به الاستخفاف الى شيء من القسوة في مواطن البكاء :

ابكي لموتا على غير رغبة   تفوت من الدنيا ولا موهب جزل
وما الدهر اهل ان تؤمل عنده   حياة وان يشتاق فيه الى النسل

نعم لم ينظر الى الدنيا من وجهها الجذل وانما نظر اليها من أفقها الكئيب ففاض شعره كآبة فهو يتصور الموت في كل حالة من حالاته ، في صحته واعتلاله :

وان أسلم فما أبقى ولكن   سلمت من الحِمام الى الحِمام

ومن كان هذا نظره في الدنيا فلا عجب اذا هاجت به الماليخوليا في بعض الاحيان فطلب الموت لان الموت هو الذي يشفيه مما يكابده من الم النفس واي الم اشد من رؤية الحساد ، ولا سيما اذا كان المحسود مثل ابي الطيب يعادونه على فضله الذي يستوجب محبته ، وينام عنهم ولا ينامون عنه :

اعادى على ما يوجب الحب للفتى   واهدأ والافكار فيّ تحول

لا عجب اذا طلب المتنبي الموت و لقد طلبه لانه فتش عن صديق مخلص له فلم

يجده وعن عدو مداج فأعياه ، فالحياة التي ليس فيها صديق مخلص ولا عدو مداج لا يكثر على رجل مثل المتنبي ان يطلب فيها الموت ، وهو من هو في شدة احساسه واهتزاز اعصابه وسرعة حركة نفسه :

كفى بك داء ان ترى الموت شافياً　　وحسب المنايا ان يكن امانيا

تمنيتها لما تمنيت ان ترى　　صديقاً فأعيا او عدواً مداجيا

لا عجب اذا كانت المنايا من اماني المتنبي لانه بين ظهراني رجال ودهم خداع ودينهم نفاق :

فلم أرَ ودهم الا خداعا　　ولم أرَ دينهم الا نفاقا

ان رجلا هذا هو نظره في الحياة ؛ ان رجلا يستوي عنده قصر الحياة وطولها لانه يرى ان الحياة مصيرها الى الزوال لبعيد عن التفرغ لمغالبة الايام والسعي في الحصول على شيء من عظمة الدنيا سواء أكانت هذه العظمة في المال أم في الجاه نعم أن رجلا هذا هو مذهبه من عادته ان يقضي في ظلال الهدوء وراحة البال هذه الايام القليلة التي يعيشها مستهزئاً بكل عظمة ساخراً من كل جاه ، لان الحياة في نظره أحقر من ان يزاحم عليها ان رجلا من أمانيه المنايا لانه لم يرَ صديقاً مخلصاً له ولا شبه صديق ليغلب اليأس عادة على قلبه فلا يضرب في مناكب الارض ابتغاء لشيء من عظمة الدنيا ، ولكن المتنبي بعيد عن هذا كله وهذا موطن من مواطن تناقضه في اخلاقه ، فقد كانت حياته تجمع بين الفأل والشؤم وتؤلف بين اليأس والرجاء ، وانه ليرى ظلمة الدنيا الى جانبه اذ يسعى الى ضيائها من جانب آخر ، وانه ليهزأ بطول الحياة وقصرها اذ يستنفد وسعه في الوصول الى شيء من ظواهر العظمة في هذه الحياة ، ما اقلق ابا الطيب ، ما أشد اضطرابه .

كريشة في مهب الريح ساقطة　　لا تستقر على حال من القلق

فكان يغضب على الحياة ويرضى عنها بحسب حالات نفسه ، وعلى قدر هياج اعصابه وهدوئها ، لقد غضب على الحياة من الناحية التى رآها مسودة ولكنه سعى

في الوصول الى الذي خالج قلبه في هذه الحياة سعياً تقصّر دونه سوابق الاقدام؛ وربما كان ينحط في بعض سعيه الى طبقات المستعطين، فمرة كان استعطاؤه تصريحاً :

أمطر علي سحاب جودك ثرة وانظر اليّ برحمة لا اغرق

ومرة كان تعريضاً

فما بفقير شام برقك فاقة ولا في بلاد انت صيّبها محل

وحيناً كان الاستعطاء مشتملا على شيء من التفنن :

فان تقل : ها، فعادات عرفت بها او : لا، فانك لا يسخو بلا فوكا

نعم سعي في هذا كله، ما كلت عزائمه، ولا فترت همته، ولا وجد اليأس الى قلبه سبيلا، فقد عمل لدنياه كأنه يعيش ابداً وكان مذهبه في عمله : الدنيا لمن غلب، حاول ان يغلب فما قصّر، سخر من كل نائبة نابته، وذلل كل عقبة اعترضته، فلو تجسم العزم لكان ابو الطيب جسمه، ولو تصور العمل لكان صورته الناطقة، ان شعره ليفيض رجولية، ان شعره انما هو شعر الرجل القوي على متاعب الحياة، يتطاول له عدوه المبين فلا يخضد من شوكته، ولا يضعف من عزمه واذا نبا به مكان انتجع مكاناً غيره سواء أكان منتجعه بعيداً ام كان قريباً، ما أعظم المتنبي في هذا الجد على التمرس بالآفات والمطاعنة للايام! فيكاد يكون المثل الاعلى في النزاع والمغالبة، اوتي من العزم ما صغّر اليه كل عظيم من عظائم الدنيا حتى نشأت له من هذا كله قوة منيعة استعان بها كل حياته، يحبس الرجل في سبيل أمر من الامور فيخرج من حبسه ويضرب في الارض لا مطية له الا النعل والا الخف فيمدح من يمدح ومن ممدوحيه من لا يعطيه على قصائده الا ديناراً فيصبر ولا يقطع امله من الحياة، ويتصل بسيف الدولة فيغرق في نعمه فيكيد له من يكيد ويحسدونه فيترك سيف الدولة ويرجع الى ديدنه في السعي والجهد، فيأتيه وعيد السودان فينجو من شرهم ويقصد حضرة كافور الاخشيدي فلا يكرمه اكرام سيف الدولة ولا يسمح له بالجلوس في مجلسه، ويبث عليه العيون والارصاد ويضمر قتله فينفلت منه ويعود الى سعيه فيتآمر عليه عبيده

فيجهز على احدهم ويغلب على امرهم و يعود الى العراق فيثور عليه شعراء العراق فيهرب من بغداد ويصل الى بلاد فارس ثم يستأذن عضد الدولة في العودة الى وطنه فيحذرونه من الموت فلا يعبأ بالموت ويهجم عليه فيموت ، اظن ان في هذه الامور كلها سلسلة حياة تكاد تكون منقطعة النظير في الصبر على الشدائد والاستعداد لمطاعنة الدهر ، واظن ان الرجال الذين يصبرون بعد الصدمة الاولى من صدمات الحياة قليل عددهم ، ان كثيراً من الناس تضعف عزائمهم في اول ضربة من ضربات الزمان ، فالمتنبي من هؤلاء الرجال الذين مارسوا الايام ومارستهم وصارعوها وصارعتهم فما استسلموا ولا انقادوا ، يباغتهم الدهر من ناحية فيستعدون له من ناحية ثانية ، حتى تمل الايام طوال نزالهم فتلقي اليهم سلاحها وتنطوي دون عزائمهم ، فلو صور العراك والغلاب والمراس لكان المتنبي صورة هذه الامور كلها ، فكأنه جعل مذهبه في سيرته ما جرى على لسانه في بعض شعره :

فالموت اعذر لي والصبر اجمل بي   والبر اوسع والدنيا لمن غلبا

هنا تظهر رجولية المتنبي ، هنا يكون ابو الطيب القدوة لمن يريد ان يقتدي به من الاعاظم الذين لا يكاد يظهر فضلهم حتى تتضافر عليهم المكايد و تتواطأ عليهم الغوائل فاذا جبنوا واستسلموا اطفأ الحساد من نورهم واذا شجعوا و مضوا في سبيلهم مل هؤلاء الحساد حسن ثباتهم ، وماتوا من سخرية الذين يحسدونهم فلا يجدون الى اطفاء النور سبيلا .

في شعر ابي الطيب رجولية تفيض في كل جنبة من جنبات هذا الشعر المنيع وما هذه الرجولية الا صورة روحه ولقد ابت هذه الروح الا الظهور في كل مذهب من مذاهب شعره ؛ فسواء عليه أمدح أم هجا وسواء عليه اتغزل ام بكى ، ان روحه لتغلب عليه في اماديحه واهاجيه وفي غزله وبكائه . ان هذه الروح ابت الا الوضوح في كل حال من حالاته وفي كل طور من اطواره ، سواء أكان فقيراً أم كان غنياً . انكم لتجدونه يبكي شقوته ويضجر من رقة حاله وخشونة عيشه ومع هذا فان روحه لا تغفل عن التغني بالتكرم وعن التنديد بالذل . فبعد

أن يقول:

الى أي حين أنت في زي محرم وحتى متى في شقوة والى كم

لا يلبث أن يقول:

والا تمت تحت السيوف مكرما تمت وتقاس الذل غير مكرم
فثب واثقاً بالله وثبة ماجد يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم

وما كان المتنبي الا صادقاً في قوله، ولقد امتلأ شعره من هذه النزعات السامية والوثبات الكريمة فما خلت قصيدة من قصائده من هذه الروح العالية وبينا نجده يقول

ضاق صدري وطال في طلب الرزق قيامي وقلّ عنه قعودي

اذ نجده يقول:

عش عزيزاً او مت وانت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
فاطلب العز في لظىً ودع الذل ولو كان في جنان الخلود

فالعز والمجد والعلياء وكرم النفس ألفاظ جرت على لسان ابي الطيب المتنبي في كل شعره فكانت تفصح عن حقائق روحه وبواطن نفسه، ولقد أدّى به تغنيه بهذا العز وبهذا المجد وبهذه العلياء الى مواطن الموت، مثّلوا له الموت وحذروه منه فما حذره ولا خافه هجم على الموت خوفاً من ان يقال فيه أنه جبان، فما أبعد ابا الطيب عن احتمال الاذى ورؤية جانيه:

واحتمال الاذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الاجسام
ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

ما أبعد ابا الطيب عن احتمال الاذى! لقد غرق في نعيم سيف الدولة وفي مكارمه ومع هذا كله لما عبث به سيف الدولة وأحس المتنبي بشيء من الانقباض عنه ما لبث ان عاف هذا النعيم وهذه المكارم:

وما منزل اللذات عندي بمنزل اذا لم أبجّل عنده وأكرّم

سجية نفس ما تزال مليحة من الضيم مرمياً بها كل مخزم

نعم يأبى ابو الطيب الا ان يبجل والا ان يكرم ، واذا سكت وهو في حضرة كافور عن شيء من هذا التبجيل والتكريم فما معنى هذا ان الرجل هانت عليه نفسه وانما طمع وهو في حضرة كافور في شيء من الملك شغل باله طول حياته فصانع كافوراً ارادة الوصول الى هذه الولاية التي أملها . ولما أحس بالشر وبالاذى ولىّ عن كافور .

أبت هذه الروح العالية الا ان تظهر على شعره في كل مذهب من مذاهب هذا الشعر ، لقد ظهرت في أماديحه ، فاذا مدح أعرب عن روحه قبل ان يصور الممدوح ، وربما جعل للافصاح عن روحه في أماديحه النصيب الأوفى :

ولا تحسبن المجـــد زقا وقينة فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب اعناق الملوك وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء انمله العشر

نعم لم يغفل عن اظهار روحه في اماديحه حتى في اماديحه في سيف الدولة :

وانا لنلقى الحادثات بانفس كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا ان تصاب جسومنا وتسلم اعراض لنا وعقول

ولقد ظهرت روحه في مراثيه اي في المواطن التي يذهل فيها الانسان عن كل عظمة وعن كل عز ففي رثائه لجدته ، وقلبه ملتهب ودمعه منسكب ، لم يغفل عن روحه :

فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

روحه غالبة عليه ، فانتم تعلمون مقدار محبته لجدته ومقدار أسفه على وفاتها ومع هذا فلم تنسه وفاتها روحه ، فكأن في باطنه شيئاً ينخزه حتى يظهر وما هذا الشيء الذي يحركه الا روحه ، وكذلك حاله حتى في غزله :

وقد طرقت فتاة الحي مرتدياً بصاحب غير عزهاة ولا غزل
لا اكسب الذكر الا من مضاربه أو من سنان أصم الكعب معتدل

وكذلك شأنه في اهاجيه :

ويلمّها خطة ويلمّ قائلها لمثلها خلق المهريّة القود
وعندها لذّ طعم الموت شاربه ان المنية عند الذل قنديد

ما أعظم روح ابي الطيب ! ما أظهرها على شعره !

٣ مايس سنة ١٩٣٠

المحاضرة الحادية والعشرون

فلسفة المتنبي

١٣

علمنا بطائفة من اخبار المتنبي واحطنا بشيء من جملة اخلاقه وروحه وطبيعة حسه وعاطفته ، بقي ان نعرف درجة عبقريته وخصائص هذه العبقرية ، هل يخلد شعر المتنبي ، ماهو السر في خلوده وقبل ان اتفرغ لهذا كله ارى ان الواجب علي ان انظر في فلسفة المتنبي .

اشار القاضي الجرجاني والثعالبي الى ان ابا الطيب خرج عن رسم الشعر الى طريق الفلسفة واضاف الثعالبي الى هذا الكلام ان المتنبي امتثل الفاظ المتصوفة واستعمل كلماتهم المعقدة ومعانيهم المغلقه فمنه قوله :

نحن من ضايق الزمان له فيك وخانته قربك الايام

حتى قال الصاحب « ولو وقع هذا القول في عبارات الجنيد والشبلي لتنازعه المتصوفة دهرا طويلا » .

ومنه قوله :

يا ايها الملك المصفى جوهرا من ذات ذي الملكوت اسمى من سما
نور تظاهر فيك لاهوتيه فتكاد تعلم علم ما لن يعلما

ومنه قوله :

ولقد رمت بالسعادة بعضاً من نفوس العدى فأدركت كلا

فالجوهر المصفّى واللاهوت والبعض والكل من ألفاظ رجال الفلسفة والمنطق ولمّح الى طائفة من اسماء أطباء اليونانيين وحكمائهم امثال جالينوس وبقراط ورسطاليس وبطليموس .

وجرى في شعره ذكر بعض المذاهب الفلسفية .

من هذه المذاهب:

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر ان المانوية تكذب

ومنها:

ألا فتى يورد الهنديّ هامته كيما تزول شكوك الناس والتهم
فانه حجة يؤذي القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل والقدم

ومنها:

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم الا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

واظن ان شيوخ ابن خلدون لم يعيبوا شعر المتنبي بمخالفته الاساليب العربية الا بسبب لجوئه الى هذه المصطلحات الفلسفية واشباهها لان السحر كما قلت في « سحر العبقرية » غرضه ان يعرض الفكر في معرض ظاهر فهو يتحامى التجريدات وعبارات العلم واستدلالات الفلسفة التي هي من خصائص النثر فهي تجعل الشعر في عالم يختلف عن عالم الخيال وعالم الصيغ المحسوسة ولكنكم ستجدون في فصل الكلام على شعر المتنبي ان ابا الطيب اذا خلد فان خلوده سيكون من الناحية التي عابه بها شيوخ ابن خلدون ، فاذا خلد المتنبي فان الذي يخلده انما هي تلك الحكم الرائعة التي استفاضت في شعره فاستشهد الناس بها بحسب مايقتضيه مقام الاستشهاد فكأن ابا الطيب لسان حال البشر باجمعهم . فقد يقذف المتنبي في بيت او في بيتين مذهباً فلسفياً او علمياً يشتغل به المفكرون كل حياتهم من هذه المذاهب قوله:

فقلّ ما يلؤم في ثوبه الا الذي يلؤم في غرسه
من وجد المذهب عن قدره لم يجد المذهب عن قنسه

ومنها:

راعتك رائعة البياض بمفرقي ولو انها الاولى لراع الاسحم

ومعنى هذا البيت: راعتك الشعرة البيضاء التي ظهرت في رأسي ولو ان

الشعر يكون ابيض في اول امره ثم يسود لراعك الشعر الاسود ، فكأنما ابو الطيب أراد ان يمثل للناس على نحو (بيرون) في القديم ان آراء الخلق سريعة التبدل والتغير مما يدل على شك الناس في حقائق الامور ، اعتاد البشر ان يروا الحسن في الشعر الاسود والقبح في الشعر الابيض ولو تعودوا أن يروا المحاسن في الشعرة البيضاء والمساوىء في الشعرة السوداء لما كان لاشتعال الرأس شيباً أثر شنيع في العيون فكأنما لاحقائق مطلقة في العالم وانما الحقائق نسبية ، للامر الواحد كما قال « اناتول فرانس » مشاهد متفاوتة ومظاهر متباينة ، انظر الى هرم منفيس في طلوع الشمس ثم انظر اليه في غروبها فانك تجده في الصباح مخروط الشكل ينبسط عليه ضياء وردي ، وتجده في المساء مثلثاً أسود اللون ومن الذي ينفذ فكره الى مادة هذا الهرم فالعادة والمصطلح هما سبب كل عمل في هذه الدنيا .

قد تكثر هذه النظرات الفلسفية في شعر المتنبي ولكني أمر بها كما مرّ بها ابو الطيب نفسه لانها لا تؤلف الفلسفة التي أريد الكلام عليها ، أي لا تؤلف فلسفة المتنبي ؛ وانما هي خطرات قد يجوز ان يكون اقتبسها من الكتب المترجمة او دلّه عليها عقله الكبير فلم يتوسع فيها وانما الذي توسع فيه النظر في الحياة واخلاق أصحاب هذه الحياة فلننظر في صورة الحياة التي يريدها ابو الطيب

صوّر ابو الطيب المتنبي الحياة في شعره في أشرف صورها وعرضها في أكرم معارضها فهو يريدها سالمة من كل ضيم ، بعيدة عن كل ذل فلا تجدون في شعره الا ألفاظ العز والمجد والكرامة وما تقتضيه هذه الالفاظ من تعب الاجسام وسفك الدماء ، فالمعالي لا تكون رخيصة فلا بد من ابر النحل دون الشهد ، ولا بد من مرارة الزمان دون حلاوته ، ليس الفقر ان تغث المآكل انما الفقر ان تغث الكرامة ، فلا تكاد عيشة العز تفارق صورها شعره ، وان كان هذا العز في جهنم وان كان الذل في جنات الخلود ، على مَ نخاف الموت فقد يقتل العاجز وهو آمن في سربه ، وقد يوقّى الشجاع وهو غارق في الدماء ، على مَ نخاف الموت والموت لا بد منه وسواء أفرط الرجل في سلمه ام أفرط في حربه ، ان غايته الموت فاذا كان الموت غاية

كل واحد فلم تخفق الافئدة من الرعب فالحتف في العز محبوب والذل في طول العمر بغيض .

صوّر الحياة في أكمل صورها ، ينبغي للناس ان يهون عليهم رزء جسومهم اذا سلمت في هذا الرزء عقولهم واعراضهم ، لا تحتمل الاذى ، لا تغبط الذليل ، لاتهن . هذه هي الوصايا التي لم يخل منها شعره ، دع نفسك تأخذ ما يمكنها اخذه من هذه الدنيا ، ولكن لا تحسبن هذا الاخذ في زق او قينة ، فما المجد الا السيف والفتكة البكر ، ما المجد الاضرب أعناق الملوك وترك دوي في الدنيا ، اسع الى المجد ما استطعت اليه سبيلا . اطلب المال في المجد ، اطلب المجد في المال ؛ خلف ذكراً طيباً فالذكر عمر ثان ، اكسب هذا المجد من مضارب السيف ومن سنان الرمح ، قاتل في سبيل العلى ؛ قاتل في سبيل السلم ، السعادة في سفك الدماء ؛ ابن المالك على الاسل ، سلّم شرفك من الاذى باراقة الدم على جوانبه ، اطلب حقك بالطعن بالضرب ؛ الدنيا نزاع ، والدنيا لمن غلب ومن استطاع ان يلتمس الاشياء اغتصابا لم يلتمسها سؤالا . اذا غامرت في شرف فلا تقنع بما دون النجوم فالموت واحد في عظائم الامور وفي صغائرها . لا تتعلل بالآمال ؛ لا تقنع بالاقلال ، لا تسكر فعاطاة الصفائح والعوالي الذ من المدام ، الموت في الوغى عيش ، لا تداج ، لاتقصر في امرك ، لاتعجز ، لا تتكل على احد . اياك والنقص اذا كنت قادراً على التمام ، جالس كتبك فان الكتاب خير جليس ، اكرم الكريم فتملكه ، لاتكرم اللئيم فيتمرد ، احرص على الحياة فان الحياة شهية واحرص على اللذات ، لتكن في حرصك على هذه الحياة وعلى هذه اللذات مبجلا مكرما ، اياك والغواني فانهن ضياء في بواطنه ظلام ، لاعهد لهن ، يحقدن فلا يبقى في قلبهن رضى ويرضين فلا يبقى في قلبهن حقد . هذه هي الحياة التي يريدها المتنبي ، انها لحياة سامية ولكنها ممزوجة بالدم ، بعيدة عن الهدوء والسكينة . مملوءة بالقلق والاضطراب ، كلها نزاع ، وكلها غلاب ، وهل الدنيا الاغلاب ، ان الحياة التي يريدها ابو الطيب انما هي حياة القوة وهل يكون عزيز الجانب غير القوي ، قاتل ، غالب ، هذا هو الهدف الاعلى الذي

يرمي اليه المتنبي ، وقد قاتل وغالب كل حياته ، فما كانت فلسفته الا بنت خلقه وطبعه ، جمعت هذه الفلسفة بين سلطان المادة وكرامة الادب ، فلا خير في المال اذا لم يزينه المجد ، ولا خير في المجد اذا لم يؤيده المال ، وهل نكسب هذا المجد الابعد ازعاج البدن واقلاق الروح ، وهل نصل الى هذا المال الابعد ذوق مرارة الموت ولكن حلاوة هذا المجـــد وهذا الموت تنسينا مرارة الايام التي انقضت في كسب المجد والمال .

هذه هي الحياة التي يريدها ابو الطيب ومن كان نظره في الحياة مثل نظر ابي الطيب فأخلق به ان يكون متشائما لان المجد والعز والكرامة ، كل هذا يقتضي مكارم الاخلاق ، واين مكارم الاخلاق في زمن لا صديق فيه مخلص ولا عدو مداج اين مكارم الاخلاق في زمن ودّ الناس فيه خداع ، ودينهم نفاق ، عالمهم فدم ، وحازمهم وغد ، وبصيرهم اعمى ، وشجاعهم قرد ، بلي المتنبي بهم بلاء الورد بانوف لا يصلح لها الخشاش ، ليس من العجب ان يكون المتنبي متشائما اذا كان في زمن وقته فيه ضائع ، ليس من العجب ان يحذر الناس ، انهم لا يرحمون فلا ترحمهم ، روّ رمحك من دمائهم ، اقتلهم ولا اثم عليك ، ليس من العجب ان يرى ابو الطيب الدهر غير اهل ان تؤمل عنده حياة وان يشتاق فيه الى النسل .

من مزاجه السوداوي ومن شبابه المضطرب واكتهاله القلق ، ومن فرط حسه وعصبيته ، ومن الذي لاقاه في زمنه من الحسد تولد شيء من التشاؤم في خلق المتنبي ، والتشاؤم كما قال فيه الاستاذ « فاكه » مرض خلقي لا يحرم صاحبه العبقرية على شرط ان يكون المصاب به حاصلا على النصف الآخر من هذه العبقرية وهو الخيال المديد .

ما هو التشاؤم ؟ ان هو الا ادراك الحياة من أوسع جوانبها ، ومن أشد نواحيها ظلمة ، واذا لم يكن هذا التشاؤم صادقاً كان ضربا من السخرية ، واذا كان صادقاً ولم يكن لصاحبه عقل كبير كان نوعاً من الهزء ، لانه قد يفضي بالمبتلى به الى الشكوى من آلام حقيرة يقاسيها كل الناس ، ولكن تشاؤم رجل مثل ابي الطيب صاحب

عقل كبير وخيال مديد ليس فيه شيء من المهزلة .

وعن هذا التشاؤم وعن هذا الالم الذي قاساه المتنبي كل حياته صدرت أفكار سامية ، من جملة هذه الافكار : العبقرية تجعل صاحبها في شقاوة .

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله　　واخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ما أصدق هذه الحكمة ! لنبحث عنها قليلا :

مَلِك السيارات في هذا العصر (فورد) ذهب اسم سيارته في آفاق العالم كله ؛ يكاد فورد يستصفي ثروة الدنيا فهو يلعب بالذهب لعباً ، انه ليستطيع أن يدرك أمانيه كلها بالمال ، فلا يشك أحد في عظم سلطانه ، فقد أذعنت له الدنيا بحذافيرها ، ومَلِك العلم في هذا العصر (اديسون) لقد أدهش العالم كله بمخترعاته ، فقد ضبط أصوات البشر وقرّب بين متباعد المسافات بعد أن قاوم الطبيعة فهو يجد في معمله اكبر لذة يجدها عالم في اكتشاف شيء ، يعترف بسلطانه العلماء بمجامعهم . لا ريب في أن (فورد) و (اديسون) من ذوي العقول الذين أشار اليهم المتنبي في شعره ، فهل شقيا في نعيمهما كما قال المتنبي ، أم هما نعما على خلاف رأي ابي الطيب ، لننظر الى رأي كل منهما في سعادة الاخر

يقول (اديسون) في سعادة (فورد) :

رأيت حديثاً كيف ركّبت آلات آخر سيارة من سيارات (فورد) لقد رمى بسيارته هذه الى أنحاء العالم ، وقد وفق في مخترعه توفيقاً عظيماً ، فكان يجب على فورد ان يكون سعيداً كل أيامه بسبب توفيقه هذا ، ومن موجب الاسف ليس له شيء من هذه السعادة ، ان (فورد) سيكون سعيداً زمناً قليلا لانه من هؤلاء الرجال الذين لا يدوم سرورهم طويلا ، ان عقله ليعذبه في كل حين لان هذا العقل تشغله أمور حديثة لا حد لها ، فاذا تم له أمر منها فرح به ، ثم فكر في امر آخر وعلى هذا فانه يجري من أرب الى أرب من غير ان يكون راضياً .

فاذا لم يستطع الرجال ان يحدّدوا مطامعهم فانهم لا يستطيعون ان يكونوا سعداء ، فالذي يجدر بنا ان نحسدهم في هذه الحياة انما هم الرجال الذين أبعد هممهم

ان يقبضوا على فراشة ، اسعد الناس انما هو العبد الذي يعيش وليس في قلبه مطمع من المطامع .

يظن بعضهم ان المستر (كولدج) كان سعيداً وهذا خطأ فقد قضيت عنده بضعة ايام فكان كل همه ان يتولى رئاسة الجمهورية فلما القيت اليه مقاليد هذه الرئاسة كان كل همه ان يخرج منها وان يغادر القصر الابيض خوفاً من تبعاته .

اما انا فقد كان اعذب ايامي تلك الايام التي كان عمري فيها اثني عشر عاماً فلم يكن لي فيها مطمع اوهم ولكني لما كبرت اضعت السعادة فاذا رميت بنظري الى الاثنين والثمانين عاماً التي عشتها وجدت فيها اياماً كنت أستطيع ان أكون في خلالها سعيداً كل السعيد غير اني كنت فيها أشقى الأشقياء .

ويقول (فورد) في سعادة (اديسون) :

أرى (اديسون) يعد مدة السعادة الكاملة لانه غارق في مشاغله فليس به حاجة الى ان يجعل الشغل واسطة العيش وهنا السعادة كلها على خلاف ما كان يذكره العالم الكبير من انه لا سعادة في هذه الدنيا ، كان سعيداً في طفولته وشبيبته فقد كان عاملا في البرق والصحافة وصار عالماً في شبابه ، صاحب مكتشفات عظيمة ، حصلت له أسباب العمل في كل حين ؛ فقد اراد أن يجعل الليل نهاراً فكتب له التوفيق ، وشاء ان يردد اصداء الصوت البشري فتمت مشيئته ، لقد وجد لذته كلها في هذا الجهد العظيم ، لان الرجل الذي يعمل من أجل غايات شريفة ، ان الرجل الذي يعمل من أجل العمل نفسه ، انما هو سعيد كل السعيد

فاذا كان (فورد) يغبط اديسون بطراز حياته ، وهو من هو في الثروة ، واذا لم يكن (اديسون) سعيداً في ايامه وهو من هو في العلم ، فما اصدق ما قاله المتنبي من أن صاحب العقل يشقى بسبب عقله في النعيم ، وان أخا الجهالة ينعم في شقاوته .

وانكم لتجدون في شعر المتنبي كثيراً من أشباه هذه الحكمة الرائعة استنبطها من الحياة نفسها ، فكأن الحياة قد عرضت عليه صورها المختلفة واشكالها المتباينة

فاستنبط من خيرها وشرها ومن حلاوتها ومرارتها ومن كرمها ولؤمها امثالا قذفها في أبيات وانصاف أبيات ، فالرجل قد جرب كثيراً حتى احكمته التجاريب وتغلغل في بواطن القلوب فأعطته مقاليد أسرارها ، فلا يكاد يحدث حادث في هذه الحياة ألا ونجد في شعر ابي الطيب ما يمثل هذا الحادث ، فما أقرب الحكمة من طرف لسانه ، وما أجراها على شق قلمه ، والحكمة اذا كانت بنت التجاريب كانت أعلق بالاذهان ، وأسير في الايام ، والمتنبي ابن التجاريب .

اذا ما الناس جربهم لبيب فاني قد أكلتهم وذاقا

١٧ ايار سنة ١٩٣٠

عبقرية المتنبي (١)

١٤

أحفظ من تسع عشرة سنة بيتاً من الشعر قاله الشاعر الفرنسي « بوالو Boileau » في الشاعر « مالرب Malherbe » وهذا هو صدر البيت : حتى جاء مالرب ... واذكر انا كنا ندرس في مدرستنا تاريخ الادب الفرنسي الذي وضعه الاستاذ « دوميك Doumic » صاحب سر الاكادمية ، وقد أفضى بنا الدرس الى الفصل الذي عقده « دوميك » في الكلام على « مالرب » فالاستاذ « دوميك » يقول في تاريخه : ان « حتى » هذه تنقص من مقادير من تقدم « مالرب » من الشعراء . —

ولما وقفت على كلمة ابن رشيق الشائعة: (٢) ثم جاء المتنبي ، فملأ الدنيا وشغل الناس ، خطرت ببالي في الحال كلمة « بوالو » : حتى جاء مالرب ... فقلت في نفسي أفيجوز لي ان اقول في « ثم » هذه ما قاله « دوميك » في « حتى » تلك . أفيجوز لي ان اقول ان كلمة ابن رشيق تنقص من مقادير من تقدم المتنبي من الشعراء ، أفيريد ابن رشيق ان يقول ان المتنبي عفّى على آثار من سبقه .

الصحيح ان ابا الطيب المتنبي كان مشغلة للناس ، متعبة لهم ، ولكن هل كانت عبقريته وحدها السبب في شغله الناس ، أفلم يكن لحوادثه تأثير في هذا الشغل ، افلم يكن لاتصاله بسيف الدولة وبكافور الاخشيدي وبابن العميد وبعضد الدولة اثر في هذه الشهرة الشائعة ، أفلم يكن في تزاحم الملوك والامراء والوزراء عليه وتنافسهم فيه عامل من عوامل هذه الشهرة ، وعلى الخصوص فان في جملة هؤلاء المتزاحمين رجالا علت منازلهم في الادب كابن العميد مثلا ، او كالصاحب بن

(١) هذا الفصل والذي يتلوه لم احاضر بهما في كلية الاداب وانما كتبتهما في اثناء طبع المحاضرات اي بعد عطلة الكلية تتميماً للكلام على المتنبي

(٢) العمدة - الصفحة ٦٤

عبّاد الذي لم يكن له نصيب من اماديح المتنبي ، أفلم يكن في تضافر أكابر رجال اللغة على شرح ديوان المتنبي ، وفي مقدمتهم ابن جني عامل من عوامل شهرة ابي الطيب ، ان شاعراً يقول فيه الثعالبي [١] : فليس اليوم مجالس الدرس اعمر بشعر ابي الطيب من مجالس الانس ولا اقلام كتّاب الرسائل اجرى به من السن الخطباء في المحافل ولا لحون المغنين والقوّالين اشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين ، وقد الفت الكتب في تفسيره وحل مشكله وعويصه وكثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه وتكلم الافاضل في الوساطة بينه وبين خصومه والافصاح عن ابكار كلامه وعونه ، وتفرقوا فرقاً في مدحه والقدح فيه والنضح عنه والتعصب له وعليه ... ، وان شاعراً يقول فيه القيرواني [٢] : قد شغلت به الالسن وسهرت في اشعاره الاعين وكثر الناسخ لشعره والآخذ لذكره ، والغائص في بحره والمفتش عن جمانه ودره ، وقد طال فيه الخلف وكثر عنه الكشف وله شيعة تغلو في مدحه وعليه خوارج تتغايا في جرحه .. ، ان شاعراً هذا هو شأنه في الادب وهذا هو شأن الادباء فيه لا بدّ له من ان يملأ الدنيا ويشغل الناس .

ولكن هل ينبغي لنا ونحن ندرس شعر ابي الطيب المتنبي أن نتقيد بما تقيد به المتقدمون ، أفلا يليق بنا أن ننسلخ عن عوامل الشيعة التي غلت في مدحه والخوارج التي أفرطت في جرحه حتى يكون نظرنا في شعره صحيحاً ، أفلا يليق بنا ان ننظر الى هذا الشعر من وجه الشفّاف حتى يتبين لنا ما وراءه وسواء عليّ أكنت من المعجبين بابي الطيب ؛ العابدين له ، أم كنت من الذين يستوي عندهم ابو الطيب وكثير من الشعراء ، لا أستطيع ان أمرّ بفلتات عبقريته دون الاشارة اليها أو ان أمرّ بسحر هذه العبقرية دون التنبيه عليه .

فلا بدّ لنا اذا نظرنا في طبائع عبقرية المتنبي وفي خصائصها ، ونقبنا عن محاسنها ومساويها من النظر في آفاقها والسماء التي حلقت في عليائها حتى يتكشف

(١) يتيمة الدهر - الجزء الاول - الصفحة ٧٨

(٢) اعلام الكلام - الصفحة ٢٥

لنا كل أفق على حدة فنرى ألوان هذا الأفق سواء أكانت هذه الألوان كامدة أم كانت زاهية ناضرة، لا بدّ لنا من النظر في مذاهب ابي الطيب كلها : في غزله وفي بكائه وفي اهاجيه وفي اماديحه وفي وصفه على اختلاف اشـــكاله وفي حكمه ومن جملة هذه المذاهب تستبين لنا طبائع شعر المتنبي .

اول ما أتعرض له من مذاهب المتنبيء انما هو الغزل، هذا الغزل الذي صدّر به معظم قصائده اتباعاً لاصول بنى عليها الشعراء من قبله فلم يخرم القياس ولا خرج عن الاساس على انه لم يؤثر عنه انه عشق، وقد عرضنا حوداثه كلها من ميلاده الى مقتله فما وجدنا فيه ميلا الى شيء من العشق، فعلى مَ هذا النسيب في صدور قصائده، يقول الاستاذ « فاكه » في معرض كلامه على « هوغو » : اذا لم تكن ابيات الغزل أبيات شاعر عاشق كانت مقلقة مضجرة، وقد تكون هذه الابيات حسنة، فلمَ عرض المتنبيء غزله للاضجار والاقلاق وان كان في بعض غزله شيء من الحسن . —

لم اجد فى كثير من نسيب المتنبيء الا ما اجده عادة في الشعراء المتغزلين الذين جاؤا قبله ما خلا الشعراء العشاق الذين قال فيهم القيرواني (١) : قد استحوذت الصبابة على أفكارهم واستغرقت دواعي الحب معاني اشعارهم فكلهم مشغول بهواه لا يتعداه الى سواه، لم اجد للمتنبيء في غزله الا الصور التي صورها كثير من الشعراء قبله كمناجاة الديار وكاستيقاف الصحب عليها او كالضجر من نيران القلب ومن الشيب وما شاكل ذلك . فهذه صور مألوفة ومذاهب معروفة لم يكن للمتنبيء فيها ابداع ولا اختراع وانما مشى فيها على آثار غيره .

في فؤاد المحب نار جوى ... أحرُّ نار الجحيم أبردها
شاب من الهجر فرق لمته ... فصار مثل الدمقس اسودها

قرأت مرة رواية واظنها : رغائب يوحنا سرفيان، وهي من روايات « اناتول فرانس » اذكر ان يوحنا هذا، وهو بطل الرواية، احب فتاة رومانية ممثلة وقد

---

(١) اعلام الكلام - صفحة ٢١

ملك عليه حبه عقله فكانت الدنيا في نظره صورة والحانا اي كانت الدنيا في نظره صورة الممثلة التي شهد تمثيلها والحانها التي سمعها فكان يهيم على وجهه في جنبات الليل البهيم فلا يزال هائما حتى يصل الى دار حبيبته فيتأمل في اطرافها المظلمة ويقبل بابها وربما اغمي عليه فلا يفيق الا على صوت هذه الممثلة فالعاشق كل العاشق من نظر الى حبيبه نظرة « يوحنا » هذا الى فتاته ، أفيشتمل غزل المتنبي على صور مثل هذه الصورة ، أفكان المتنبي في غزله مثل اولئك العشاق الذين تعرض عليهم الطبيعة مشاهد كثيرة فلا يحفلون الا بالمشهد الذي استولى على فكرهم وتسمعهم اصواتا متباينة فلا يطربهم الا صوت حبيبهم ، اظن انه يصعب على الباحث ان يجد في غزل المتنبي شيئاً من هذا كله . —

نعم لم اجد في كثير من غزل ابي الطيب الا ما اجده في غزل كثير من الشعراء فاذا شبه القوام شبهه بالغصن واذا شبه الوجه شبهه بالشمس او بالقمر واذا شبه الشعر شبهه بظلام الليل ، فمن هذا الشكل قوله :

غصن على نقوي فلاة نابت　　　شمس النهار تقلّ ليلا مظلما

٣ فالالوان في غزل المتنبي مرددة والاصوات مكررة فالصور التي صورها انما هي صور عتيقة بالنسبة الى عصرنا هذا ، وبالنسبة الى عصر المتنبي نفسه فاي ابداع في تشبيه الخد بالورد وتشبيه العين بعيون المهى أو بالسيوف :

كم قتيل كما قتلت شهيد　　　لبياض الطلى وورد الخدود
وعيون المهى ولا كعيون　　　فتكت بالمتيم المعمود

ومن هذا القبيل قوله :

من طاعني ثغر الرجال جآذر　　　ومن السلاح دمالج وخلاخل
ولذا اسم اغطية العيون جفونها　　　من انها عمل السيوف عوامل

فلم يتحام ابو الطيب المورد العام الذي ازدحم عليه كثير من الشعراء المتغزلين ولا ارتفع عن السماء التي حلق فيها هؤلاء الشعراء فلم يخل معظم غزله من الاضجار والاقلاق لان هذا الشعر لم يصدر عن قلب تيمه الحب ، فالصور التي صورها انما

هي صور بالية لاتهز المخيلة فما مثلها الا كمثل الرماد الذي يبقى من النار الهامدة ، وعلى الرغم من قوله في بعض شعره :

جهد الصبابة ان تكون كما ارى　　عين مسهدة وقلب يخفق

لم اجد في شعره اثراً لسهد عينه و خفقان قلبه .

لولا ظباء عدي ما شغفت بهم　　ولا بربربهم لولا جآذره

من كل أحور في انيابه شنب　　خمر يخامرها مسك تخامره

نعج محاجره دعج نواظره　　حمر غفائره سود غدائره

فهذه نغمات كثيراً ما رددها الشعراء قبل المتنبي وربما كان لهم في الاجادة فيها نصيب أوفى من نصيب ابي الطيب ، فقد سلك المتنبي في غزله طريقاً كثر من سلكه حتى شاركه فيه غيره من الشعراء فلم يتجاوز مذهبهم .—

٢ وقد تعوزه رقة العاطفة في بعض غزله فهو لايشبه اولئك العشاق المتيمين الذين يفنون في عبادة من يعشقونهم ولكنه من هؤلاء العشاق اصحاب القلوب القاسية الذين اذا رقد احبابهم وسهروا هم في التفكر فيهم اسفوا على لياليهم التي تقضت في هذا التفكر :

بئس الليالي سهدت من طرب　　شوقا الى من يبيت يرقدها

فان الضنى الذي يضناه في الهوى انما هو مثل السم في الشهد واللذة التي يجدها في هذا الضنى انما هي لذة جهل :

ضنى في الهوى كالسم في الشهد كامناً　　لذذت به جهلا وفي اللذة الحتف

فهنا العقل يملي عليه ولا اثر في هذه الامالي للعاطفة الرقيقة على ان له من الابيات ما يدل على فنائه في حبيبه :

زيدي اذى مهجتي ازدك هوى　　فاجهل الناس عاشق حاقد

ينظر المتنبيء في بعض غزله الى الحب نظر الفيلسوف المحيط بدقائق هذا الحب فلا يكاد يخفى عليه امر من اموره ، ينظر اليه نظر الفيلسوف الذي يعلم ان المرء يعشق عرضاً من دون ان يدري لماذا يعشق ولكنه اذا نشق رحل عقله :

وما هي الا لحظة بعد لحظة   اذا نزلت في قلبه رحل العقل

ومنه قوله :

إلى مَ طماعيـــة العـاذل   ولا رأي في الحب للعـاقل

ومنه قوله :

لهوى النفوس سريرة لاتعلم   عرضاً نظرت وخلت اني اسلم

فعقله في غزله اكثر من عاطفته والحب لا عمل فيه للعقل وانما هو ابن العاطفة ، على انه يعلم ان الحب هو الذي يغلب على اللسان حتى لا يقدر على وصف ما في قلب صاحبه :

الحب ما منع الكلام الالسنا   والذ شكوى عاشق ما اعلنا

نعم هذه هي حقيقة الحب، فانه يغلب على صاحبه فلا يدري ما يقول ولـكن المتنبي لم يغلب عليه هذا الحب وانما مثله كمثل الفيلسوف الذي يريد ان يظهر أخلاق المرأة في الشعر لا كمثل العاشق الذي يحب ان يظهر دقائق العاطفة في شعره :

اذا غدرت حسناء وفت بعهدها   فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد

وان عشقت كانت اشد صبابة   وان فركت فاذهب فما فركها قصد

وان حقدت لم يبق في قلبها رضى   وان رضيت لم يبق في قلبها حقد

كذلك اخـــلاق النساء وربما   يضل بها الهادي ويخفى بها الرشد

فالمتنبي لم يضل باخلاق النساء . —

على انه قد وردت في طائفة من غزله ابيات نكاد نلمس فيها اثر العاطفة ولست اعني بهذه الابيات قصيدته المشهورة :

من الجآذر في زي الاعاريب   حمر الحلى والمطايا والجلابيب

التي قال فيها الثعالبي : وناهيك بهذه الابيات جزالة وحلاوة وحسن معان ، كلا ولست اعني بها البيتين المشهورين :

لبسن الوشي لامتجملات   ولـكن كي يصنَّ به الجمالا

وضفرن الغدائر لالحسن   ولـكن خفن في الشعر الضلالا

اللذين قال فيهما الثعالبي : وهذا من احسانه المشهور الذي لا يشق غباره فيه او البيتين التاليين :

حسان التثني ينقش الوشي مثله اذا مسنَ في اجسادهن النواعمُ

ويبسمن عن درّ تقلدن مثله كأن التراقي وشحت بالمباسم

او غير هذه الابيات كلها من أبيات المتنبيء الحسنة في الغزل ؛ كلا اني لا أشير الى هذا كله لان هذا الشعر كله لا يخلو من أثر الصنعة فهو حسن ولا شك ولكنه قليل النصيب من العاطفة وانما أريد بالابيات التي تشتمل على العاطفة قوله :

أحبه والهوى وأدؤره وكل حب صبابة ووله

هذه هي روح العشاق ، وهؤلاء هم الشعراء الذين يعرفون مقدار الحب فالعاشق يحب كل شيء من أجل حبيبه ، فهو يحب حبيبه ويحب الهوى ويحب دار الحبيب ويقسم بالهوى وبدار الحبيب لان الحب ان هو الا ذهاب العقل ومن هذا الشكل قوله :

واني لأعشق من أجلكم نحولي وكل امريء ناحل

ومنه قوله :

وكيف التذاذي بالاصائل والضحى اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبّا

ومنه :

اذا كان شم الروح أدنى اليكم فلا برحتني روضة وقبول

ومنه :

فليتها لا تزال آوية وليته لا يزال مأواها

نعم هذه هي روح العشاق وهذا هو رمز العاطفة ولكن أمثال هذه الابيات قليلة في شعر المتنبي ، فلم يكن ابو الطيب من اصحاب النسيب الخالد .

فاذا لم يخلد نسيب المتنبيء ، أفتخلد مراثيه . أفكان ابو الطيب في هذه المراثي شجرة الاختراع وثمرة الإبداع ؛ فانتظر في هذا كله .

ما اظن المراثي الا هذا الضرب من الشعر الذي يقرأه القاري فيتبين له في تضاعيفه اثر اللوعة والحرقة ، او كرامة الميت ومبلغ تأثير موته في اهله وقومه الى غير ذلك من الكلام على اخلاقه وخصائصه ، فأقبح المراثي هذه القصائد التي لا نرى فيها الا صوراً عامة تصلح لكل رجل يبكى عليه ، ومن هذا الشكل كثير من مراثي المتقدمين التي تشتمل على الغلو في كل شيء حتى اصبحت مدعاة الى الضحك بدلا من ان تكون مجلبة للدمع ، فما هي خصائص مراثي المتنبي ؟

رثى ابو الطيب محمد بن اسحق التنوخي ورثى جدته التي كان يحبها حباً جماً ورثى والدة سيف الدولة وابنه ابا الهيجاء عبد الله وعبده يماك واخته الصغرى واخته الكبرى وابا وائل تغلب بن داود حمدان وابا شجاع فاتكا وعمة عضد الدولة .

تختلف المراثي في عظمة شأنها وحقارته على اختلاف موضوعاتها فاذا كان المرثي جليلا استطاع الشاعر ان يجعل رثاءه جليلا وتختلف العواطف فيها على قدر اتصال الشاعر بالمرثي ، ولقد رثى ابو الطيب جماعة من أصحاب الشأن الجليل في عصرهم ورثى من يتصل بها محكم الاتصال وهي جدته فلننظر الى دموعه في هذه المراثي . —

أرخى ابو الطيب في طائفة من مراثيه زمام الخيال فجمح به هذا الخيال حتى بلغ به أفقاً مشتركا يسرح فيه كثير من الشعراء وكان هذا الامر في مقتبل عمره أي في الوقت الذي لم يثقف فيه خياله كل التثقيف وهذه حالة كثير من الشعراء فانهم ينزعون في فاتحة الامر الى التقليد ولكنهم اذا كانوا من أصحاب العبقرية لا يلبثون ان يخرجوا من هذا التقليد الى الابداع وهكذا كان المتنبيء في اول رثائه كرثائه للتنوخي :

ما كنت احسب قبل دفنك في الثرى ان الكواكب في التراب تغور
ما كنت آمل قبل نعشك ان أرى رضوى على ايدي الرجال تسير
خرجوا به ولكل باك خلفه صعقات موسى يوم دك الطور

والشمس في كبد السماء مريضة والارض واجفة تكاد تمور
وحفيف أجنحة الملائك حوله وعيون اهل اللاذقية صور

لجأ الى الغلو في وصف الخطب وهذا مذهب كثر من لجأ اليه من الشعراء فلم يكن لابي الطيب فيه اجادة او احسان في استطاعة الشاعر ان يقول هذه الابيات في كل رجل يموت فليس لها طابع خاص ودواوين العرب مشتملة على كثير من اشباه هذه المعاني العامة .

ولئن لم يكن لمرثية ابي الطيب في التنوخي طابع خاص فان في مرثيته في جدته — طابعاً ظاهراً وقد اشرت الى هذه المرثية في كلامي على احساس المتنبيء فلست أجد حاجة الى الدلالة على موطن من مواطن العاطفة فيها فالقصيدة كلها مبلولة بدموع ابي الطيب فلم ينزع المتنبي فيها الى هذه الرسوم العامة التي تكون مشتركة .

ولكن جلالة الشعر تجلت في قصيدته في أم سيف الدولة فقد وجد المتنبي مجال القول ذا سعة ؛ ووجد لساناً قائلا فقال :

أطاب النفس انك مت موتاً تمنته البواقي والخوالي
رواق العز فوقك مسبطر وملك علي ابنك في كمال

اي نعش اكرم من نعش يمشي الامراء فيه حفاة :

مشى الامراء حوليها حفاة كأن المرو من زف الرئال
وأبرزت الخدور مخبآت يضعن النقس امكنة الغوالي
اتتهن المصيبة غافلات فدمع الحزن في دمع الدلال

لقد استنزل ابو الطيب جلالة وحيه من جلالة الميت فظهرت آثار العظمة على شعره . —

وكذلك فقد استطاع ان يطبع بكاءه على ابن سيف الدولة بطابع خاص :

بنا منك فوق الرمل ما بك في الرمل وهذا الذي يضني كذاك الذي يبلي
كأنك أبصرت الذي بي وخفته اذا عشت فاخترت الحمام على الثكل
تركت خدود الغانيات وفوقها دموع تذيب الحسن في الاعين النجل

تبل الثرى سوداً من المسك وحده   وقد قطرت حمراً على الشعر الجثل
فان تك في قبر فانك في الحشا   وان تك طفلا فالأسى ليس بالطفل
ومثلك لا يبكى على قدر سنه   ولكن على قدر المخيلة والاصل

ولما بكى المتنبي على اخت سيف الدولة الصغرى كان عقله قد اختمر فنظر الى الحياة نظراً صحيحاً ومزج الفلسفة بالشعر فجاءت نظراته صادقة فيها تجربة الفيلسوف ، قالب الشاعر :

ولذيذ الحياة أنفس في النفس   وأشهى من أن يمل وأحلى
واذا الشيخ قال أف فما   مل حياة وانما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب   فاذا وليا عن المرء ولّى
ابداً تسترد ما تهب الدنيا   فيا ليت جودها كان بخلا
فكفت كون فرحة تورث الغم   وخل يغادر الوجد خلا
وهي معشوقة على الغدر لا تحفظ   عهداً ولا تتمم وصلا
كل دمع يسيل منها عليها   وبفك اليدين عنها تخلّى
شيم الغانيات فيها فما أدري   لذا أنّث اسمها الناس أم لا

ولم يكن بكاؤه على أخت سيف الدولة الكبرى بأقل من بكائه على أخته الصغرى ففي هذه المرثية أجرى قلمه في وصف المصيبة فكادت المصيبة تتكلم :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر   فزعت فيه بآمالي الى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه أملا   شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
تعثرت به في الافواه ألسنها   والبرد في الطرق والاقلام في الكتب

ثم أفاض في الكلام على أخلاق أخت سيف الدولة وألّف بين هذا الكلام وبين صدق عاطفته وحسن وفائه وكرم مودته وقد انقطع عن سيف الدولة ولم يبق له طمع في العودة اليه :

أرى العراق طويل الليل مذ نعيت   فكيف ليل فتى الفتيان في حلب
يظن أن فؤادي غير ملتهب   وان دمع جفوني غير منسكب

بلى وحرمة من كانت مراعية　　لحرمة المجد والقصاد والأدب
ومن مضت غير موروث خلائقها　　وان مضت يدها موروثة النشب
وهمها في العلى والمجد ناشئة　　وهم أترابها في اللهو واللعب
يعلمن حين تحيّا حسن مبسمها　　وليس يعلم الا الله بالشنب

هذا هو الرثاء لا تلك الصور الجامدة التي صوّرها في رثاء التنوخي فان مراثيه من بعد مرثية التنوخي طبعت بفرط الحس وكرم العاطفة وطيب القول وصدق النظر في الحياة وقد لجأ الى النظرات الفلسفية في رثائه فمرة كان يختصرها :

تصفو الحياة لجاهل او غافل　　عمّا مضى فيها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه　　ويسومها طلب المحال فتطمع
أين الذي الهرمان من بنيانه　　ما قومه ما يومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن اصحابها　　حيناً ويدركها الفناء فتتبع

ومرة كان يتوسع فيها :

لا بد للانسان من ضجعة　　لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبه　　وما أذاق الموت من كربه
نحن بنو الموتى فما بالنا　　نعاف ما لا بد من شربه
تبخل ايدينا بارواحنا　　على زمان هي من كسبه
فهذه الارواح من جوه　　وهذه الاجسام من تربه
لو فكر العاشق في منتهى　　حسن الذي يسبيه لم يسبه
لم يُر قرن الشمس في شرقه　　فشكّت الانفس في غربه
يموت راعي الضان في جهله　　ميتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره　　وزاد في الامن على سربه
وغاية المفرط في سلمه　　كغاية المفرط في حربه
فلا قضى حاجته طالب　　فؤاده يخفق من رعبه

هذه جملة القول في مراثيه فاذا كان لها طابع خاص فما هذا الطابع الا جلالة

الشأن ولئن قلّد ابو الطيب في نسيبه ومشى فيه على آثار غيره فقد ابدع في مراثيه اما اهاجيه فتارة كان يهجر فيها ويفحش ، فمن هذا الشكل قوله :

وقد أري الخنزير اني مدحته ولو علموا قد كان يهجى بما يطرى

ومنه قوله :

أبا النتن قد قيدتني بمواعد مخافة نظم للفؤاد مروّع
وقدّرت من فرط الجهالة انني اقيم على كذب رصيف مصنّع
اقيم على عبد خصي منافق لئيم رديء الفعل للجود مدّع

أو كقصيدته في ضبّة ، فلا تخرج هذه الاهاجي عما يتشاتم به عامة القوم فقد كان ابو الطيب يباده بها مبادهة دون ان يغطيها باغطية رقيقة تستر شيئاً من سوء القول ولم ينج من هذه الشتائم حي ولا ميت واذا كان الطعن في الميت لا يعد من مكارم الاخلاق فالمتنبي لم يتعفف عن هذا الطعن :

ان مات مات بلا فقد ولا أسف أو عاش عاش بلا خَلْق ولا خلق
منه تعلّم عبد شقّ هامته خون الصديق ودس الغدر في الملق
وحلف ألف يمين غير صادقة مطرودة ككعوب الرمح في نسق

وتارة كان يتهكم في أهاجيه تهكما أمرّ من القذع والفحش والتهكم في الهجاء اشد ايلاماً من السب والشتم واقتل للخصم ، فمنه قوله في كافور :

من علّم الأسود المخصي مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيد

ومنه قوله :

من اية الطرق يأتي مثلك الكرم اين المحاجم يا كافور والجلم

ومن هذا الشكل :

ومصر لعمري اهل كل عجيبة ولا مثل ذا المخصي اعجوبة بكرا
يُعدُّ اذا عدّ العجائب اوّلا كما يبتدا في العد بالاصبع الصغرى

فلا شك في ان هذا الضرب من الهجاء اعف من كلمات الخنزير والمنافق

واللئيم وما شابهها من كلام العامة فهو اشد ايجاعاً وأرفع شأناً . —

واذا لم يراع المتنبي حرمة كافور في هجائه اياه فقد راعى هذه الحرمة في تعريضه بسيف الدولة فكأن هذا التعريض أثر نفس ثائرة على من تحبه يتنازعها عاملان : عامل الاغضاء على الاذى وعامل التشفي من الغيظ ولكن التشفي غلب في خاتمة الامر على الاغضاء فعرّض المتنبي بتنغيص سيف الدولة وبمنته دون ان يشتمل هذا التعريض على شيء من شتائم السوقة .

واذا انتقلنا من هذه النواحي كلها : نواحي الغزل والبكاء والهجاء الى آفاق المدح والوصف والحكمة تبين لنا ان عبقرية المتنبي ارتفعت في هذه الآفاق الى سماء أعلى وصبغت بصباغ خاص . —

اول هذه المذاهب مذهب المدح على ان هذا المذهب لايخلو من بعض المساويء ؛ من جملتها تكرار المعاني في طائفة من مدائح المتنبي ، والغلو في بعض مدحه واللجوء الى صفات تكاد تكون عامة ليس عليها شيء من رونق الجدة والطرافة .

اما تكرار المعاني فمثل مدائح ابي الطيب في هذا التكرار كمثل رواسيم يطبع بها الشاعر اي ممدوح شاء حتى لا نكاد نجد فرقاً كبيراً بين ممدوحيه .

فمن هذا النوع وصفه لطبيعة كرم بعض ممدوحيه وهو المشطب الذي قال فيه :

يعطي فلا مطلة يكدّرها   بها ولا منّة ينكّدها

فلم تكن هذه الصفة خاصة بالمشطب فقد طبع بها المتنبيء سيف الدولة فقال له :

انت الجواد بلا منٍّ ولا كدر   ولا مطال ولا وعد ولا مذل

ومن هذا التكرار وصفه للشجاعة فقد قال في الكلابي المنبجي :

لما رأوه وخيل النصر مقبلة   والحرب غير عوان أسلموا الحللا

وهذا القول أو مايقرب منه قالهفي سيف الدولة :

فلما رأوه وحده قبل جيشه   دروا ان كل العالمين فضول

ومن هذا الشكل قوله في المنبجي :

وضاقت الارض حتى كان هاربهم   اذا رأى غير شيء ظنه رجلا

وهذا القول او ما يشاكله قاله في سيف الدولة :

فكلما حلمت عذراء عندهم   فانما حلمت بالسبي والجمل

والشواهد على وحدة المعاني في بعض مدائح ابي الطيب كثيرة ، فمنها قوله في ابي المنتصر الازدي :

أمريد مثل محمد في عصرنا   لاتبلنا بطلاب مالا يلحق

لم يخلق الرحمن مثل محمد   أحداً وظني انه لا يخلق

ولكن الرحمن خلق مثل محمد وهو سيف الدولة الذي قال فيه المتنبي :

ومن علي بن عبد الله معرفتي   بحمله من كعبد الله او كعلي

نعم الشواهد على وحدة المعاني كثيرة وآخر ما أذكره منها هذا البيت الذي قاله المتنبي في جعفر بن كيغلغ :

يا من ألوذ به فيما أؤمله   ومن اعوذ به مما أحاذره

وهذا الشيء ذاته قاله في الطرسوسي :

يا من نلوذ من الزمان بظله   أبداً ونطرد باسمه ابليسا

ولست أحاول الاستقصاء في هذا الباب وانما رغبت في ذكر انماط من أماديح المتنبي استدلالا بها على وحدة المعاني في طائفة من هذه الاماديح ، فلم يكن للمتنبي في مدح بعض ممدوحيه صور خاصة اي لم يصل ابو الطيب الى أعماق الممدوح حتى يستخرج منها صورة خاصة بهذا الممدوح تناسبه ولا تناسب غيره من الممدوحين

فلنجاوز هذا العيب الى غيره من عيوب مدائح المتنبي ، من هذه العيوب الغلو في وصف الممدوح :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه   لما أتى الظلمات صرن شموسا

أو كان صادف رأس عازر سيفه   في يوم معركة لأعيا عيسى

أو كان لج البحر مثل يمينه   ما انشق حتى جاز فيه موسى

أو كان للنيران ضوء جبينه عبدت فكان العالمون مجوسا

فهذا ضرب من المدح خارج عن الاعتدال حتى ليكاد يكون مبتذلا .

ومن هذه العيوب ورود المتنبيء في بعض مدائحه موارد مشتركة يردها ويصدر عنها كثير من الشعراء ، منها قوله :

يفنى الكلام ولا يحيط بفضلكم

ومنها :

من كل ابيض وضاح عمامته كأنما اشتملت نوراً على قبس

ولكن هذه السيئات قد تشفع لها حسنات المتنبي الكثيرة في مدحه التي انفرد بها فلا يجاريه فيها مجار ، فمنها تصويره لهمة سيف الدولة :

في سبيل العلى قتالك والسلم وهذا المقام والاجذام

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام

ومنها تصويره لرباطة جأشه:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الابطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

ومن هذا النوع قوله :

وفارس الخيل من خفت فوقرها في الدرب والدم في اعطافه دفع

فاوحدته وما في قلبه قلق واغضبته وما في لفظه قذع

بالجيش تمتنع السادات كلهم والجيش بابن ابي الهيجاء يمتنع

ومنه مدحه لكافور

وما كنت ممن ادرك الملك بالمنى ولكن بايام اشبن النواصيا

عداك تراها في البلاد مساعيا وانت تراها في السماء مراقيا

لبست لها كدر العجاج كأنما ترى غير صاف ان ترى الجو صافيا

وقدت اليها كل اجرد سابح يؤديك غضبانا ويثنيك راضيا

ومنه مدحه لأبي شجاع :

ابو شجاع ابو الشجعان قاطبة هول نمته من الهيجاء اهوال
تملّك الحمد حتى ما لمفتخر في الحمد حاء ولا ميم ولا دال
عليه منه سرابيل مضاعفة وقد كفاه من الماذي سربال

❀❀❀

غير ان الحلبة التي جلّى فيها ابو الطيب انما هي حلبة الوصف ولست اطلق هذا الوصف اطلاقا وانما اريد به ناحية من نواحيه وهي ناحية المعارك، حتى قال ابن الاثير في المثل السائر:

« واما ابو الطيب المتنبي فانه اراد ان يسلك مسلك ابي تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ما اعطاه، لكنه حظي في شعره بالحكم والامثال واختص بالابداع في مواضع القتال، وانا اقول فيه قولا لست فيه متأثما ولا منه متلثما وذاك انه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه امضى من نصالها واشجع من ابطالها وقامت اقواله للمسامع مقام افعالها حتى يظن ان الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا فطريقه في ذلك يضل بسالكه ويقوم بعذر تاركه ولاشك انه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ما اداه عيانه »

نعم، هذه هي الناحية التي برّز فيها المتنبي فتكاد تمثل معظم عبقريته، وربما كان لروحه ولطباعه الاثر الابلغ في تبريزه في وصف الحروب وأدواتها، فقد كان هذا النوع من الشعر لاصقاً بطبعه ممتزجاً بروحه فكان شعره فيه صورته الناطقة وأريد بهذه الصورة شغفه بالحروب وانبساطه الى رؤية الدم والشاعر يبدع في المذهب الذي تأنس به نفسه . —

ولقد مثّل ابو الطيب في وصف المعارك جهة من جهات عصر سيف الدولة فكأن شعره في هذا الوصف مرآة مصقولة تعكس تلك الجهة فقد حفظ لنا المتنبي لوحا ناطقا يفصح عما رسم عليه من غزوات سيف الدولة وغاراته فلم يغادر امراً من امور تلك الحروب الاوضحه حتى تجلت لنا مهابة سيف الدولة في العيون ومقادير فضله في دفع الروم عن ديار الشام ومهما وصف رجال التاريخ هذه الغزوات —

— والغارات فلا يستطيع وصفهم ان ينطق بما نطق به شعر المتنبي المشتمل على صور شتى ، فاننا لانشاء ان نعرف شيئاً عن جيش سيف الدولة وعن سفنه وعن مخافة الروم منه وعن شدة غزواته وعن صباغها القومي وصباغها الديني وعن تحريق منازل الروم وتخريب ديارهم الا عرفناه . —

فاذا تكلم على عرض الجيش ذكر تجافيف الخيل ومفاضات الفرسان وترائكهم وذكر الرايات والشعار والسلاح المسمم ووصف دربة الخيل فلا يغادر لونا او شكلا من الوان الوصف واشكاله ، فكأننا بمحضر جيش متكامل العدة مستتم التعبئة :

ولما عرضت الجيش كان بهاؤه — على الفارس المرخى الذؤابة منهم
حواليه بحر للتجافيف مائج — يسير به طود من الخيل ايهم
تساوت به الاقطار حتى كأنه — يجمع اشتات البلاد وينظم
وكل فتى للحرب فوق جبينه — من الضرب سطر بالاسنة معجم
يمد يديه في المفاضة ضيغم — وعينيه من تحت التريكة ارقم
كاجناسها راياتها وشعارها — وما لبسته والسلاح المسمم
وادبها طول القتال فطرفه — يشير اليها من بعيد فتفهم
تجاوبه فعلا وما تسمع الوحى — ويسمعها لفظا وما يتكلم
لها في الوغى زي الفوارس فوقها — فكل حصان دارع متلثم
وما ذاك بخلا بالنفوس على القنا — ولكن صدم الشر بالشر اجزم

فاذا كان لهذا الوصف طبيعة فطبيعته الدقة لان ابا الطيب لم يغفل عن ذكر ما يأخذ بمجامع القلوب في عرض الجيوش ، فالذي يستهوي الطرف في هذا العرض انما هي ملابس الخيل و ملابس الفرسان وحركات الخيل و الفرسان والمتنبي تكلم على هذا كله فما سها عن صغيرة او عن كبيرة وهذا النوع من الوصف الدقيق يفتقر اليه الشعر العربي .

ولكن كلامه على سفن سيف الدوله لا يعد في طبقة كلامه على الجيش فان ادوات

الوصف تنقصه في هذا المذهب حتى اضطر الى استعارة ادوات الخيل فلم يبين لنا الا لونا من الالوان في وصف السفن :

قاسمتها تل بطريق فكان لها ابطالها ولك الاطفال والحرم
تلقى بهم زبد التيار مقربة على جحافلها من نضحه رثم
دهم فوارسها ركاب ابطنها مكدودة وبقوم لا بها الالم
من الجياد التي كدت العدو بها ومالها خلق منها ولا شيم

واذا تكلم على هرب الروم هول الامر حتى نكاد نظن ان الروم ينهزمون برأى منا زرافات ووحدانا :

سراياك تترى والدمستق هارب واصحابه قتلى وامواله نهى
اتى مرعشا يستقرب البعد مقبلا وادبر اذ اقبلت يستبعد القربا
كذا يترك الاعداء من يكره القنا ويقفل من كانت غنيمته رعبا
وهل رد عنه باللقان وقوفه صدور العوالي والمطهمة القبا
مضى بعدما التف الرماحان ساعة كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا
ولكنه ولى وللطعن سورة اذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا
وخلى العذارى والبطاريق والقرى وشعث النصارى والقرابين والصلبا

ولقد اكثر من الاشارة الى هرب الروم فكان في كل مرة يشير فيها الى خوفهم يصور الخائفين في صور ناطقة ، فمرة يحلمون بالخوف :

جاز الدروب الى ماخلف خرشنة وزال عنها وذاك الروع لم يزل
فكلما حلمت عذراء عندهم فانما حلمت بالسبي والجمل
ان كنت ترضى بان يعطوا الجزى بذلوا منها رضاك ومن للعور بالحول

ومرة يتخبطهم المس من هذا الخوف :

وما نجا من شفار البيض منفلت نجا ومنهن في احشائه فزع
يباشر الامن دهراً وهو مختبل ويشرب الخمر حولا وهو ممتقع

هذا هو الوصف الذي انفرد به ابو الطيب فلا تجاريه فيه اقلام النظراء

مستعرب اخيلتهم وصف حرب : واستعار لجديد لونا والقى
اتم في حواشي الطفال

ففي بيتين من الشعر يعرض علينا صورة الجيش :

وجيش يثني كل طود كأنه   خريق رياح واجهت غصنا رطبا
كأن نجوم الليل خافت مغاره   فمدّت عليها من عجاجته حجبا

وفي بيت من الشعر يصف لنا تحريق منازل الروم وتخريب ديارهم :

تسايرها النيران في كل منزل   به القوم صرعى و الديار طلول

وفي بيتين من الشعر يصف لنا اضطراب القساطل و اختلاط المناهل بدماء الروم :

واني اهتدى هذا الرسول بأرضه   وما سكنت مذ سرت فيها القساطل
ومن أي ماء كان يسقي جياده   ولم تصف من مزج الدماء المناهل

ومثل هذا السحر كثير في شعر المتنبي في غزوات سيف الدولة و غاراته ولست أظن أن في شعراء العرب شاعراً يعلو ابا الطيب في هذا المذهب .

وما هذه الروائع كلها الى جنب قصيدته في بناء الحدث :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها   وتعلم أي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله   فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا   وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت   ومن جثث القتلى عليها تمائم
طريدة دهر ساقها فرددتها   على الدين بالخطي والدهر راغم
وكيف ترجي الروم والروس هدمها   وذا الطعن أساس لها ودعائم
وقد حاكموها والمنايا حواكم   فما مات مظلوم ولا عاش ظالم
أتوك يجرون الحديد كأنما   سروا بجياد مالهن قوائم
اذا برقوا لم تعرف البيض منهم   ثيابهم من مثلها والعمائم
خميس بشرق الارض والغرب زحفه   وفي أذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسن وأمة   فما يفهم الحدّاث إلا التراجم
فلله وقت ذوّب الغش ناره   فلم يبق الا صارم او ضبارم

تقطّع مالا يقطع الدرع والقنا وفرّ من الفرسان من لا يصادم
وقفت ومافي الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب وصار الى اللبات والنصر قادم
حقرت الردينيات حتى طرحتها وحتى كأن السيف للرمح شاتم
ومن طلب الفتح الجليل فانما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم
نثرتهم فوق الاحيدب نثرة كما نثرت فوق العروس الدراهم
تدوس بك الخيل الوكور على الذرى وقد كثرت حول الوكور المطاعم
تظن فراخ الفتخ أنك زرتها بأماتها وهي العتاق الصلادم
اذا زلقت مشيتها ببطونها كما تتمشى في الصعيد الاراقم

فأبو الطيب شاعر العوالي والسوابق اذا وصف معركة أفاض في الكلام على الدقائق كالكلام على سير الخيل وسير الجيش وكالكلام عن حسن الثبات وقبح الهزيمة وكالكلام على هيآت الهازم والمهزوم الى غير ذلك من الصفات التي تحتاج الى حواس قوية تعمل فيها مشاهد القتال والى خيال مديد يحيي هذه المشاهد. وقد اجتمع للمتنبيء شيء من هذا كله واذا أضفنا الى ما اجتمع له من قوة الحواس وامتداد الخيال ميله الى الحروب وشهوده أكثر الغزوات والغارات والفته للبدو في فاتحة أمره لم نعجب من تبريزه في هذا الميدان الذي لا يلحقه به لاحق فاذا خلد أبو الطيب فان معظم خلوده يكون من ناحية هذا الوصف فهو وسيف الدولة متلازمان في هذا الخلود فلا يذكر سيف الدولة الا ذكر معه المتنبي ولا يذكر ابو الطيب الا ذكر معه سيف الدولة فلولا وصف المتنبي لمعارك سيف الدولة لما كان لهذه المعارك صور ناطقة ولولا معارك سيف الدولة لما كانت عبقرية المتنبي تخلد الا من ناحية واحدة وهي ناحية الحكمة ولكن خوضه معارك سيف الدولة جعل له حظاً أوفى من الخلود فاذا كان الأدب مرآة المجتمع فشعر المتنبي مرآة غزوات

سيف الدولة في بلاد الروم .

واذا كان في وصف المعارك شيء يسير يؤاخذ به المتنبي فما هذا الشيء الا تكرار بعض الصور في هذا الوصف ، فمن هذا التكرار قوله في بعض قصائده وقد أراد ان يصف سرعة الخيل في سيرها :

قاد المقانب أقصى شربها نهل   على الشكيم وأدنى سيرها سرع

وهذا قريب من قوله :

وخيل براها الركض في كل بلدة   اذا عرّست فيها فليس تقيل

ومن هذا النحو قوله وقد وصف همة سيف الدولة :

لو كانت الخيل حتى لا تحمله   تحملته الى أعدائه الهمم

وهذا شبه قوله :

أكلما رمت جيشاً فانثنى هربا   تصرّفت بك في آثارها الهمم

ومنه قوله وقد أشار الى تحريق منازل الروم :

عبرت تقدمهم فيه وفي بلد   سكّانه رمم مسكونها حمم

وهذا مثل قوله :

تسايرها النيران في كل منزل   به القوم صرعى والديار طلول

لكن وحدة هذه المعاني لا تحط من قدر هذا الوصف الجليل .

ولئن مثل ابو الطيب المتنبي ناحية من نواحي « فتى الفتيان في حلب » فانه لم يمثّل لنا النواحي كلها من عصر ملك حلب ، فلم نجد في شعر المتنبي ما نجده في شعر البحتري من وصف قصور بني العباس ، ونعيم الخلافة وترفها ، أفكان سيف الدولة بعيداً عن مثل هذا النعيم والترف ، أم كان المتنبي غارقاً في الكلام على الجماجم والغلاصم وعلى القساطل والجحافل ، فشغلته دماء الروم عن الكلام على شيء من المدامة والاوتار والنغم :

ألهى الممالك عن فخر قفلت به   شرب المدامة والاوتار والنغم

فلم يصل الينا شيء من نعيم سيف الدولة الا هذه الصورة التي صورها لنا المتنبي فأرتنا سيف الدولة جالساً في فازة من الديباج :

— عليها رياض لم تحكها سحابة ... واغصان دوح لم تغن حمائمه
وفوق حواشي كل ثوب موجّه ... من الدر سمط لم يثقبه ناظمه
ترى حيوان البر مصطلحاً به ... يحارب ضد ضده ويسالمه
اذا ضربته الريح ماج كأنه ... تجول مذاكيه وتدأى ضراغمه

ومن هذه الابيات القليلة يتبين لنا أن المتنبيء لا يقصر اذا شاء عن التصاوير المشتملة على ألوان برّاقة ولكنه انصرف عن هذا النوع من الشعر الى مذهب ألصق بنفسه وأعاق بروحه فلم يهتم بمشاهد الطبيعة على ان ما خلّفه لنا من وصف شعب بوان يدل على ان عبقريته قد تستهويها الطبيعة في بعض الاوقات فاذا استهوتها الطبيعة أوحت اليها خصائص الالوان فيطبع خياله مشاهدها بطوابع خاصة تليق بها وقد لا تليق بغيرها :

ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان
طبت فرساننا والخيل حتى ... خشيت وان كرُمْن من الحران

وكيف كان الامر فان ابا الطيب لم يتوسع في هذا المذهب توسع غيره من شعراء الطبيعة وفي مقدمتهم البحتري الا ان الوصف الذي يشتمل عليه بعض شعره انما هو وصف دقيق لا يخلو من روح وحياة فلما وصف الحمّى :

وزائرتي كأن بها حياء ... فليس تزور الا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها ... فتوسعه بانواع السقام
كأن الصبح يطردها فتجري ... مدامعها باربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق ... مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر ... اذا القاك في الكرب العظام

نفخ فيها حياة فجعل الموصوف بمنزلة شخص ناطق ، ولكن الذي وفق فيه

كل التوفيق انما هو وصف الاسد فقد خاض في دقائق الوصف كلها فلم يغفل عن الاشارة الى مهابة الموصوف :

وقعت على الأردنّ منه بلية ... نضدت بها هام الرفاق تلولا
ورد اذا ورد البحيرة شارباً ... ورد الفرات زئيره والنيلا

ولا غفل عن الاشارة الى هيأته :

متخضب بدم الفوارس لابس ... في غيله من لبدتيه غيلا
ما قوبلت عيناه الا ظنتا ... تحت الدجى نار الفريق حلولا

ولا أهمل ذكر عيشته ومشيته :

في وحدة الرهبان الا انه ... لا يعرف التحليل والتحريما
يطأ الثرى مترفقاً من تيهه ... فكأنه آس يجس عليلا

ولا قصّر في تصوير استعداده للهجوم على فريسته :

ما زال يجمع نفسه في زوره ... حتى حسبت العرض منه الطولا
ويدق بالصدر الحجار كأنه ... يبغي الى ما في الحضيض سبيلا

الى غير ذلك من اسرار الوصف التي دلت على ان ابا الطيب يستطيع اذا شاء ان يتغلغل في البواطن والظواهر فيستخرج منها اشكالا فيها حياة وشعور .

* * *

هذا شيء من الكلام اليسير على مذهب المتنبي في الوصف ، فاذا برز ابو الطيب فان تبريزه في وصف المعارك واذا خلد فانما يخلد من هذه الناحية ومن ناحية الحكمة فاذا كان المتنبي شاعر الهيجاء فانه شاعر الحكمة والمثل ، فقد بلا اخلاق الناس وامتحن الدنيا وعرض الحياة فاستنبط من هذا كله روائع الحكم وسوائر الامثال فلا خوف على خلود عبقريته ما دمنا نحتاج في كل عصر من العصور الى شكوى الدهر والدنيا والناس والى الموعظة والاعتبار والى ما يجري مجرى هذه الامور واشباهها ، لا خوف على خلود هذه العبقرية ما دامت العربية لغة كثير من الخلق ، وما دام أهل هذه اللغة يتمثلون بالابيات التي تشتمل على صور الحياة بمجامعها ، كرمها ولؤمها ، وحلوها ومرها ، وعزها وذلها ، وراحتها

و تعبها ، وخيرها وشرها وأملها ويأسها ، فلم يخطيء ابو الطيب في قوله :

وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشدا

***

لزمنا من بعد هذا كله ان نعرف مصادر عبقرية المتنبيء ، من هم الشعراء الذين أثروا في هذه العبقرية ومن هم الشعراء والكتاب الذين اثرت فيهم عبقرية ابي الطيب وهذا باب لا احتاج فيه الى التطويل ، فان المتقدمين من الادباء امثال الثعالبي والجرجاني قد عقدوا الفصول الطوال في الكلام على الشعراء الذين أخذ عنهم وعلى الشعراء الذين اخذوا عنه ، فاما الذين حلوا نظمه واستعانوا بالفاظه ومعانيه هم الصاحب بن عباد وابو اسحق الصابي والاستاذ احمد بن ابراهيم الضبي وابو بكر الخوارزمي وابو فرج الببغاء والمهلبي الوزير والسري بن احمد وابو الفتح علي بن محمد البستي الكاتب وابو الحسن السلامي وابو القاسم الزعفراني وغيرهم واما الذين استعان بهم المتنبي هم ابو تمام وابن الرومي والاعشى وابو نواس وعبد الله بن محمد المهلبي وموسى بن جابر الحنفي وعبد الله بن طاهر والعباس بن الاحنف والبحتري واسحاق الموصلي وابو هفان وعلي بن الجهم ويعقوب بن الربيع وبكر بن النطاح وابن المعتز وابو سعيد المخزومي وامرؤ القيس وكثير من أمثالهم فمن كان يهمه ان يعرف شيئاً من هذا الاخذ فليرجع الى الجرجاني والى الثعالبي فقد شفى كل منهما وكفى وبالغ فأوفى ، اما انا فاني على مذهب الذي يقول : العق العسل ولا تسل عن نحله ، فسواء علي أسرق المتنبي من الشعراء ام سرقوا منه . ان الذي يعنيني انما هو هذا القالب الذي صب فيه المسروق ، فما احسن ما قاله الجاحظ في هذا المعنى (١) :

والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وانما الشأن في اقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك فانما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير ؟

---

(١) الحيوان – الجزء الثالث – الصفحة ٤١



١٥

اذا كان الشعر ضرباً من الصبغ و جنساً من التصوير على نحو ما عرفه الجاحظ فما هو الصباغ الذي كان يصبغ به ابو الطيب المتنبيء ، ما هي اللغة التي كان يلجأ اليها في التصوير ، ما هي مصادر هذه اللغة ، ما هي محاسنها ومقابحها ، ولست اعني بلغة المتنبي مجرد الفاظه وانما أريد بها أيضاً جملة فنه وما يشتمل عليه هذا الفن من المعائب والقلائد .

اظن ان لغة الشاعر انما هي السحر الذي يسحر به و الفتنة التي يفتن بها ، فلا يكون الشاعر شاعراً الا اذا احب الالفاظ وعرف كيف ينتخبها ، فلا ريب في ان للغة الشاعر تأثيراً بليغاً في هز العواطف و تحريك القلوب ، فقد قرأت مرة في مجلة فرنسية ان الدكتور «ماردروس Mardrus» ترجم القرآن بعد ان استعد لهذا الامر عشرين سنة ، و قد تكلم على هذه الترجمة احد كتاب الفرنسيس فقال : لقد بلغ من تأثير القرآن في قلوب ثلاثمائة مليون مسلم مبلغاً اجمع فيه المبشرون على الاعتراف بانهم لم يستطيعوا ان يردوا مسلماً عن دينه حتى اليوم فاستنتج الدكتور « ماردروس » من ذلك ان الكلمة اذا وضعت مواضعها وانزلت منازلها كانت سحراً حلالا .

فهل تيسر للمتنبي ان يكون لفظه نوعاً من السحر وهو يسمي شعره شعر اللفظ

شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ كلانا ربُّ المعاني الدقاق

قبل أن نتبين هذا كله لا بأس بان نعرف قليلا من مصادر لغته ، من هم الشعراء الذين كان يأخذ عنهم ألفاظه .

استعان ابو الطيب بكثير من الشعراء في اختيار ألفاظه ، وقد يطول الكلام على استقصاء أسمائهم فاجتزيء بذكر طائفة منهم كأبي تمام والبحتري وابن الرومي وابي نواس وكثيّر .

أما ابو تمام فقد كان الضياء الذي يستضيء به فهو كثير الاغتراف من بحره، لان حبيباً كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة او كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج خوفاً على دينه (١)

فمرة كان يستعين بابي تمام على انتقاء الالفاظ التي يستطيع أن يصوّر بها ألوان الصبح والليل فالمعروف أن الصبح أبيض وأن الليل أسود ولكن ابا تمام قلب هذا المعنى فوصف أذربيجان فقال :

وكانت وليس الصبح فيها بأبيض فامست وليس الليل فيها بأسود

فاستحسن ابو الطيب هذا الكلام فقال في وصف منبج :

فالليل حين قدمت فيها أبيض والصبح منذ رحلت عنها أسود

ومرة كان يستعين به على انتخاب الكلمات التي تفصح عن دمع عيونه ، فقد رثى ابو تمام اسحق بن ابي ربعي فقال :

شقّ جيوبا من رجال لواسطاعوا لشقوا ما وراء الجيوب

فاعجبت ابا الطيب لفظة شق ما وراء الجيوب فعزى بها سيف الدولة في عبده يماك :

علينا لك الاسعاد ان كان نافعاً بشق قلوب لا بشق جيوب

وحيناً كان يستظهر بابي تمام على شكوى مشيب الفؤاد ، فابو تمام يقول :

شاب رأسي وما رأيت مشيب الرأس الا من فضل شيب الفؤاد

فما احب المتنبي ان تفلته كلمة شيب الفؤاد فقال :

الا يشب فلقد شابت له كبد شيباً اذا خضبته سلوة نصلا

وحيناً كان يستظهر به على شكوى الدهر، فقد قال ابو تمام لابي سعيد محمد بن يوسف الثغري :

---

(١) العمدة - الصفحة ٨٧

كثرت خطايا الدهر فيّ وقد يرى　　بنداك وهو اليّ منهـــا تائب

فأنس المتنبي بتوبة الدهر فقال لعلي بن منصور الحاجب :

حال متى علم ابن منصور بها　　جاء الزمان اليّ منها تائبا

وكان ابو الطيب يستنزل وحيه في البكاء على الربوع من أفق ابي تمام فانه لما قال :

لك يا منازل في القلوب منازل　　أقفرت انت وهنّ منك أواهل

كان يجعل نصب عينيه بيت ابي تمام :

وقفت وأحشائي منازل للاسى　　به وهو قفر قد تعفت منازله

ولقد لجأ الى ابي تمام في التفتيش عن الفاظ يصور بها علو الشرف فلم يجد احسن من قوله :

همة تنطح النجوم وجد　　آلف للحضيض فهو حضيض

فأسكرته لفظة تنطح النجوم فقال :

شرف ينطح النجوم بروقيه　　وعز يقلقل الاجبـــالا

وعمد له في التفتيش عن الفاظ يجعل بها الممدوح في حفظ الله : فابو تمام يقول في المعتصم :

لقد خان من يهدي سويداء قلبه　　لحد سنان في يد الله عامله

فهزته كلمة في يد الله فاستقبل بها سيف الدولة وقال :

على عاتق الملك الاغر نجاده　　وفي يد جبار السماوات قائمه

ولم يشأ ابو الطيب ان يمر بتفخيم ابي تمام لممدوحه دون الاغارة عليه فلما قال ابو تمام في خالد بن يزيد الشيباني :

لبس الشجاعة انها كانت له　　قدماً نشوغاً في الصبا ولدودا

قال المتنبي لكافور :

لبست لها كدر العجاج كأنما　　ترى غير صاف ان ترى الجو صافيا

ولما قال في اسحق بن ابراهيم :

ألا ان الندى أضحى أميراً　　على مال الأمير ابى الحسين

قال ابو الطيب في بدر بن عمار :

أمير امير عليه الندى كأن له منه قلباً حسودا

***

أما البحتري فقد كان يأخذ عنه المتنبي الفاظ الغزل ووصف الطبيعة لرقة ابي عبادة فلما اراد ابو الطيب ان يجد صفة للعين عرض على خاطره بيت البحتري:

لو كان في جسمي الذي في ناظريك من السقم

فأعجبه هذا السقم فقال؛

أعارني سقم جفنيه وحملني من الهوى ثقل ما تحوي مآزره

ولما أراد ان يجعل للاماكن لوناً من الالوان تذكر قول البحتري:

في كل مشرقة حصاها لؤلؤ وترابها مسك يشاب بعنبر

فارتاح للعنبر واللؤلؤ فقال في وصف الثوية:

وليلا توسدنا الثوية تحته كأن ثراها عنبر في المرافق

بلاد اذا زار الحسان بغيرها حصى تربها ثقبنه للمخانق

ولما اراد ان يشبه الماء بشيء لم يجد غير الفضة البيضاء فالبحتري يقول في وصف البركة:

كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجاريها

والمتنبي يقول في وصف دار كافور:

ولو ان الذي يخر من الامواه فيها من فضة بيضاء

وربما لجأ أبو الطيب الى البحتري في التنقيب عن الفاظ تسير بها الامثال فلما قال المتنبي:

فان الجرح ينفر بعد حين اذا كان البناء على فساد

نظر الى بيت البحتري:

اذا ما الجرح رمّ على فساد تبيّن فيه افراط الطبيب

واما ابن الرومي فقد كان يأخذ عنه الالفاظ التي تمثل حالة من حالات

النفس او صفة من صفات الفكر ، فابن الرومي يقول :

ومن فرحات النفس ما يقتل

فارتاح ابو الطيب لفرح النفس فقال :

فلا تنكرن لها صرعة   فمن فرح النفس ما يقتل

ولما أراد ابو الطيب ان يجد صفة للفكر لم يجد غير الاتقاد فقال :

اشفق عند اتقاد فكرته   عليه منها أخاف يشتعل

وهذا الاتقاد اقتبسه عن ابن الرومي :

أخشى عليك اتقاد الفكر لا حذرا

واذا نظرنا الى اخذ المتنبي عن ابي نواس تبين لنا انه كان يأخذ عنه الالفاظ التى تدل على هيبة الممدوح واتساع مناقبه فلما قال المتنبي لكافور :

يدل بمعنى واحد كل فاخر   وقد جمع الرحمن فيك المعانيا

خطر بباله قول ابي نواس

كأنما انت شيء   حوى جميع المعاني

ولما قال في المغيث بن علي بن بشر العجلي :

اذا بداحجبت عينيك هيبته   وليس يحجبه ستر اذا احتجبا

تذكر قول ابي نواس :

ان العيون حجبن عنك بهيبة   فاذا بدوت لهن نكس ناظر

اما كثير فقد كان يأخذ عنه كلمات النسيب ، فمن شعر كثير :

رمتني بسهم ريشه الهدب لم يصب   ظواهر جلدي فهو في القلب جارح

وهذا البيت اوحى الى ابي الطيب قوله :

راميات بأسهم ريشها الهدب   تشق القلوب قبل الجلود

❁ ❁ ❁ ❁

هذه طائفة من المصادر التي كانت تصدر عنها لغة المتنبيء ولا يتسع المقام لاستيعابها وانما ذكرت اليسير منها على سبيل الاستشهاد ، فأبو الطيب كان

كثير الاخذ عن ابي تمام، يمشي على آثاره في ألفاظه، ويصب على قوالبه، وابو تمام مشهور باسترساله في البديع، وميله فيه الى الرخصة واخراجه الى التعدي "(١)"
أفكان ابو الطيب يميل الى شيء من البديع تحدياً لابي تمام، والصحيح ان ابا الطيب استرسل في البديع ففي شعره كثير من الاستعارة والتمثيل والتشبيه والتجنيس والترديد والمقابلة والتقسيم والتفسير والاستطراد والتفريع والغلو والاطراد والاتساع والتغاير وما شابه ذلك الا انه ربما انحط به بديعه الى اسفل مراتب الاساءة .

لا ريب في أن اللجوء الى البديع انما هو من المحاسن واذا كنا نعني بالبديع الجديد من الالفاظ والتراكيب (٢) فلامندوحة للغتنا عن هذا الجديد والسبب في ذلك ان اللغة انما هي بقية صور قديمة كانت في خوالي عصورها تمثل أشكال الحياة على تباينها ثم بليت هذه الصور وعتقت فاصبحت لا ألوان لها فهي ميتة لا تهز المخيلة فاذا احببنا ان تهز هذه المخيلة وجب علينا ان نبدع أي أن نخلق صوراً لأن مثل الصور العتيقة كمثل الرماد الذي يبقى من النار الخامدة فالمجدّدون في كل عصر انما هم الذين ينفخون في هذا الرماد حتى يتلهّب فلننظر في قسم من بديع المتنبي .

من صور المتنبي : الترديد

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا   قلاقل عيش كلهن قلاقل

ومنه قوله :

أسد فرائسها الاسود يقودها   أسد تكون له الاسود ثعالبا

ومن صوره التقسيم :

أقل أنل أقطع أحمل علّ سلّ أعد   زد هش بش تفضل أدن سرّ صل

ومن هذه الصور الاطراد :

فأنت ابو الهيجا بن حمدان يابنه   تشابه مولود كريم ووالد

---

(١) الوساطة ـ الصفحة ٣٢٠ .

(٢) العمدة ـ الجزء الاول ـ الصفحة ١٧٧

وحمدان حمدون وحمدون حارث   وحارث لقمان ولقمان راشد

ومنها الغلو والشواهد على غلوه كثيرة :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه   لما أتى الظلمات صرن شموسا

الى آخر الأبيات .

من هذه الامثلة القليلة يتبين لنا مقدار الانخفاض الذي انخفضه ابو الطيب في تقليده ابا تمام في النهج الجديد .

والى جنب هذه المطاعن مطاعن كثيرة نبّه عليها الائمة في القديم وفي طليعتهم الثعالبي فلم يتركوا في هذا التنبيه مجالا لقائل ولو أعملنا الروية في بعض لغة المتنبي لتحقق عندنا ان جملة مقابحه اللغوية ناشئة عن فساد ذوقه الغنائي سواء أكانت هذه المقابح في بشاعة الابتداآت :

آحاد أم سداس في آحاد   لييلتنا المنوطة بالتنادي

أم في تعقد اللفظ وسوء الترتيب :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه   بان تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

أم في الذي ينشأ عن هذا التعقد من اتعاب الفكر :

فتبيت تسئد مسئداً في نيها   اسآدها في المهمه الانضاء

أم في استعمال الغريب الوحشي من الالفاظ كالابتشاك والساحي والوطس والكنهور .

أم في التفاصح بنوافر الالفاظ وشواذ الكلام كالمخش والتوراب

أم في الاستكثار من قول : ذا في الشعر ، أم في تكرير اللفظ في البيت الواحد من غير تحسين :

ولا الضعف حتى يتبع الضعف ضعفه   ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

أم في اللجوء الى المصطلحات الفلسفية المجرّدة من الصور كالجوهر والملكوت واللاهوت وأشباه ذلك .

أظن ان هذه المقابح كلها اصلها فساد مسامع المتنبي فكأن ابا الطيب لا ذوق

له في الموسيقى على انه يعلم ان الشعر قائم بالفاظه الموسيقية فقد ذكر عنه ان متشرفاً تشرف عليه وهو يصنع قصيدته التي اولها :

جللا كما بي فليك التبريح

ويتغنى فاذا توقف بعض التوقف رجّع بالانشاد من اول القصيدة الى حيث انتهى منها (١) وفي هذه الرواية دليل على تعبه في الشعر واكثر الذين يتعبون في الشعر يعظم نصيبهم من سلامة الذوق الموسيقي فعلام كان ابو الطيب يلجاء الى ما يؤيد فساد ذوقه في هذا الوجه .

شبهوا ابا الطيب بالملك الجبار يأخذ ماحوله قهرا وعنوة وشبهوه بالشجاع الجريء يهجم على ما يريده لايبالي مالقي ولا حيث وقع (٢) فمن كانت هذه صفاته فاخلق بشعره ان يكون مطبوعا بكثرة التفاوت وقلة التناسب وتنافر الاطراف وتخالف الابيات ، فالى جنب هذه المساوىء اللفظية التي اشرت اليها والتي لم اشر بعد كعسف اللغة والاعراب ووضع الكلام غير مواضعه وقطع الكلام قبل استيفائه الى غير ذلك مما تعصب له فيه القاضي الجرجاني في وساطته واحتج بحجج تكاد تكون قاطعة ، الى جنب هذه المساوىء كلها قلائد وفرائد برّ فيها من تقدمه واياس منها من تأخر عنه فما اصح ما قاله الثعالبي في تفاوت شعره :

« يجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط فبيناه يصوغ افخر حلي وينظم أحسن عقد وينسج انفس وشي ويختال في حديقة ورد اذا به وقد رمى بالبيت والبيتين في ابعاد الاستعارة او تعويص اللفظ او تعقيد المعنى الى المبالغة في التكلف والزيادة في التعمق والخروج الى الافراط والاحالة والسفسفة والركاكة والتبرد والتوحش باستعمال الكلمات الشاذة فمحا تلك المحاسن وكدر صفاءها وأعقب حلاوتها مرارة لامساغ لها واستهدف لسهام العائبين وتحكك بالسنة الطاعنين فمن متمثل بقول الشاعر :

(١) العدة ـ الجزء الاول ـ الصفحة ١٤١
(٢) العمدة ـ الجزء الاول ـ الصفحة ٨٧

انت العروس لها جمال رائق   لكنها في كل يوم تصرع

ومن مشبه اياه بمن يقدم مائدة تشتمل على غرائب المأكولات وبدائع الطيبات ثم يتبعها بطعام وضر وشراب عكر

هذا ما قاله الثعالبي في المتنبي ومقاله صحيح من كل وجوهه والظاهر ان التفاوت في الشعر صفة اكابر الشعراء فقليلا ماتتناسب قصائدهم وقليلا ما تطرد حسناتهم وبينا الطيب يقول في بعض قصائده :

تمل الحصون الشم طول نزالنا   فتلقي الينا اهلها وتزول

اذ يقول

أغركم طول الجيوش وعرضها   علي شروب للجيوش اكول

فلست ادري ما الفرق بين قوله : علي شروب .... وبين قول العامة في القوي الذي لا يبالي بالضعيف : يأكله اكلا ، فقد أثر ابو تمام في المتنبي تأثيرا حمله فيه كثيراً من سيئاته فان هذه الكلمات : شروب ، اكول اخذها المتنبي عن ابي تمام نفسه من قصيدة يمدح فيها الثغري :

في مكر للروع كنت اكيلا   للمنايا في ظله وشريبا

وبينا نجده يقول :

اين فضلي اذا قنعت من الدهر   بعيش معجل التنكيد

اذ يقول :

لأمة فاضة أضاة دلاص   أحكمت نسجها يدا داود

فهذا دليل على حرصه على كلامه ومحافظته عليه فهو لا يسمح بحذف شيء من هذا الكلام .

ولكن قلائد ابي الطيب غطت على هذه الهفوات فلم تذكر له سيئة الا ذكرت له حسنات فلئن قبح مطلع في قصائده فلقد حسنت مطالع :

أعلى الممالك ما يبنى على الاسل

ولئن عوص بعض شعره فقد سهل كثير من هذا الشعر :

ترفق ايها المولى عليهم فان الرفق بالجاني عتاب

ولئن استعمل الوحشي من الالفاظ فقد استكثر من استعمال ما نوسها :

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام

فلو عرضنا امثاله التي سارت وقوافيه التي شردت لوجدنا لفظه فيها وليد الحضر ، غذيّ المدر مما يتمثل به الخاص والعام والكبير والصغير والعالم والجاهل وهذه خصائص لغة الامثال والحكم .

ولئن عمد في بعض شعره لمصطلحات الفلسفة والمنطق التي لا تخلو من شيء من الجفاف فقد عمد لالفاظ كثيرة خالية من هذا الجفاف فيها نغمات موسيقية حلوة على السمع اذكر منها قوله : مشى عليها الدهر ـ شبيبة الزمان وهرمه ـ يمج ظلاماً ـ مكرمات مشت على قدم البر ـ دمع الحزن ـ دمع الدلال ـ دموع تذيب الحسن ـ نبتوا تحت ربابه ـ نسج النقع عليها براقع ـ الغت دماء الروم طاعتها ـ الى غير ذلك من آثار اللغة الشعرية .

ولئن وفق ابو الطيب في بعض الفاظه فقد وفق في بعض صفاته فجاءت مطابقة للموصوفات كل المطابقة لا تشبه الصفات العامة التي قد تطلق على كل موصوف دون شيء من التمييز فمن هذه الصفات قوله : الحدث الحمراء ـ الحسب الاغر ـ الرشأ الربيب ـ المروج الفيح ـ لجب الوفود ـ الارض الواجفة .

لكن هذه الالفاظ الموسيقية وهذه الصفات الخاصة قد لا تستفيض في شعره فلا تشبه لغة المتنبي لغة الشعراء اصحاب الفن الذين ارادوا ان يشعروا فغنوا ، فلا يدخل ابو الطيب في جملة الشعراء الذين يحبون الالفاظ فاذا أردنا ان نوازن بينه وبين البحتري مثلا من ناحية الالفاظ وجدنا بينهما فرقاً فالمتنبي لا يسحرنا بألفاظه ولا يفتننا بلغته الشعرية ، ومع هذا فاننا لا ننجو من سحره وفتنته فهو كالملك الجبار تهولنا جبرياؤه فيسلبنا مشيئتنا فنذعن لسلطانه سواء اعدل ام عسف أو كالصورة الحسنة في جملتها القبيحة في بعض تفاريقها ننظر الى جملة ألوانها فتحسن في نظرنا ونتأمل في بعض تفاريقها فتغطي متاعة الجملة على

شناعة التفاريق فلا نبالي بالقبح اليسير الذي يصحبه حسن كثير .

قد نستطيع ان نعيب لغة المتنبي بامور كثيرة كالامور التي ذكرتها في صدر هذا الفصل او كالامور التى لم أشر اليها ومنها وحدة الأسلوب في بعض شعره مثل قوله :

أمعفّر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا

وقوله :

ابن المعفّر في نجد فوارسها بسيفه وله كوفان والحرم

ومن هذا النوع قوله :

قائدو كل شطبة وحصان قد براها الاسراج والالجام

وقوله :

وخيل براها الركض في كل بلدة اذا عرّست فيها فليس تقيل

ومن هذا الجنس قوله :

لا يجذبنّ ركابي نحوه أحد ما دمت حيًّا وما قلقلن كيرانا

وقوله :

وما تقر سيوف في ممالكها حتى تقلقل دهراً قبل في القلل

فالتعفير والبري والقلقلة ألفاظ يكركرها المتنبي في بعض قصائده وقد يكرر غيرها من الألفاظ وفي هذا التكرير ما فيه من وحدة الألفاظ او وحدة الأسلوب .

قد نستطيع ان نعيب ابا الطيب بمجامع هذه العيوب ولكننا لا نستطيع أن نتفلّت من تأثيره ، فقد قلت ان المتنبي انما هو شاعر الهيجاء وشاعر الحكمة والمثل واذا خلد فانما يخلد من هاتين الناحيتين فالألفاظ التي تحتاج اليها الحكمة قد اهتدى اليها ابو الطيب ، وهي ألفاظ سهلة وأي كلام أسهل من هذا الكلام :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوّاً له ما من صداقته بدّ

فلغة المثل والحكمة قليلا ما تحتاج الى شيء من التزويق وانما تزويقها في حقيقة تعبيرها وسهولته والألفاظ التي تفتقر اليها الحروب قد ألقت الى المتنبي

طاعتها وهي الفاظ شديدة واي لفظ اشد من هذا اللفظ :

وما تقر سيوف في ممالكها حتى تقلقل دهراً قبل في القلل

فلغة الحرب تحتاج الى صور متقدة تمثل شيئاً من اتقاد الهيجاء ولهيب نارها والمتنبي لم تخف عليه مذاهب هذه اللغة .

هذه خصائص لغة لونت بمختلف الألوان : مرة تسهل فتعجل معانيها الى الذهن قبل الألفاظ ومرة تتوعر فلا يدركها الذهن الا بعد التعب والكد ، وحيناً تملي عليها الحضارة مألوف الكلام ومعتاده فيأنس الطبع بهذا الكلام الانس كله وحيناً تلهمها البداوة من وحشي الالفاظ وشاذها الفاظا تظن ان صاحبها من أجف الاعراب طبعاً ، هذه خصائص لغة تارة تبرز لنا مجردة من كل صورة معرّاة من كل نقش وتارة تختال في حلل جمعت ضروب النقش والتلوين لكن هذه الصور تؤذيك رثاثتها في بعض الاحيان ويرضيك رونق جدتها في بعض الاوقات مرة يصورها صاحبها دون شيء من حشد الخاطر وتكلف الصناعة بحسب خلو الجو من التعقب والتهيب ومرة لاتظهر هذه الصور الا بعد الحمل على القريحة والافراط في التعسف ، هذه خصائص لغة اذا حلّقت في سماء فلا تطاولها سماء ، لكنها اذا هبطت من عليائها هبطت الى الدرك الاسفل ، جمع صاحبها مختلف المحاسن والمساوىء فكان هذا الاختلاف عنوان عبقريته وعلامة خلوده .

قد تهزنا في المتنبي محاسن شتى اذكر منها حسن المطالع وحسن الخروج والتخلص وحسن التقسيم وسياقة الاعداد والابداع في التشبيهات والتمثيلات وافتضاض ابكار المعاني وقد تؤذينا في هذا الشعر مقابح متباينة أشرت الى ما تيسر لي منها لكن هذه المقابح لا تعفي على محاسنه ، وهذه المحاسن لا تؤلف جملة عبقريته فان في لغة المتنبي وفي شعره شيئاً لا ادري ما هو ولعل هذا الشيء انما هو صورة روحه فاذا كانت هذه الروح انما هي روح ملك جبار فالصورة التي تستهوينا في شعر المتنبي وفي لغته انما هي صورة الشاعر الجبار ؟

